حالات نادرة 8

قصص غريبة تدور أحداثها حول فتيات كويتيات

عبدالوهاب السيد الرفاعي

فانتازيا للنشر والتوزيع
FANTASIA FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTION

ساحر الكتب

العنوان

حالات نادرة 8

تأليف

عبدالوهاب السيد الرفاعي

الطبعة

الأولى 2026

ردمك:

978-9921-811-41-4

رقم الإيداع: 2025/2890

تصميم وإخراج

فانتازيا للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

فانتازيا للنشر والتوزيع

FANTASIA FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTION

مقدمة.. ولقاء صحفي

لم يكن لقاءً صحفيًا سعيتُ إليه بنفسي إن كان هذا ما قد يخطر في أذهانكم.. وإنما هو موقف عفَوي فرضَتهُ الظروف.. إذ تلقيت اتصالاً من زميل إداري في مستشفى الطب النفسي يرغب بالتوسط لقريبته التي تعمل في صحيفة إلكترونية مغمورة، وتريد إجراء لقاء صحفي معي.. فوجدت نفسي في وجه المدفع وأنا أستمع إلى زميلي الذي ظل يتحدث بحرارة، مؤكدًا بثقة أنني شخص خدوم -كما وصفني- ولن أرفض طلبه أو أتسبب له بالحرج أمام قريبته.. مما جعلني أوافق مضطرًا.. ولم تكد تمر دقائق حتى تلقيت رسالة نصية منها تشكرني فيها على موافقتي.. مؤكدة أنها على استعداد للقائي في أي مكان أختاره.. وفي أي وقت يناسبني خلال هذا الأسبوع.

وقد كنت وقتها جالسًا في شقتي في منطقة (الشامية) الحبيبة.. أدوّن بعض الملاحظات تمهيدًا للشروع بسرد الجزء الثامن من مذكراتي التي تحمل الاسم الشهير (حالات نادرة).. استجابة للمطالبات المستمرّة من القراء الأعزاء.. فبدا لي أن فكرة إدراج هذا اللقاء الصحفي في المقدمة فكرة مناسبة للغاية.. إذ سيكون بمثابة نبذة تعريفية متكاملة عن شخصي المتواضع.. خاصة لِمَن لم يتسنَّ لهم قراءة الأجزاء السابقة من السلسلة.

أتذكر أنني طلبت من الصحفية أن نجري اللقاء في نفس اليوم -وبعد ساعتين تقريبًا من تواصلها- حرصًا مني على إنهاء الأمر بشكل سريع ولطيف.. واقترحت عليها أن نلتقي في مقهى (كاريبو) القريب

من شقتي.. وهو مكان هادئ ومناسب لمثل هذه الحوارات.. فوافقَت مباشرة مُعربة عن امتنانها الشديد لسرعة إنجاز اللقاء وعدم التأجيل كما كانت تتوقع على حد قولها.

كانت الساعة تتجاوز السادسة والنصف مساءً.. حين خرجت من الشقة سيرًا على الأقدام مستمتعًا بالأجواء اللطيفة في شهر (نوفمبر).. فمشيت باسترخاء في الشوارع الداخلية بين الأحياء السكنية.. إلى أن وصلت إلى المقهى الذى أزوره كثيرًا -بالمناسبة- وأجلس فيه عندما أشتاق لشرب قهوة مصنوعة بطريقة احترافية.. فكانت معظم الطاولات فارغة وكأنها تنتظر غرباء أطوار مثلي.. لأن معظم الناس في تلك الأجواء الجميلة يلجأون إلى المقاهي الخارجية.. المهم أنني اخترت طاولة صغيرة في زاوية المقهى.. حيث وضعت معطفي على الكرسي المجاور وجلست أعبث في هاتفي.

لم أنتظر طويلاً.. إذ وصلت الصحفية بعدها بدقائق.. حيث تبادلنا عبارات التحية والمجاملة.. قبل أن أسألها عن قهوتها المفضلة كي أقوم بدوري مثل أي (جنتلمان) وأذهب لأشتري لها ما تريده.. أما أنا فطلبت قهوتي المعتادة.. (اللاتيه).. وقد قمت باستغلال وقوفي عند مكان استلام الطلب.. إذ رحت أتأمل الفتاة وهي تعبث بهاتفها وكأنها تقرأ الأسئلة التي أعدّتها للقاء.

كانت متوسطة القامة ممتلئة الجسد قليلاً.. وعلى قدر من الجمال.. ترتدي بلوزة تغطي رقبتها.. في حين انسدل شعرها الأسود على كتفيها بطريقة لطيفة تجيدها الفتيات.. فظللت أحاول تحليل

شخصيتها وأنا أحمل كوبي القهوة آملاً ألاّ تكون من النوع الثرثار.. إلى أن وصلت إلى مكان جلوسنا ووضعت لها قهوتها أمامها.. ثم جلست مقابلها ممسكًا بقهوتي منتظرًا منها أن تتحدث.. فأزاحت خصلة من شعرها.. وراحت تنظر إليّ بطريقة ودية وكأنها تلتقي بشخص تعرفه جيدًا كونها قرأت الأجزاء السابقة من السلسلة كما علمت منها.. ثم سألتني:

- هل تمانع لو قمت بتسجيل اللقاء صوتيًا على أن أقوم بتفريغه على الورق لاحقًا؟!.

أومأت برأسي مبتسمًا أنْ لا بأس.. فابتسمَت ممتنّة وقامت بتشغيل التسجيل في ذاكرة هاتفها.. ثم وضعَت الهاتف أمامي وهي تطلب مني ألاّ أكون مختصرًا في إجاباتي.. ليبدأ بعدها اللقاء الذي استمر لأكثر من ساعة.. وها أنا أنشره لكم كاملاً بلا حذف أو تعديل سوى ما يتطلبّه السياق الأدبي.

السؤال 1: من هو الطبيب النفسي الذي يكتب هذه المذكرات؟!.. حدّثنا عن نفسك قليلاً.

- مجرد طبيب نفسي كويتي الجنسية.. أعزب.. في بداية الخمسين من عمري.. فضّلت أن أبقى بلا اسم لأن الجميع يناديني بلقب (دكتور)، وأكاد لا أسمع اسمي حتى على لسان أقاربي.. ويبدو أنني أحببت أن أحتفظ باسمي لنفسي.. لذا فإنني أرجوكِ ألّا تنشريه.. كما أنني أعشق الوحدة بطريقة تثير استغرابي شخصيًا.. فأقضي جلّ وقتي في شقتي للقراءة ومشاهدة الوثائقيات والأفلام الأجنبية.. وأمارس الرياضة بصورة منتظمة محاولاً أن أصنع أفضل نسخة

ممكنة من نفسي.

السؤال 2: تبدو حزينًا اليوم.. لماذا؟!.

- أنا أبدو حزينًا كل يوم.. لكن أحيانًا لا أمتلك القوة لإخفاء هذا الحزن.. تمامًا كحالي الآن.. ولا تسأليني عن سبب الحزن.. صدقيني لا أعرف.. لقد تحدّثت في جزء سابق عن الحزن الوجودي.. ربما يكون هو السبب.. أي أنني لست حزينًا بسبب أمر محدد.. بل بسبب وجودي في هذا العالم فحسب(1).

السؤال 3: أنت تنشر مذكراتك تحت مسمى (حالات نادرة) منذ عام 2011 -وما زلت تفعل- فلماذا قررت نشر مذكراتك أساسًا؟!.

- الإجابة معقدة قليلاً.. فهذه المذكرات قد تبدو في الوهلة الأولى عني فقط.. لكنها في الواقع عن أرواح أنهكَتها الحياة وأراها كل يوم تقريبًا في مستشفى الطب النفسي.. فتلك الأرواح المنهكة جعلتني أكتشف هشاشتي بقدر ما جعلتني أكتشف هشاشة الآخرين.. لذا قررت كتابة مذكراتي.. خاصة وأن بعض الحالات المرضية لم تكن مجرّد حالات طبية.. وإنما هي نتاج قصص غريبة جدًا تستحق أن تصل للقارئ مع الحفاظ على سرية المعلومات الشخصية للمريض.. كما ترين.. لقد كتبت ونشرت مذكّراتي هذه لأسباب متشابكة من العسير شرحها بوضوح.

السؤال 4: لماذا اخترت الطب النفسي تحديدًا؟!.

- منذ صغري وأنا أنجذب لردود أفعال الناس.. فأرى ذلك الذي يكذب.. وغيره الذي يبكي.. والآخر الذي يغضب.. وأنتبه للأسرار

التي لا يعترف بها الناس لكنها تعيش في أعماقهم.. كنت أشعر أن الإنسان يحمل في داخله عوالم معقدّة تستحق التغلغل فيها لفهمها.. واكتشفت عندما كبرت قليلاً، أن الطب النفسي يمنحني فرصة الاقتراب من هذه العوالم.. لكنه أيضًا جعلني أكتشف أنني -في هذه الحالة- أفتح أبوابًا أخرى داخل نفسي.. وأواجه أسئلة لم أكن أتصور أنني سأطرحها على ذاتي.

السؤال 5: كيف تصف علاقتك بمرضاك؟!.

- لا أراها مجرد علاقة تقليدية بين طبيب ومريض.. وإنما هي مليئة بالتأمل والبحث.. ففي كل جلسة.. أشعر أنني أشارك مرضاي جزءًا من أرواحهم.. وأسمح لهم -ربما دون وعي مني- بأن يقتربوا من أعمق مناطق روحي أيضًا.. إنها علاقة مرهقة لكنها ضرورية.. أحيانًا أشعر أنهم يأتون إليّ طلبًا لشخص يستمع إليهم فقط.. وهذا ليس دوري كطبيب نفسي بالمناسبة.. إنه دور الاستشاري النفسي.. وقد شرحت في أجزاء سابقة الفارق بين الاثنين.. لكني لا أمانع القيام بدور الاستشاري النفسي أيضًا لو كان وقتي يسمح بذلك.. وهو ما فعلته في أكثر من قصة سردتها سابقًا.

السؤال 6: لقد ذكرت في جزء سابق من سلسلة (حالات نادرة) أنك تركت بيت العائلة لتعيش في شقتك وحيدًا.. وكنت تعلل خروجك برغبتك الشديدة في العزلة.. وأنك لا تحتمل بيت العائلة المزدحم بأشقائك وزوجاتهم وأطفالهم.. حدثني أكثر عن ذلك.

- لم يعد هناك بيت للعائلة بعد أن توفيت والدتي في العام الماضي -وهو ما لم أذكره للقارئ سوى الآن- لتلحق بوالدي الذي سبقها

بسنوات طويلة كما ذكرت في مذكراتي سابقًا.. فقمنا ببيع البيت وتوزيع قيمته على الورثة.. أما عن سبب استقلالي عن الجميع والانتقال للسكن وحيدًا منذ سنوات وقبل وفاة والدتي.. فذلك لأنني -بصراحة- لم أشعر يومًا بالانتماء إلى أحد.. لقد كنت قريبًا من أفراد عائلتي مكانيًا وبعيدًا نفسيًا.. حيث ينتابني الشعور الدائم بأنني لا أشاركهم عالمهم.. كما أنني أكره التجمعات والمجاملات والمناسبات العائلية.. ووجدت في السكن وحيدًا راحة لا يمكن وصفها.. وتنسجم كثيرًا مع نمط حياتي الذي أحبه وأحب أن أتحكم بكل تفاصيله مهما كانت تافهة.

السؤال 7: ماذا عن علاقتك الحالية بأفراد عائلتك؟!.

- بصراحة.. إنها علاقة متوترة، ولكن بطريقة صامتة.. فحتى أثناء وجودي بينهم.. أشعر أنني مجرد زائر أكثر من كوني فردًا في هذه العائلة.. إنني أحب فلسفة الرحيل.. الرحيل عن البيئة التي لا تناسبني.. الرحيل عن الأفكار الغبية.. عن العلاقات السامة.. عن الصخب.. لهذا لا أظن أن علاقتي بهم ستكون يومًا أفضل مما هي عليه حاليًا.. إنني متواجد دومًا لو احتاجوا إليّ.. وهذا ما يهمني.

السؤال 8: واضح أنك تعرف كيف تقضي أوقات فراغك.. لكن لا بد من وجود أنيس في حياتك.. ألا تتفق معي؟!.

- خير أنيس بالنسبة لي هو الكتاب والعِلم.. هذه متعتي في الحياة.. أما لو تقصدين الصحبة البشرية فلا أجد نفسي فيها أبدًا.. ولا أتخيل أن أخرج مع أحدهم يومًا كي أجلس معه في أحد المقاهي وأستمع إليه.. إنني أكره كثرة الكلام.. أقولها باختصار.. وأريد أن

أعيش صمتي الخاص دون مقاطعة.. فيكون تركيزي على إصلاح نفسي ومحاسبتها وتهذيبها وتعليمها.. كي أخرج بالشكل الذي يُشعرني بالفخر.. أظن أن الوحدة لم تعد خيارًا مؤقتًا بالنسبة لي.. وإنما حالة وجودية أعيش فيها بعمق أكبر بكثير مما أعيشه في وجودي بين الناس.

السؤال 9: حدّثنا عن الزواج.. أنت لم تتزوج حتى الآن.. لماذا؟!.

- لا أؤمن بالزواج من دون حب.. وأنا لم أعثر على هذا الحب.. هكذا بكل بساطة.. وقد كنت -وما زلت- أرفض فكرة الزواج التقليدي.. كما أنني لم أجعل من الزواج يومًا هدفًا أو حلمًا أركض خلفه.. وبذلك وفّرت على نفسي الكثير من الوقت والمال والسلامة الذهنية.. والواقع أنني أرى المجتمع يبالغ كثيرًا في تصوير أهمية الزواج.. فهو ليس للاستقرار كما يرددون دومًا.. وإنما هو للمستقرين.. ولا أرى في نفسي شخصًا مستقرًا بصراحة.. وأصدقك القول.. أصبحت أخشى الزواج.. أخشى أن أفقد الهدوء والاستقرار النفسي الذي أعيشه.

السؤال 10: وما هو الزواج الناجح بنظرك؟!.

- هو الحب الذي يكون عبارة عن منافسة بين الطرفين.. كل طرف يجتهد ليكون أفضل مما كان عليه حتى يرضي الطرف الآخر.. إنها منافسة جميلة لا يوجد فيها خاسر.. على عكس العلاقات التي يسعى فيها أحدهم لطمس الآخر ومنعه من تحقيق النجاحات.. فقط كي لا يشعر بأنه الطرف الأقل أو الأضعف.

السؤال 11: هل ترى نفسك شخصًا سعيدًا؟!.

- لست شخصًا تعيسًا.. لكن لا يمكن أن أصف نفسي بالسعادة.. لأنني أرى السعادة مجرد حالة مؤقتة وهشة للغاية سريعًا ما تنتهي.. إنني مدرك لحقيقة النفس البشرية بعد كل هذه السنوات.. فهي تظل تبحث عن لحظات انسجام مؤقتة.. لكنها لا تستطيع أن تتمسك بها طويلاً وإلاّ سئصاب بالملل.. لذلك أفضّل أن أصف نفسي بأنني إنسان متأمل أكثر مني إنسان سعيد.

السؤال 12: بمناسبة الحديث عن النفس البشرية... ماذا تقول عنها؟!.

- النفس البشرية ليست شيئًا يمكن اختزاله أو فهمه ببساطة.. هي غابة كثيفة مليئة بالظلام والممرات الملتوية والذكريات المنسية والجراح القديمة التي لا تلتئم.. وكل منّا يحمل داخله هذه الغابة ويحاول أن يجد مخرجه الخاص.. وهذا ما يجعلنا بشريين.. لذلك لا أستطيع أن أزعم أنني فهمت النفس البشرية بصورة كاملة.. لكنني على الأقل صرت أقدّر تعقيدها وجمالها وهشاشتها في الوقت ذاته.

السؤال 13: لو سألتك بكل وضوح وصراحة.. أعطني شيئًا تعلمته من القصص والتجارب التي مررت بها.. فماذا سيكون ردك؟!.

- هناك مصطلح يستخدمه الأُدباء وهو (التجلّي) (Epiphany).. عندما تنتاب الإنسان بصيرة مفاجئة أو إدراك مفاجئ يغير فهمه لنفسه أو استيعابه للعالم.. هذه البصيرة المفاجئة نادرة الحدوث.. وأحيانًا يولد الإنسان ويموت وهو لم يمر بها(2).. المفارقة هنا أنني مررت بتلك البصيرة المفاجئة مرارًا لغرابة القصص

التي سمعتها من مرضاي أو عشتها بنفسي.. إن مهنتي كطبيب نفسي حققت لي الكثير.. الوعي والنضج والحكمة معًا(3).

سؤال 14: لماذا معظم قصصك تتعلق بالفتيات؟!.

- شخصية البنت في مجتمعاتنا العربية غالبًا ما تكون مسحوقة أمام والديها باسم العيب والعار والدين والبِر والطاعة.. وهذا مع الأسف شوه علاقة البنت بأفراد عائلتها بمن فيهم أشقائها -وربما أيضًا أبناء عمومتها في بعض العوائل- فأصبحت لديهم سلطة مطلقة عليها مع عدم المغفرة لها تجاه أي خطأ.. وأصبح شرف العائلة بأكملها مرتبطًا بها.. وبالتالي من الطبيعي جدًا أن تكون البنت هي الأكثر عرضة للمشاكل والاضطرابات النفسية تحت كل هذه الضغوط.

سؤال 15: وكيف يمكننا معالجة هذه المشكلة في مجتمعاتنا؟!.

- أعتقد أن التغيير يجب أن يبدأ من العائلة نفسها.. عندما يفهم الأب والأم أن لابنتهما شخصية مستقلة.. وهي مسؤولة بالكامل عن تصرفاتها.. تمامًا كما هو الحال مع الابن.. وأن البِر والوفاء والامتنان لا يعنيان طمس شخصية الأبناء.. المسألة تتطلب فقط توعية مجتمعية.. وإلاّ فسنكون على موعد مع موجة تمرُّد للأنثى في مجتمعاتنا.. وأعتقد أننا بدأنا نعيشها بالفعل.

سؤال 16: هل الأدوية النفسية ومضادات الاكتئاب تجلب السعادة؟!.

- الأدوية النفسية هي أدوية كغيرها من العقاقير الطبية.. تعالج الحالة المرضية وتساعد في عودة الشخص لحالته النفسية الطبيعية

التي وُلد عليها.. أي أنه سيحزن ويفرح كأي إنسان.. ولكن بحالة متوازنة لن تؤثر على جودة حياته.. عندها سيكتسب الصلابة النفسيـة التـي تساعده على مواجهـة الضغـوط والصـدمـات.. شرط أن يقـوم بمساعدة نفسه أيضًا من خلال إجراء تغييرات شاملة في حياته ومحاربة عاداته السيئة.

سؤال 17: أجدك مستمعًا جيدًا لكل مريض يزورك.. ألا تشعر بالملل من كثرة الاستماع؟!.

- على العكس.. فذاكرة الحزن عند الإنسان أعمق وأكثر تأثيرًا من ذاكرة الفرح.. مما يعني أنّ استماعي لمريض في أزمته قد يشكّل نقطة مضيئة في حياته لا ينساها أبدًا.. وهذا يجعلني أشعر أن وقتي له قيمة.. ويزيد رغبتي الحقيقية بأن يخرج كل من يزورني وهو أفضل حالاً شاعرًا بشيء من التحسن.

سؤال 18: عندما تصف غرفتك في مستشفى الطب النفسي.. أرى أنك تصفها بطريقة حميمية جدًا.. وكأنك صنعت منها بيئة هادئة مريحة لك.

- لأنني قرأت كثيرًا عن بيئة العمل(4).. وأعرف تأثيرها النفسي الإيجابي على الإنسان.. وهذا ما يجعلني في مزاج رائق دومًا لعلاج المرضى.. كما أن تلك الأجواء تمنح الطمأنينة لكل من يدخل عندي طلبًا للعلاج النفسي.

سؤال 19: ماذا ستقول لو طلبت منك أن تقدم نصيحة لعلاج الدماغ من الأفكار السلبية؟!.

- العلاج الفعّال هو كثرة الحركة والمجهود البدني.. فهذا يجعل المخ يوجه نشاطه ناحية البدن بدلاً من أن يأكل نفسه بنفسه إن صح التعبير.

سؤال 20: هل ستنشر جزءًا جديدًا من سلسلة (حالات نادرة)؟!.

- ستجدين هذا اللقاء كاملاً في مقدمة الجزء رقم 8 من سلسلة حالات نادرة بالفعل.. لأنه يشرح كل ما يهم القارئ الجديد عن حياتي ويوفر عليّ عناء كتابة مقدمة جديدة له.. ويوفر على القارئ القديم كذلك عناء العودة إلى أجزاء سابقة كي يتذكر هذه التفاصيل.. وبالطبع لن أذكر أي معلومات عنكِ احترامًا لخصوصيتك.

وهكذا عزيزي القارئ.. انتهى اللقاء.. وأظنك حصلت فيه على كل الإجابات التي تهمك عن شخصي المتواضع كي تستطيع البدء بهذا الجزء الجديد من سلسلة (حالات نادرة).. وستكون لي عودة في خاتمة الكتاب للتعليق على القصص بشكل عام.. وكل ما أستطيع تأكيده لك أن القصص في هذا الجزء ستكون غريبة ومرعبة ومثيرة للتساؤلات.. وآمل أن تكون مُسليّة كذلك.

وأرجو أن تتذكر أيضًا أنّ ما سيُروى في الصفحات القادمة ليس مجرد حكايات عابرة.. وإنما تجارب إنسانية شديدة الخصوصية والتعقيد.. ولذلك أدعوك إلى أن تقرأ القصص بقلب مفتوح وعقل يقظ وأجواء هادئة تساعدك على التركيز.. وأن تدع نفسك تنجرف مع الأحداث والتفاصيل حتى النهاية.. ففي كل قصة.. ستكتشف وجهًا خفيًا للحياة يثير تساؤلاتك وفضولك تجاه ما يخفيه الناس من أسرار.. هذه طبيعة ما ستجده في 6 قصص وحالات جديدة لم

تسمع بها من قبل.. (حالات نادرة).. بجزئها الثامن.

خطة.. غير قابلة للفشل

تحكيها (وفاء)

العمر 22 سنة

كالعادة.. أجلس في غرفتي في المستشفى وفي إحدى نوباتي المسائية التي تبدأ منها معظم القصص التي أسردها لكم.. تلك القصص التي تحمل هذا الاسم الشهير (حالات نادرة).. وقد كنت وقتها أشرب قهوة أعددتها بنفسي في ماكينة القهوة الجديدة التي اشتريتها لمكتبي.. فأحتسي الـ(كابتشينو) لأتأكد من جودة الخلطة كونها المرة الأولى.. وأزيل الرغوة من على شفتي وأنا أحدق في أرجاء الغرفة مستعيدًا بعض ذكرياتي مع مرضاي.. غريب أنني لا أتذكر أشكالهم.. لكني أتذكر قصصهم الغريبة التي سرَدت لكم بعضها في أجزاء سابقة.. وأتذكر كم من دموع انهمرت هنا.. وكم من مريض نفسي دخل صامتًا مترددًا فشجعته كي يجلس على هذا المقعد الجلدي أمامي ليتحدث عن مشكلته النفسية.. معظمهم فتيات في عمر الزهور يحملن أحزانًا ترهقهن ونفوسًا أنهكَتها الندوب.. والقليل من الرجال الذين يبدون أقوياء لمن يراهم من الخارج.. لكنهم مهزومون تمامًا من الداخل.. إن النفس البشرية بوجهة نظري هي أكبر ألغاز هذا الكون.. تجدها هشّة وعنيدة في نفس الوقت.. وتبحث في الغالب عمّن ينقذها.

وقد قمت مؤخرًا بخطوات جعلت من مكتبي مكانًا أكثر استرخاء لي ولكل من يزورني.. عندما بت أعتمد على إضاءة خافتة تأتي من مصباح جانبي هادئ وضعته على جانب المكتب.. وكأنني تلميذ

مجتهد يقضي الليالي في دراسته.. مع أعواد البخور التي أستخدمها بين وقت وآخر لتبقى الرائحة حاضرة في الغرفة وتبعث شعورًا غريبًا بالسكينة.. بالإضافة إلى تلك النبتة الصغيرة التي أضعها على مكتبي وتجسّد عشقي للحياة الهادئة.. إن الوحدة ليست عبئًا عليّ.. وإنما هي ملاذي الوحيد الآمن بعيدًا عن الزحام الذي لا يشبه عالمي الداخلي.. وأخيرًا.. لا بد من صوت صديقي الوحيد (عبدالحليم حافظ) وهو يصدح متألمًا بكلمة (جباااار).. فلا أعرف من منا الأسوأ حظًا.. أنا الذي فاتني قطار الزواج بعد مكابرة وعناد وتأجيل مني.. أم هو الذي أهانته حبيبته وتخلّت عنه؟!.. أنا الذي ما زلت أعاني قسوة الحياة.. أم هو الذي رحل عن عالمنا؟!.

وكوني أتحدث هنا عن نوبتي المسائية.. فإن هذا يعني أن هناك حالة جديدة سنتحدث عنها وعن قصتها بالتفصيل.. حيث بدأ الأمر بتلك الفتاة التي رأيتها تقف على عتبة الغرفة بتردد.. كونها ترى الإضاءة خافتة وكأنها تشعر أنها أمام محل وُضعت عليه لافتة (مغلق).. فأشرت لها بيدي أن تدخل وأنا أقوم -بنفس الوقت- بإيقاف صوت (عبدالحليم حافظ) المنبعث من هاتفي.. لتدخل الفتاة بخطوات مترددة وصوت حذائها الرياضي بالكاد يُسمَع فوق أرضية الغرفة.. وقد كانت تسير منكمشة وهي تحمل حقيبة صغيرة ضمّتها إلى صدرها وكأنها تستمد منها الطمأنينة.. في حين يعلو ملامحها إرهاق شديد لا علاقة له بالسهر أو المرض الجسدي.. بل هو إرهاق الروح كما بدا لي.

نظرت إلى ملامحها بتمعّن وإلى شعرها القصير جدًا.. وبنطلونها الضيق وقميصها العاري من الأكمام.. فكان من المستحيل ألاّ ألاحظ

الوشوم التي تبدأ من ذراعها اليمنى وتنتهي إلى كتفها.. ما يدل على نوع من التمرد على العالم.. ورغم كل هذا.. إلاّ أن ملامح الفتاة لم تكن أبدًا تجسيدًا لمظهرها.. إذ كانت تحمل نظرات منكسرة.. وكأنها تعرضت لهزيمة قاسية مؤخرًا وشيء يتجاوز المشاكل المعتادة.

سألت الفتاة إن كانت تريد أن أضيء الغرفة بالكامل.. فردّت بصوت خافت أنها تشعر بالراحة هكذا.. بالطبع يا عزيزتي.. إنه أمر متعمّد من أجلك ومن أجلي كذلك.. ثم سألتني بعد لحظات من الصمت:

- دكتور.. هل من الممكن أن يصاب الإنسان باضطراب نفسي في ليلة وضحاها؟!.

أجبتها مبتسمًا:

- هذا وارد.. إذ لا يمكن لأحد أن يتوقع ردة فعل دماغ الإنسان تجاه صدمة محددة أو عدة صدمات مر بها في حياته.. وأحيانًا قد يصاب باضطراب نفسي في عمر محدد، فقط بسبب عامل وراثي.. إن أدمغتنا لغز ولا نعرف عنها سوى القليل.. بل أن كيميائيات الدماغ قد تتغير فجأة بلا سبب واضح.. وتؤدي إلى اضطرابات نفسية بدون عوامل وراثية أو صدمات نفسية(5).

أومأت برأسها إشارة إلى الفهم.. فسألتها محاولاً مساعدتها على ترتيب أفكارها:

- أخبريني أولاً.. ما اسمك؟!.

أطلقت زفيرًا عميقًا وهي تقول:

- (وفاء).

سألتها بخفوت ونبرة تعاطف:

- ما بكِ يا (وفاء)؟!.

تنفّسَت بعمق.. وقالت بكلمات مترددة:

- لا أدري من أين أبدأ.

حاولت بث روح الطمأنينة في قلبها وأنا أقول بنبرة مشجعة:

- ابدئي من حيث تريدين.. ولو كان الأمر معقّدًا فقد أوقفك بين لحظة وأخرى كي أطرح عليك الأسئلة.. لعل أسئلتي تساعدك في صياغة المشكلة بطريقة أفضل.

وضعت يدها على صدرها وكأنها تعبّر عن امتنانها.. ثم تحركت شفتاها بصعوبة لتقول وهي تنظر إلى المصباح الخافت في الغرفة:

- كنتُ صغيرة.. أصغر بكثير من أن أحتمل كل هذه الصراعات.. إن أبي وأمي لم يعرفا يومًا كيف يتحدثان إلاّ بصراخ يكاد يشرخ الجدران.. ومشاهد خلافاتهما ما زالت ترافقني في أحلامي.. كنت أسمع الكبار يقولون أنّ الأطفال لا يفهمون.. لكنهم نسوا أن الأطفال لا ينسون كذلك.. أما أخي الأكبر.. فلَم يكن أفضل منهما.. إذ كان قاسيًا فاسدًا لا يفارق رفقاء السوء.. بل وازدادت قسوته تجاهي في فترة مراهقتي.. عندما كان يضربني لأسباب تافهة ويَشك بكل أفعالي.. وكأنه يرى بي صورة للفتيات العابثات اللاتي يعرفهن.. لقد كنت أهرب إلى زاوية غرفتي كل يوم.. أحتضن ركبتي وأغلق أذني محاولة أن أصنع عالمي الخاص.. وأحلم بالفرار من ذلك الجحيم إلى

أي مكان.. أردتُ فقط أن أشعر بأنني مرئية.. أنني موجودة.. وأن هناك من يهتم بي.

إنها القصة المعتادة في مجتمعاتنا الشرقية وإن كانت مؤلمة.. لا أصدق كيف تَجرم بعض العائلات في حق بناتها.. لكني لم أقل ذلك.. وإنما تركت (وفاء) تكمل لتقول:

- كانت تمر الأيام والشهور بطيئة مملة وحياتي تسوء أكثر وأكثر.. وهذا ما جعلني أنكمش أكثر في عالمي الخاص.. حتى أنني كنت بعيدة عن زميلاتي في المدرسة.. منعزلة عنهن ولا أملك المزاج لمصاحبتهن أو التحدث إليهن.. ولم أكن طالبة مجتهدة بالمناسبة.. إذ كنت أنجح بصعوبة محققة أدنى درجات النجاح.. وأقضي بقية يومي منسية في البيت.. لا متنفس حقيقي لي سوى هاتفي.. ومن هنا بدأ كل شيء.. عندما ظهر (بسام) فجأة في حياتي وأنا لم أكمل الـ17 من العمر بعد.

سألتها بهدوء وود:

- علاقة عاطفية؟!.

ابتسمت ابتسامة باهتة مشوّهة كأنها تستحضر صورة عزيزة وأليمة في آن واحد.. ثم قالت بصوت يحمل مرارة عميقة:

- نعم.. كان (بسام) يتابع حسابي الشخصي على إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. فتواصل معي عبر الرسائل الخاصة بسبب تأثره بخواطري اليومية التي أكتبها وأشارك بها المتابعين.. لتتطور علاقتنا مع مرور الأيام.. حيث علمت أنه يكبرني بـ5 سنوات تقريبًا..

أي أنه كان في أوائل العشرينات.. لكن بدا لي وكأنه يعرف العالم كله.. إذ كنا نقضي ساعات طويلة على الهاتف وأنا أستمع إليه في أغلب الأوقات منبهرة بخبرته في الحياة.. كما ازدادت علاقتنا تقاربًا حين كان يلتقي بي أوقات خروجي من البيت مشيًا متجهة إلى السوق المركزي.. فكنت أجلس معه في سيارته نتحدث حول مختلف المواضيع.. وقد شعرت أنه الإنسان الوحيد الذي يعاملني باهتمام وينظر إليّ كما لم يفعل أي شخص آخر.. بينما علمت منه أنه يعيش وحيدًا في شقته رغم سنه الصغيرة.. كونه ينتمي بدوره إلى أسرة مفككة عانى فيها كثيرًا وهو يرى والده يدمن المخدرات.. ووالدته التي وضعت كل ضغوطات الحياة في تصرفاتها الحادة وقسوتها في تربية أبنائها.

صمتت للحظة وشردَت قليلاً.. لكنها عادت إلى الواقع سريعًا لتتابع:

- لقد كان (بسام) يملأ رأسي بالأحلام.. ولا أنسى عبارته أبدًا حين اتصلت به ذات يوم وأنا أبكي بحرقة بسبب شعوري الشديد بالوحدة وشجارات والديّ المستمرة التي تنتهي غالبًا بالضرب.. إذ قال فجأة: ((حبيبتي.. لماذا لا تهربين من عائلتك وتقيمين معي في شقتي؟!.. بإمكاننا أيضًا أن نتزوج لاحقًا.. ولن يتمكن أحد من الإساءة إليك بعد ذلك)).. ورغم أن هذا العرض قد يبدو مخيفًا للوهلة الأولى.. إلاّ أنّ ترددي لم يدم طويلاً.. إذ كنت أتحرك بدافع الحب وتهور المراهقة.. فأخبرت (بسام) بموافقتي بعد أقل من أسبوع.. ليأتي بسيارته بالقرب من حينا السكني.. حيث تسللت خارجة من البيت من دون أن يراني أحد.. وركبت معه لأهرب من سجن عائلتي بلا عودة.. نعم.. تركت أهلي الذين لم أشعر يومًا أنهم كذلك.. ومن دون أن آخذ شيئًا

من غرفتي.. بعد أن وعدني (بسام) بأنّ حياتي بأكملها ستبدأ معه.. وأنه سيشتري لي كل ما أحتاجه.

رفعت حاجبي مستغربًا لسرعة توالي الأحداث في حياتها.. وسألتها مستفهمًا:

- ولماذا اقترح عليك الهرب معه؟!.. لماذا لم يتقدم للزواج منك لو كان يحبك إلى هذا الحد؟!.

أجابت بلا تردد:

- لأن أبي لم يكن ليوافق أبدًا على ارتباطي بشاب يتعاطى والده المخدرات.. كما أن (بسام) قد ضاع هو الآخر بين أصدقاء السوء وفشل في دراسته.. أي أنه لا يمتلك أي مؤهلات للزواج.. وبسبب ذلك.. كان يمارس أعمال الاحتيال والنصب بدهاء شديد يثير الدهشة والإعجاب بصراحة.. لقد اعترف لي بكل هذا بعد أن وثق بي وتوطدت علاقتي به أثناء مكالماتنا الهاتفية.. فهو يحتال على الكثيرين بطريقة لم أسمع عنها من قبل.. لكنه شرحها لي بالتفصيل.. طريقة يُطلق عليها اسم (نظام بونزي)(6).. وأصدقك القول أنني شعرت بالمزيد من التعلق تجاه (بسام) رغم كل هذا.. ربما لشعوري بأنه يمتلك كل ما افتقدتُه في حياتي، كونه شابًا قويًا واثقًا جدًا من نفسه لا يهاب الناس ولا القانون.. ومن ناحية أخرى.. حنون جدًا تجاهي ويحبني كثيرًا.

سألتها عمّا تعنيه بـ(نظام بونزي) الذي لم أسمع به من قبل.. فشرحت لي على عجالة.. ثم عادت إلى قصتها لتقول:

- عشت مع (بسام) في شقته.. وقد كان عليّ أن أنسى كل ما يتعلق بحياتي السابقة.. وأنسى دراستي نفسها.. مع حذَري الشديد ألاّ أخرج كثيرًا.. متوقعة أن والديّ قد أبلغا الشرطة بشأن هروبي من البيت.. خاصة وأنني لم أكن قد بلغت الثامنة عشرة من العمر ولا أملك قراري في نظر القانون.. لكني كنت سعيدة لا أفكر بالمستقبل إطلاقًا.. فأتشارك الضحك والطعام والقصص مع (بسام) وهو يؤكد لي باستمرار أنه لن يتخلى عني أبدًا.. مؤكّدًا لي أننا سنسافر معًا إلى إحدى الدول القريبة حالما أكمل السن القانونية لكي نتزوج هناك في المحكمة.. زواج مدني بعيد عن الشروط الشرعية التي تتطلب شهودًا وولي أمر.. ولحسن الحظ أنني كنت قد أخذت كل إثباتاتي الشخصية -بما فيها جواز السفر- عندما هربت من أسرتي.. كما يجب أن أذكر هنا أن (بسام) لم يلمسني أبدًا إلى أن أصبحت زوجته فيما بعد.. وهذا ما يؤكد لي أنه أحبني بِحق.

سألتها بحذر:

- هل شاركتهِ في عمليات احتياله؟!.

هزت رأسها نفيًا قائلة:

- لا.. لقد كان يخشى عليّ الوقوع في هذا المستنقع.. وفضّل أن أبقى بعيدة عن هذا العالم.. لكن وجودي في حياته منحه الشعور بالقوة كما ظل يؤكد لي.. وقد كان يقضي معظم أوقاته في اجتماعاته بمستثمرين -أو ضحايا في واقع الأمر- يبحثون عن الثراء السريع.. وهؤلاء يأتون له بضحايا آخرين وآخرين من أقاربهم وأصدقائهم ظنًا أنهم يقدّمون لهم خدمة جليلة.. وجميعهم يتأثرون

بكلام (بسام) وهو يشرح لهم -بشكل متقن- تفاصيل المشاريع التي لا وجود لها أصلاً وبطريقة مقنعة للغاية يستحيل أن يكشف زيفها أحد.. وهذا ما جعل المال يتدفق بلا توقف في حياته ويتكدس في شقته.. أو لنقل شقتنا.

ابتسمَت بحنان وهي تقول:

- وبالمقابل.. كان (بسام) يمنحني حقّي كاملاً ويقضي معي أوقاتًا طويلة.. فنذهب إلى المطاعم الفاخرة.. ونشتري الثياب الباهظة والساعات الثمينة.. حتى جعلني أشعر وكأنني ألمس السماء نفسها من روعة حياتي معه.. و(بسام) يذكّرني دومًا أننا لا نملك سوى بعضنا ضد قسوة العالم وظلمه.. وأنّ من لا يَحتال.. يُحتال عليه.. وصدّقته من كل قلبي.. فقد كنتُ أحبّه حتى العمى.. حتى العمى يا دكتور.. لذا شاركته -بلا تردد- كراهيته ضد العالم.. ولم أكن أشعر بالشفقة أبدًا تجاه من يَحتال عليهم.

سألتها بفضول:

- ماذا عن عائلتك؟!.. ألم تخشي أن يراكِ أحدهم وأنت تخرجين مع (بسام)؟!.

قالت بلا مبالاة وكأن أمر عائلتها لم يعد مهمًا:

- لم يتوصلوا إلى مكاني.. ولم يكن يهمني أن يعثروا علي.. فقد نفّذ (بسام) وعده حال بلوغي سن الثامنة عشرة.. وبعد شهور قليلة من هروبي معه.. حيث سافرنا معًا إلى دولة قريبة تسمح لنا بالزواج المدني في المحكمة.. لنعود بعدها إلى (الكويت) وأكون تحت

مسؤولية زوجي في نظر القانون.

قلت محاولاً فهم شخصيتها:

- ماذا عن كل هذه الوشوم والمظهر المتمرّد الذي تبدين عليه؟!.

ابتسمَت وكأنها تختبرني:

- لماذا برأيك قمت بكل هذا؟!.

أجبت بصراحة:

- هي على الأرجح ليست بغرض الزينة.. وإنما محاولة لترميم الداخل عبر نقش الخارج!!.. إن الوشوم تمنحك الشعور بامتلاك جسدك.. خصوصًا إذا كنتِ قد عشتِ تحت ضغوط كبيرة أو بلا سيطرة على حياتك.. ومن الممكن أن يكون السبب أيضًا استخدام الألم الجسدي الناتج عن نقش الوشوم لتفريغ ألم نفسي أعمق.. أو أن يكون الهدف هو تمييز النفس التي عانت الإهمال طويلاً في الماضي.. فكثيرون يرون في الوشوم وسيلة لتمييز أنفسهم عن الآخرين.

فوجئت بها تنظر إليّ إعجابًا وتصفق لي بخفوت وكأنني تلميذ نجيب.. لكني تجاوزت ذلك وسألتها مجددًا محاولاً العودة إلى الموضوع:

- كم استمر (بسام) بالاحتيال على الناس بعد زواجكما؟!.

أمسكَت بخصلة من شعرها القصير وراحت تديرها بلا توقف لتقول بأسى:

- حوالي 3 سنوات.. شعرت خلالها أنني بلغت من القوة ما لم تبلغه أي فتاة في العالم.. لكن.. من المستحيل أن تستمر عمليات الاحتيال هذه للأبد من دون أن تبدأ الشكوك تراود الناس.. لأننا ظللنا نبني جدارًا هشًا من الأكاذيب كان سينهار لا محالة.. فأحد المستثمرين -أو لنقل المخدوعين- اكتشف الحقيقة.. وأراد ماله.. ثم جاء آخر.. وآخر.. لتتسع الدائرة وبتنا نعجز عن تسديد مستحقات الناس.. وهذه النتيجة الحتمية جاءت قبل موعدها كما أبلغني (بسام)، الذي كان يأمل أن نستمر في عمليات الاحتيال لسنتين أخريتين قبل السفر والهروب بالأموال إلى الخارج.. لكنه أصبح مُحاصَرًا فجأة.. وبدأت بلاغات الاحتيال ضده ترد إلى الشرطة التي انطلقت في ملاحقته والبحث عنه.. وأصبح كل خوفنا أن يعرف أحد الضحايا مكان شقتنا الذي ظل سريًا لحسن الحظ.. حتى أننا كنا نغير أشكالنا لو اضطررنا إلى الخروج خشية أن يرانا الدائنون.. حيث أطلق (بسام) لحيته.. وارتدى نظارات وقبعة.. أما أنا فكنت أخرج أحيانًا مرتدية النقاب.. وأحيانًا أخرى الحجاب.. أو أغير من تسريحة شعري -الذي تركته يطول- مع تغيير ملامحي بالماكياج كي أبدو مختلفة.. كل هذا خوفًا أن يكون أحدهم قد رآني مع (بسام) ذات يوم في مكان عام وعلم أنني زوجته.

قلت مستمتعًا بالأحداث وكأن أحدهم يروي لي تفاصيل فيلم مثير:

- هذا الوضع لا يختلف عن وجودكما في قفص من الذهب.. فقد كنتما تملكان أموالاً طائلة في شقتكما.. لكنكما تعجزان عن التصرف بها.. بل وأصبحتما محاصرين من الشرطة كما تقولين.. لا أعلم كيف تمكنتما من الخروج من هذا المأزق.

تجهّمت ملامحها وكأنها ستتحدث عن الجانب الأسوأ من قصتها.. إذ قالت:

- لقد حدث التغيير الجذري منذ فترة وجيزة لا تتجاوز بضعة أسابيع.. عندما كنا نتناول العشاء معًا في شقتنا معتمدين بالكامل على خدمة التوصيل وقتها.. فانتبهت إلى (بسام) وهو ينظر إليّ بتردد.. وكأنه يحتفظ بسر منذ مدة وقد حان وقت إبلاغي به.. إذ قال فجأة: ((حبيبتي.. يجب أن أهرب من البلد.. يجب أن أختفي تماماً.. سأقوم بتنفيذ خطة جنونية أعد لها العدة منذ فترة طويلة من دون علمك.. هذه الخطة هي مخرجي الوحيد.. وستجعلني بعيدًا عن الشرطة والدائنين.. وستمكّنني من بدء حياة جديدة.. على أن تلحقي بي بعد ذلك.. لنمضي عمرنا في دولة أخرى وننعم بكل الأموال التي جمعناها)).

أثار كلامها فضولي الشديد.. فقلت مستغربًا:

- وكيف سيفعل ذلك بعد أن أبلغ عنه من تعرضوا للاحتيال على يده؟!.. لا شك أن السلطات قامت بتعميم اسمه في جميع المنافذ.

رمَقتني بنظرة طويلة من دون تعليق.. لتقول بعد أن أخذت نفَسًا عميقًا:

- كانت لدى (بسام) خطة غريبة للغاية.. خطة أقرب إلى الجنون ولا أعلم كيف طرأت في ذهنه.. لقد أخبرتك أنه داهية.

سألتها وقد زاد استغرابي:

- أي خطة هذه؟!.

ردت بغموض:

- سألته نفس السؤال والقلق يتملكني عن مصيرنا.. فنهض من مكانه تاركًا العشاء الذي لم يكمله.. ثم ذهب إلى غرفة النوم.. حيث سمعته وهو يعبث في أحد الأدراج.. ليعود وفي يده صندوق صغير فتحه أمامي ببطء لأرى جواز سفر يتبع دولة عربية قريبة تعاني الكثير من القلاقل والمشاكل.. وفي الصفحة الأولى -كما هو الحال في كل جوازات السفر- صورة (بسام) مع اسم مزور.. لأتذكر كلامه عندما أخبرني بعد فترة قصيرة من زواجنا أنه اشترى جواز سفر بمبلغ من المال عن طريق موظف حكومي فاسد يشغل منصبًا مهمًا في ذلك البلد.

قلت مشككًا:

- لا أظن أن خطة كهذه ستنجح.. فلو قرر السفر بهذا الجواز المزور.. سيتم كشف أمره في المطار كونهم لن يعثروا على تاريخ دخوله للبلد.. إلاّ إذا... إلاّ إذا...

ابتسمت بمرارة وهي تقول:

- إنك ذكي يا دكتور.. بالضبط.. إلاّ إذا كان (بسام) ميتًا.. فلن يكترث المسؤولون كثيرًا حينها وسينقلون جثمانه إلى بلده فحسب.

قلت بلا فهم:

- وكيف سيستفيد من كل هذا لو كان ميتًا؟!.

أجابت مصححة:

- لن يموت بشكل كلّي يا دكتور.. وإنما هو موت مؤقت!!.. فالصندوق الصغير لم يكن يحتوي على جواز سفر فقط.. وإنما قنينة شفافة صغيرة الحجم تحتوي على سائل لا لون له.. وضعها (بسام) أمامي وهو يقول: ((لم أعرف هذه المادة السائلة سوى مؤخّرًا.. إنها أملي الوحيد في الهروب.. لقد استخرجها لي صديق من نوع محدد من الأسماك وأخبرني بما ستفعله لو شربتها)).

بدت علامات الدهشة واضحة على وجهي.. فقلت بِرَهبة وقد فهمت ما يرغب (بسام) بفعله:

- يا إلهي.. لقد قرأت عن شيء كهذا.. أعتقد أنه يتحدث عن المادة السامة التي تستخرج من (السمَك المنتفِخ).. إنها من أقوى السموم المعروفة في العالم.. وتعمل بطريقة غريبة للغاية على حد علمي.. إذ تقوم بإيقاف الإشارات العصبية تمامًا.. مما يؤدي إلى شلل كامل في عضلات الجسم.. بما في ذلك عضلات التنفس نفسها.. حتى نبضات القلب ستكون في أدنى درجاتها.. وسيظنه الأطباء حينها ميتًا فعليًا.. لكنه في الحقيقة واعٍ مستيقظ ويسمع كل ما يدور حوله.. وهو ما يجعل تأثير السم مرعبًا للغاية على من يستخدمه.. غير أن تناول جرعة غير محسوبة بدقة قد يؤدي إلى الوفاة.. وهنا منبع الخطورة(7).

قالت منبهرة:

- لم أظن أنك على هذا القدر من الاطلاع.. لكن بالنسبة لي.. كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن شيء كهذا.. إذ راح (بسام) يشرح لي كيف أن الجرعة التي سيتناولها محسوبة بدقة شديدة

من قبل أحد معارفه الأطباء.. وسيكون في حالة (الشلل الميت) هذا -إن صح التعبير- لحوالي 48 ساعة.. أما أنا فسيكون دوري أن أسرع بعملية نقل جثمانه إلى بلده -وفق جواز السفر الذي اشتراه- وسأضطر قبلها إلى رشوة الممرضين ليخالفوا أوامر الأطباء وألاّ يضعوه في ثلاجة المستشفى.. فلو بقي هناك طويلاً، سيفقد حياته فعليًا.. أي أن (بسام) وضع مصيره في يدي كما ترى.

يا لها من خطة جنونية تمتلئ بالمخاطر والشكوك حول إمكانية نجاحها.. إنّ الفضول يلتهمني لأعرف كيف سارت الأحداث وما انتهت عليه.. لكني أردت الاستماع إلى التفاصيل من دون القفز إلى النهاية.. فتركت (وفاء) تكمل قائلة:

- لقد شرح لي (بسام) كيف ستتم الخطة.. إذ سنذهب إلى المستشفى معًا ليدّعي أنه يعاني آلامًا في صدره.. وقبل أن نترجل من السيارة.. سيخرج القنينة من جيبه ويشرب السم.. ثم يترك لي القنينة كي أخبئها في حقيبتي.. وسينهار جسده سريعًا ويتعرض للشلل كما علمنا.. أما أنا فسأصرخ خائفة وأنادي الجميع مدّعية أن (بسام) تعرض للإغماء المفاجئ.. عندها سيأخذونه إلى غرفة الطوارئ.. وعلى الأرجح ستقر مسألة وفاته الظاهرية على الأطباء الذين لن يتوقعوا أبدًا أنه في حالة شلل تام أصاب حتى أعضائه الحيوية بفعل ذلك السم.. وستستخرج شهادة وفاة بالاسم المزيف الموجود في جواز سفره الجديد.. وبعد ذلك عليّ أن أرتب نقل جثمانه من (الكويت) إلى ذلك البلد.. ولن أواجه مشاكل كثيرة لو انتبه المسؤولون لعدم وجود ختم دخول في جوازه هذا.. وسيظنون أن (بسام) قد دخل البلد بطريقة غير قانونية.

قلت محاوِلاً استنتاج الباقي:

- وبالطبع لن يعاني (بسام) من مشاكل في التنفس أثناء وجوده في الكفن على متن الطائرة.. لأن استهلاكه للهواء سيكون ضئيلاً للغاية أصلاً وهو في حالة الشلل هذه.. وعند وصوله إلى تلك الدولة التي بات يحمل جوازها.. سيستقبله أحد معارفه ويأخذ الكفن إلى بيته منتظرًا أن يعود (بسام) إلى وعيه.. لا شك أن المال قادر على ترتيب كل شيء.. خاصة في بلد غارق في الفساد ويعاني اضطرابات داخلية.. ومن هناك بإمكانه السفر بسهولة لأي بلد آخر مستقر ليبدأ حياته من جديد.

أومَأت برأسها موافقة على كلامي.. ثم سألتها بسرعة:

- لكن.. ماذا عنكِ؟!.. وماذا عن الأموال الموجودة معكما؟!.. كيف ستقومان بتهريبها من (الكويت)؟!.

أجابت موضحة:

- بالنسبة لي.. لن أواجه مشاكل في السفر واللحاق بـ(بسام) لأنني بعيدة عن أي ملاحقة قانونية.. أما بخصوص المال.. فقد استبدلناه بقطع صغيرة جدًا من الألماس عالي الجودة بواسطة أحد معارف (بسام) أيضًا.. وسيكون من السهل عليّ حمل نصفها عند السفر.. على أن أخفيها في جيب داخلي في ثيابي سأخيطه خصيصًا لهذا الغرض.. في حين احتفظ (بسام) بالنصف الآخر وأخفاه في كيس من مادة (السيليكون) زرَعه تحت جلده في فخذه الداخلي.. بعد أن قام برشوة أحد الأطباء لمساعدته في ذلك.. ورشوة موظف في

المطار لكي تمر الجثة من دون تدقيق.. وبهذه الطريقة تكون الفرصة أكبر بأن يتمكن أحدنا -على الأقل- من النجاة بالمال لو فشل الآخر.

يا لها من خطة.. إن الأحداث تكبر وتتفاقم.. إنني أتساءل أين هو (بسام) الآن.. وإن كانت الخطة قد نجحت بلا عوائق.. لكني ظللت صامتًا مقاومًا فضولي.. لتكمل (وفاء):

- لقد رأى (بسام) أن نقوم بتنفيذ الخطة في صباح اليوم التالي فحسب.. وهو لم يرد إبلاغي بكل هذه التفاصيل قبل أن يتأكد من أنه عمل حسابه لكل شيء.. وأنّ الخطة غير قابلة للفشل.. وإن كان هذا قد وضعني تحت ضغط نفسي هائل لأنني علمت بالأمر للتو.. حيث تطلّب مني بعض الوقت كي أستوعب المسؤولية الهائلة الملقاة على عاتقي تجاه زوجي وحبيبي ومصدر ثقتي الوحيد في هذا العالم.. مع فكرة أن أستقر في بلد آخر لا أعرف عنه شيئًا.. المهم أنني وافقت على خطته والقلق واضح على ملامحي.. فاحتضنني طويلاً محاولاً إشعاري بالأمان وأننا سنتجاوز تلك الفترة الصعبة معًا.

لا أفهم لماذا شعرت بالتعاطف تجاههما رغم أننا نتحدث هنا عن محتال وزوجته التي تعلم بأفعاله وتنوي الهروب معه بأموال سرقها من الناس.. لكني تغاضيت عن مشاعري.. وقلت مُعلّقًا:

- لا شك أن خوفك الشديد جعلك تتقنين الدور في المستشفى.. فلا حاجة للتمثيل طالما أن هذه مشاعرك الحقيقية.

أجابت بصدق:

- بالفعل.. ففي صباح اليوم التالي.. وبعد ليلة لم نذق فيها طعم

النوم.. كانت أعصابي مشدودة وأنا أقود السيارة.. في حين يجلس (بسام) إلى جانبي واضعًا يده على صدره استعدادًا لتمثيل الدور الذي سيؤديه في المستشفى بعد قليل.. وهو يؤكد لي باستمرار أن خطته غير قابلة للفشل لو أنني تمكنت من أداء دوري بالكامل أثناء مروره بحالة الوفاة المزيفة هذه.

سكتت لتبتلع ريقها.. ثم أكملَت:

- حال توقف سيارتي عند مدخل المستشفى.. أخرج (بسام) القنينة من جيبه وشرب محتواها بجرعة واحدة.. وهو يذكّرني بأنه -منذ هذه اللحظة- يعتمد عليّ بالكامل في تنفيذ دوري من الخطة.. فقمت بالتصرف بسرعة وأخذت منه القنينة لأضعها في حقيبتي.. ثم نزلت من السيارة وأنا أصيح بأحد العمال أن ينادي الممرضين بسرعة.. بينما ظل (بسام) واضعًا يده على صدره وهو يتأوه بطريقة تمثيلية متقنة.. إلى أن شحب وجهه وارتعشت يديه وقد بدأ تأثير السم عليه كما هو واضح.. لتتوقف حركته وعيناه مفتوحتان كأنه فارق الحياة.. وأنا أصرخ وأنادي أمام أنظار الناس الذين راحوا ينظرون إلينا بذعر وكل منهم يصرخ بدوره طالبًا المساعدة.. وإذ بالممرضين يأتون بعد لحظات كي يحملوه إلى غرفة الطوارئ.. فتبتعهم إلى هناك وأنا أرى إجراءات الإنعاش التي يقوم بها الأطباء.. إلى أن هدأ كل شيء.. قبل أن يخرج أحدهم ليبلغني أن (بسام) مات.. ورغم أن هذا ما خططنا له بالفعل.. إلاّ أنني لم أتمكن من إيقاف تلك الرعشة التي اجتاحتني.. وهذا ساعدني على تمثيل البكاء حزنًا عليه.

سألتها مستغربًا:

- كيف كنتِ واثقة أنه ما زال حيًا؟!.. فهناك احتمال لا بأس به أن يكون قد أخطأ في قياس الجرعة التي يتطلب تناولها.. مما يعني أن هذا سيؤدي إلى وفاته بسبب خطورة هذا السم.. إلاّ إذا كان قد نجا وعاد إلى وعيه كما خططتما.

انخفض صوتها وهي تقول بابتسامة حزينة:

- أنت لا تعرف (بسام).. إنه شديد العبقرية.. وخطواته محسوبة بدقة مذهلة.. وكل خططه غير قابلة للفشل.. لقد كانت معرفتي الجيدة به هي مصدر ثقتي في أنه ما يزال على قيد الحياة رغم أنه يبدو جثة هامدة للجميع.. وهذا ما جعلني أذهب كي أجلس بجانب سريره.. وأمسك بيده وأنا أنظر إليه محتجزًا داخل جسده المشلول.. ثم بدأت أهمس في أذنه بأن الأمور ستسير كما خطط لها وسأقوم بدوري على أكمل وجه.

توقفت (وفاء) فجأة.. وشهقت مرتجفة بطريقة غريبة وكأنها لم تخبرني أهم ما بقصتها بعد.. فتركتها تلتقط أنفاسها.. لتقول بصوت خافت من رهبة الأحداث التي مرّت بها:

- ذهبت بعد ذلك إلى المسؤول في إدارة المستشفى وأخبرته أن (بسام) مجرد صديق عرفته منذ فترة قريبة ويعيش وحيدًا بلا أقارب.. حيث علمت منه مؤخرًا أنه تسلل إلى البلد منذ سنوات قليلة بطريقة غير قانونية.. أي أنهم لن يعثروا على أي بيانات عنه.. ولا تنسَ أن أحدًا لم يعرف بأمر زواجنا الذي لم نقم بتوثيقه في (الكويت) أصلاً كما أبلغتك.. ثم أعطيت المسؤول محفظة (بسام)

وجواز سفره الجديد مُدّعية أنه وضع تلك الأشياء في يدي أثناء مجيئنا إلى المستشفى.. بعد أن شعر أنه في حالة صحية حرجة.. فقد كان يخشى تأخير إجراءات دخوله إلى غرفة الطوارئ وهو بلا إثبات شخصي.. وعندما لاحظْت اقتناع المسؤول بقصتي.. طلبت منه استخراج شهادة وفاة.. مدّعية أنني أعرف أحد أقارب (بسام) في تلك الدولة.. وقد تحدثْت معه هاتفيًا وأبلغته بأمر الوفاة.. ويتوجب علينا إرسال جثمان (بسام) إلى أقاربه هناك.. فطلب مني المسؤول أن أنتظر في الاستراحة حتى ينتهي من الإجراءات القانونية.

مططت شفتي قائلاً:

- يبدو أن الأمور ظلت تسير كما خططتما.. لا أفهم أين المشكلة بالضبط؟!.. إلاّ لو تأخرت الإجراءات واستيقظ (بسام) بسبب انتهاء مفعول السم.. حينها لا أعرف كيف سيكون الوضع.. هذا العائق الوحيد الذي قد يفسد الخطة.

لوّحت بإصبعها أمامي إشارةً إلى أن كلامي غير صحيح.. ووجدتها تصارع دموعها كي تبدو متماسكة.. لكنها عجزت عن ذلك.. فأخرجت مجموعة مناديل من حقيبتها وراحت تمسح دموعها التي انهمرت فجأة.. ثم قالت من دون أن تجيب على سؤالي بصورة مباشرة:

- ظللت في استراحة المستشفى وقتًا طويلاً امتد لحوالي 4 ساعات.. فبدأت أشعر بالقلق.. خاصة وأننا نتحدث عن شخص يظن الجميع أنه مجرد جثة هامدة ويُفترض ألاّ يقوموا بالتدقيق طويلاً قبل إخراج شهادة الوفاة.. يا إلهي.. لقد وضعت كل

الاحتمالات في ذهني.. سوى ما حدث فعليًا؟!.

سألتها بتوتر:

- أخبريني.. ما الذي حدث؟!.

قالت بلوعة:

- لكي تعرف ما حدث بالضبط.. عليّ أن أعود إلى الماضي.. وإلى اليوم الذي استلم فيه (بسام) جواز السفر الجديد عن طريق أحد معارفه.. ففي نفس اليوم.. مرّ بحادثة صغيرة أخبرني عنها آنذاك ونسيتها تمامًا فيما بعد.. ونسيها هو أيضًا.. عندما ذهب إلى أحد الأسواق المركزية لشراء بعض الاحتياجات وجواز سفره الجديد في جيبه بعد أن استلمه للتو.. إذ رأى مجموعة من طلاب وطالبات المدارس يقومون بالترويج لأمر ما.. وقد استجاب (بسام) لهم تعاطفًا لجهودهم.. ظنًا أنه لن يصاب بأي ضرر جراء هذا التصرف.. حيث قام بمنحهم جواز سفره هذا.. كي يقوموا بتسجيل بياناته ومنحه بطاقة عضوية.

سألتها بلا فهم:

- عن أي عضوية تتحدثين بالضبط؟!.. وما دخل هذا بقصتك؟!.

أجابت (وفاء) بنبرة تملؤها المرارة:

- طلاب وطالبات المدارس هؤلاء كانوا يقومون بالترويج لحملة التبرع بالأعضاء البشرية بعد الوفاة!!.

اتسعت عيناي إلى أقصاهما بعد أن بدأت أفهم ما حدث.. ورحت

أتمتم بصوت خرج مرتفعًا رغمًا عني:

- يا إلهي.. يا إلهي.. هل...

لم أتمكن من إتمام العبارة.. وإنما أكملت (وفاء) نيابة عني:

- نعم يا دكتور.. عندما منحت إدارة المستشفى جواز سفر (بسام) ومحفظته الشخصية.. قاموا باستخراج كل محتويات المحفظة وتوثيقها رسميًا.. وِفقًا للإجراءات القانونية التي تضمن حفظ ممتلكات المتوفى وتسليمها لذويه.. فوجدوا فيها بطاقة العضوية في جمعية التبرع بالأعضاء البشرية.. وهذا يعني موافقته الرسمية على التبرع بأعضائه بعد وفاته.. وعندما ذهبت لأعرف سبب تأخر إدارة المستشفى في إنهاء الإجراءات.. فوجئت بالمسؤول يتحدث عن ضيق الوقت.. وأن الأطباء كانوا بحاجة إلى قلب (بسام) لأن هناك حالة مستعصية جدًا -لها نفس فصيلة الدم- تنتظر قلبًا.

ارتعشَت شفتاها أمام وجهي الشاحب.. لتقول بصوت مهزوز باكٍ:

- لقد تركت المسؤول وهرعت ركضًا باحثة عن المكان الذي أخذوا إليه (بسام) كي أوقف هذه المجزرة متناسية كل ما يتعلق بخطتنا.. لكني وصلت متأخرة جدًا.. فقد كانوا قد بدأوا عملهم.. هل تتخيل يا دكتور شعور المسكين وهو يسمعهم يتحدثون عن بطاقة العضوية وموافقته على التبرع بأعضائه وهو عاجز عن اتخاذ أي رد فعل بسبب الشلل المؤقت هذا؟!.. هل لك أن تتخيل الألم الذي كان يمر به -وهو يعجز حتى عن الصراخ لحظتها- ومِشرط الطبيب يشق صدره لاستخراج قلبه؟!.. إنه أقسى أنواع العذاب.. لقد كان يتعذب ألمًا إلى آخر لحظة من حياته.. لا يمكنني تصور مشاعره وقتها.. لا يمكن.. لا

يمكن.

انفجرَت باكية وهي تكرر الكلمة وتغطي وجهها بكفيها.. في حين ظللت أنظر إليها بأسف وصمت.. سامحًا لها أن تفرغ مشاعرها كما تريد.. وحين هدأت قليلاً.. قلت برهبة:

- يا لها من نهاية.. لا أحد يستحق هذا المصير.. حتى لو كان خارجًا عن القانون.

رفعت رأسها نحوي.. لتهمس بصوت خافت:

- لقد ظللت تائهة شاحبة الوجه لساعات طويلة أخرى في المستشفى.. إلى أن بدأت أستوعب أن القصة انتهت عند هذا الحد.. وأن زوجي مات بأشنع وسيلة ممكنة.. وقد نسيت تمامًا أمر المجوهرات التي زرعناها في فخذه الداخلي.. غير مهتمة إن كانت ستضيع إلى الأبد كونهم سيقومون بنقل ما تبقى من جثمانه إلى تلك الدولة.. حيث سيُفاجأ معارفه هناك عند استلامهم جثمانًا حقيقيًا -على عكس توقعاتهم- غير عالمين أن في فخذه الداخلي كيس صغير يمتلئ بالمجوهرات دقيقة الحجم باهظة الثمن.. ولم تكن هناك وسيلة لإبلاغهم بذلك أصلاً.. بعد أن عزَلني (بسام) عن كل الأشخاص الذين تعامل معهم في عمليات احتياله.

سألتها بخفوت:

- كيف سارت الأمور بعد ذلك؟!.

أجابت وهي تتنهد بعمق:

- عدتُ إلى شقتنا التي أحببتها أكثر من أي مكان في العالم.. إلى

المكان الذي تشاركنا فيه حياتنا الزوجية.. لكن هذه المرة لم يكن هناك شيء سوى فراغ مخيف يذكرني بما حل بـ(بسام).. فأحاول أن أذكّر نفسي بكمية الأموال التي بحوزتي ونصيبي من المجوهرات التي أحتفظ بها والتي تساوي مئات الآلاف من الدنانير.. وأنّ بإمكاني أن أبدأ من جديد من دون عمليات نصب أو احتيال هذه المرة.. إلاّ أن هذا لم يكن كافيًا لتجاوز ما مررت به.. بل أنني لم أخرج من الشقة أبدًا منذ تلك الحادثة.. وكأنني لم أشعر بمرور الزمن.. إذ ظللت أنام بصورة متقطعة.. فأستيقظ فجأة بسبب العتمة التي أحاطت بحياتي والكوابيس التي تزورني بصورة مستمرة.. ومشاعر الأسى والألم التي تسيطر على تفكيري عندما أتذكر ما حدث لحظة بلحظة.. بل وكنت أحلم أحيانًا أنني أنا نفسي على قيد الحياة غير قادرة على الحركة.. والأطباء يقومون بشق صدري واستخراج أعضائي البشرية.. تمامًا كما حدث مع (بسام).. عندها فقط.. قررت زيارة مستشفى الطب النفسي آملاً أن أحصل على المساعدة لتجاوز ما حدث.

قمت بتعديل وضعية جلوسي بعد انتهائها من سرد قصتها.. ثم قلت:

- (وفاء).. إنني طبيب نفسي أعالج بالأدوية.. وبصراحة لا أظنك بحاجة إليّ.. وإنما إلى استشاري نفسي يلتقي بك في عدد من الجلسات.. فيستمع إليكِ ويقوم بتدريبك على آلية تمكّنك من مواجهة الماضي والتعامل معه.. سواء ماضيك في بيت العائلة.. أو حادثة وفاة زوجك التي تركت تأثيرًا سيئًا للغاية عليكِ بلا شك.

طلبت منها أن تقوم بتسجيل هاتف زميلي الاستشاري النفسي وتخبره أنها جاءته بناء على توصيتي كي يقوم بتحديد موعد للقائها.. ومذكّرًا أنّ أمامها الآن فرصة ذهبية للبدء من جديد.. بعيدًا عن كل عمليات الاحتيال التي قام بها (بسام) بموافقتها ورضاها وبعد حصولها على نصف المسروقات.. مما يجعلها شريكة في عمليات احتياله بشكل أو بآخر.

أطرقَت برأسها خجلاً.. ثم قالت:

- كنت بحاجة ماسة إلى التحدث مع أي شخص.. لا تنسَ أنني بلا أصدقاء.. وقد كنت أخشى أن تقوم بإبلاغ الشرطة بقصتي.. لكني بدأت أفكر بطريقة عقلانية قانونية تعلمتها من (بسام) رحمه الله.. أنك لن تستطيع إبلاغ الشرطة أبدًا.. لأنني -ببساطة- سأنكر كل ما قلته لك.. ولا يوجد أي دليل على صحة اعترافي كوني لم أذكره في محضر رسمي مثلاً.

وافقتها على كلامها مؤكدًا أن ما تقوله صحيح تمامًا.. ثم سألتها:

- هل تنوين العودة لعائلتك بعد موت (بسام)؟!.. لا سُلطة لهم عليكِ الآن بعد أن تجاوزتِ السن القانونية.

هزت رأسها نفيًا بقوة وهي تقول:

- مستحيل.. أنا لا أحبهم.. ولا تربطني بهم أي عاطفة.. عليّ أن أعثر على طريقي بنفسي.. صحيح أنني لم أكمل تعليمي.. ولا أملك وظيفة.. وأعيش بلا عائلة.. لكني أملك الكثير من المال.. وهو كل ما أحتاجه حاليًا لبناء حياتي بعيدًا عن عمليات الاحتيال.

قالت عبارتها الأخيرة، لتنهض من مكانها وهي تشكرني كثيرًا لحسن استماعي.. مؤكدة أنها في حال أفضل الآن.. وأنها ستأخذ بنصيحتي وتنفّذ تعليماتي.. ثم وقفَت تنظر إلى أرجاء الغرفة وكأنها ستحمل ذكرى جميلة عن هذا المكان بعد مغادرته.. لتستدير خارجة وقد بدت خطواتها أقل ترددًا بكثير من لحظة دخولها.. أما أنا.. فقد ظلّت تفاصيل القصة في ذهني لفترة طويلة.. متذكّرًا (بسام) الذي لم ألتقِ به.. ذلك الشاب الذي وضع تلك الخطة المعقّدة ظنًا منه أنها مُحكمة للغاية.. لكنه نسي تفصيلاً صغيرًا أنهى حياته بطريقة قاسية غير مُتوقّعة.. ونسف خطته من جذورها.. خطته.. التي ظن أنها غير قابلة للفشل.

هـوَس

تحكيها (منيرة)

العمر 28 سنة

اقتراب نهاية النوبة الصباحية.. وبداية الهدوء الذي سيخيّم على المستشفى إلى صباح اليوم التالي.. ولطالما قلت إن مستشفى الطب النفسي يختلف كليًا عن المستشفى الباطني.. فحالات الطوارئ التي تردنا ليلاً نادرة للغاية وتكاد لا تُذكر.. ولهذا السبب أرى أن نوباتي المسائية أشبه بساعات هدوء واسترخاء.. حيث لا أفعل سوى متابعة نزلاء المستشفى إن كان هناك ما يستحق المتابعة.. كون الأمور تمضي بوتيرة ثابتة وإيقاع معتاد.. فأتحقق ما إذا كان ذلك النزيل قد تلقى جرعته الدوائية من الممرضة.. وإن كانت هناك حالات تتحسن أو تتدهور لأي سبب.. إلى جانب بعض المهام الإدارية التي لا أعتقد أنها تهم القارئ.. ولهذا أقضي ما تبقى من وقتي بين أفكاري أو في مشاهدة الوثائقيات(8) على (Youtube) والتي أعدّها جزءًا مهمًا جدًا من عالمي.

أما في تلك الأثناء فقد كنت أشعر بالإرهاق منتظرًا انتهاء ساعات العمل الرسمية للعودة إلى شقتي.. إذ جلست مسترخيًا في مكتبي أستمع إلى حوار ثقافي تبثه إحدى قنوات (Youtube) وأشرب قهوتي مستغلاً هدوء المستشفى.. فأنزع نظاراتي وأنظر إلى الفراغ.. حتى لتشعر أنّ لا ينقصني سوى تدخين سيجار.. وكأنها استراحة محارب يقوم بها رجال الأعمال كما نراهم في السينما.. لكن التدخين هنا ممنوع بالطبع.. وأنا لا أدخن عمومًا.

وأثناء ذلك.. سمعت صوت طرقات رقيقة على باب الغرفة المفتوح.. التفتُّ لأرى تلك الفتاة التي دخلَت مباشرة بخطوات ثقيلة منكسرة تتناسب كثيرًا مع نحولها الشديد وعينيها البارزتين.. وشعرها الذي يحمل أثر إهمال طال أمده.. مما يعكس حالة متقدمة من اليأس وربما الاكتئاب الشديد.. فأوقفت بث الحوار الثقافي على أن أكمله لاحقًا وأنا أبتسم للفتاة مرحبًا.. لتجلس على الكرسي المقابل لمكتبي كما يفعل كل زائر.. وتقول بصوت رفيع حزين من دون إلقاء التحية:

- لم أجد من ألجأ إليه سوى مستشفى الطب النفسي.

كنت سأخبرها بحزم أنني مرهق وفي نهاية نوبتي.. وأنّ عليها انتظار الطبيب الذي سيحل مكاني في النوبة المسائية.. لكني شعرت بالأسف لنظرات الانكسار التي تحملها.. فأغمضت عينيّ للحظة.. ومررت أصابعي بين خصلات شعري الذي طغى عليه اللون الأبيض.. ثم أخذت نفسًا عميقًا محاولاً عدم ترك أي انطباع بأنني أتفضّل عليها بهذا الاستقبال.. لأسألها بعد ذلك بهدوء:

- لماذا اخترتِ المجيء للمستشفى في هذا الوقت الذي يُفترض أن يكون للحالات الطارئة فقط؟!.

ردّت بصوتها الرفيع الحزين:

- لا أطيق الناس.. لا أطيق الزحام.. فلا تتوقع مني أخذ موعد والمجيء إلى هنا والجلوس في الخارج بين المرضى انتظارًا لدوري.. وأصدقك القول إنني كنت أرغب بزيارة عيادة خاصة للطب

النفسي.. وقمت بالاتصال بأكثر من عيادة بالفعل.. لكن هناك ازدحام شديد في المواعيد.. لذا قررت المجيء إلى هنا عالمة أنه مستشفى حكومي ولن يقدم خدمة بمستوى المستشفيات الخاصة.

قلت بحس وطني سيطر على كلماتي:

- هذه فكرة شائعة خاطئة بين الناس.. فمستشفياتنا مميزة ولا ينقصها شيء.. ويعمل فيها أكفأ الأطباء.. والآن أخبريني.. ما بك؟!.

أغمضت عينيها طويلاً.. حتى ظننتها نامت.. لكنها فتحتهما فجأة لتقول:

- أخبرني أولاً.. كيف يتعايش الإنسان مع الصدمات؟!.

أجبت على قدر السؤال محاولاً استجماع معلوماتي:

- هذا يعتمد على الصدمة نفسها.. فهناك صدمات نفسية تنشأ نتيجة حادثة واحدة مفاجئة.. مثل وفاة شخص مقرّب أو خسارة مالية كبيرة.. إلخ.. بينما توجد صدمات نفسية أخرى تأتي نتيجة التعرض المستمر للعنف اللفظي أو الجسدي على مدى طويل.. وهناك أيضًا ما يُعرف بـ(الصدمة المعقدّة).. وهي نتيجة تجارب مؤلمة مختلفة ومتداخلة.. وغالبًا ما يحدث هذا النوع من الصدمات في بيئة يُفترض أنها آمنة -مثل البيت- مما يجعل أثرها النفسي أعمق(9).

شعرَت بالراحة لكلامي حين أدركَت أنها أمام طبيب نفسي يعي ما يقول.. ثم قالت ما توحي به عن هيئتها الخارجية:

- إنني أفكر في الموت طوال الوقت.. وقد لا تصدقني لو قلت إنني

-أثناء طريقي إلى هنا- راودتني فكرة عابرة أن أقود سيارتي بسرعة جنونية وعيناي مغمضتان.. علّني أرتطم بشيء يضع حدًا لحياتي.. لكنني لم أجرؤ على فعلها.. إنني أتمزق من الداخل.. وقد فقدت القدرة على القيام بأبسط الضروريات كالأكل والنوم.. وكأنني أجلس في كُرة سوداء لا أرى طريقًا للخروج منها.. صدقني.. الأمر أكبر من إرادتي.

قلت متعاطفًا:

- بالطبع.. لو كان ما تعانينه اكتئابًا، فلن تكفي الرغبة أن تكوني سعيدة.. لا بد من مرحلة علاج وخطة حياة؟!.

ردت بحزن:

- لن تعرف حجم العذاب الذي أعيشه، أو العلاج الذي أحتاجه.. إلاّ لو سمعت قصتي أولاً.

كلامها ليس دقيقًا بالطبع.. إذ بإمكاني -كطبيب نفسي- علاجها مما تعانيه حاليًا بغض النظر عن معرفة قصتها كاملة.. لكن لا بأس.. لن أكتفي بوصف مضاد للاكتئاب لها ثم أتركها ترحل.. فلا مانع لدي من الاستماع طالما أن لديها رغبة عميقة في سرد مشكلتها.. هذا سيعزز ثقتها بالعلاج الذي سأقرره لها.

نظرت إليها وأشرت بيدي أن تبدأ الحديث.. بينما وضعت نظاراتي على المكتب استعدادًا للإصغاء.. فتنحنحت الفتاة وهي تقول:

- من أين أبدأ بالضبط؟!.

قلت مبتسماً:

- أخبريني باسمك أولاً.. ثم تستطيعين البدء باللحظة التي بدأت فيها الأمور تسوء في حياتك.

ردت ببطء:

- اسمي (منيرة).. أما بداية الانهيار فكانت عند إصابة أمي بالسرطان.. ورغم أنها قاومت المرض لفترة طويلة من أجلي ومن أجل أبي.. إلاّ أنها توفيت في النهاية وأنا ما زلت طالبة في المرحلة الثانوية.. وبسبب مرضها الذي استمر لسنوات قبلها.. لم تنجب غيري.. كما أن أبي كان يحبها كثيراً، ولم يقبل أبدًا أن يتخلى عنها.. أو حتى يتزوج بعد وفاتها.. أستطيع القول أنّ قصتي تبدأ من هنا.

نظرت إليها وأنا أقول متسائلاً عن عمرها:

- إنك تبدين في منتصف العشرينات أو ربما في أواخرها.. هل أنا محق في ذلك؟!.. مما يعني أن والدتك توفيت منذ أكثر من 10 سنوات؟!.

هزت رأسها إيجابًا مؤكدة أن عمرها 28 عامًا بالفعل.. لتكمل بعد ذلك:

- وكما هو الحال مع كل من يفقد عزيزًا.. فقد مررت بمرحلة من الحزن والألم استمرّت لفترة ليست بالقصيرة.. لكن هذا لم يؤثر على دراستي.. حيث تمكنت من التخرج من المرحلة الثانوية بمعدل مرتفع، لألتحق بعدها بكلية (العلوم الإدارية).. ورغم استمرار غصّة فقدان أمي.. إلاّ أن حياتي كانت جميلة.. بعد أن أحاطني أبي بالكثير من الحب والاهتمام.. وقام بتدليلي ومنحي شعورًا عميقًا بالأمان..

مؤكدًا لي دائمًا أنه لن يبخل عليّ بشيء، باعتباري ابنته الوحيدة وآخر من تبقى له في هذا العالم.. فكانت طلباتي تُنفَّذ من دون نقاش.. وأي مشكلة في حياتي يتدخل بنفسه لحلّها فورًا.

ظللت أنظر إلى ملامحها وانفعالاتها.. هذه الفتاة ستنفجر لو لم تستطرد في الكلام كما تبدو لي.. لقد كتَمَت في داخلها الكثير قبل أن تقرر اللجوء إليّ.. لننتظر ونرى.. فاستطردَت هي أمام صمتي قائلة:

- وأثناء هذه الحياة الهادئة الجميلة التي تخللتها بعض الصعوبات المعتادة في دراستي الجامعية.. قادتني الظروف لألتقي بـ(طلال) في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. حيث كانت البداية مجرد حديث متبادل حول بعض القضايا العامة التي اتفقنا على معظمها.. مما جعلنا نتقارب أكثر ونبدأ بالتطرق إلى الأمور الشخصية.. إلى أن اتخذَت العلاقة منحىً آخر وتحولت إلى قصة حب خلال شهور قليلة.. إذ وجدت في هذا الشاب كل ما أتمناه.. فهو جامعي وطموح ومجتهد في عمله.. كما أنه مهذب للغاية ومظهره الخارجي يمثل الصورة التي تمنيتها لفارس أحلامي.. وقد كان (طلال) جادًا في نيّته.. وأظهر ذلك عندما وعدني بأن يتقدّم لخطبتي في غضون عامين بعد تخرجي من الجامعة.. حيث سيكون قد استعد ماديًا بدوره للارتباط.

سألتها باهتمام:

- هل علِم والدك بأمر علاقتك هذه؟!.

ابتسمت بشحوب وهي تقول:

- نعم.. رغم أنه في نهاية المطاف رجل شرقي يساوره القلق من أي علاقة خارج إطارها الرسمي -حتى وإن كانت بنوايا صادقة- لكن ثقته بي كانت كبيرة جدًا.. وكان يعلم أنني سأختار الشاب المناسب لأرتبط به إلى الأبد.

سكتت لحظة وهي تعضّ على شفتيها بأسى.. وكأنها تحبس حسرات كثيرة.. ثم قالت:

- كنت أظن أنني سأدخل بعض الفرح في حياة عائلتنا الصغيرة.. لكن جاءت انتكاسة ثانية مؤلمة في حياتي عندما أصيب أبي بِمَرَض (HSP)(10).. لقد عرفت الكثير عن هذا المرض اللعين لكثرة المعلومات التي ذكرها عنه طبيب أبي الخاص.. وهو أقرب أصدقائه في نفس الوقت.. حيث قام بمراسلة عدة مستشفيات في الخارج علّه يجد العلاج.. لكن كل محاولاته فشلت.. فكنت أرى حالة أبي تسوء تدريجيًا.. إلى أن أصبح مُقعدًا يتنقل بواسطة كرسيه المتحرك ولا يتركه إلاّ للذهاب إلى الحمام أو الفراش.

نظرت إليها بإشفاق وهى تكمل من دون أن تنظر إلىّ:

- وهـذه النكسـة الجديـدة ألقـت بمسؤولية كبيرة على عاتقي.. إذ قمـت بلعب دور الممرضة في البيت إلى جانب دراستي.. وأبي يبذل بدوره كل جهده ليقوم بممارسة حياته اليومية من دون مضايقتي.. كما قام صديقه الطبيب بجلب ممرض مختص كان يقضي مع أبي ساعات طويلة في فترة النهار أثناء وجودي في الكلية.. فيعلّمه كيفية التعامل مع كرسيه المتحرك والاستحمام والتنقل من دون الحاجة إلى مساعد.. مما خفف علىّ الضغوط كثيرًا بالفعل.. حيث

بدأ أبي يهتم بشؤون إعاقته بالكامل.. وبات يخرج أحيانًا مستعينًا بالسائق لزيارة أصدقائه أو لاستنشاق الهواء عندما تكون الأجواء ملائمة.. وقد كنا نقضي وقتًا طويلاً معًا خارج أوقات دراستي.. فأصبح أبي صديقي الوحيد تقريبًا مع مرور الأيام.

سألتها بحذر:

- ماذا عن (طلال)؟!.. هل شعر بإهمالك تجاهه؟!.

هزت رأسها نفيًا قائلة:

- لم أهمله إطلاقًا.. ولم أهمل دراستي رغم الضغوط.. وهذا ما جعلني أتخرج في الموعد المحدد.. بل أن (طلال) حضر حفل تخرجي والتقى هناك بأبي لأول مرة.. فعرّفه بنفسه باحترام وبطريقة مهذبة للغاية لاقت استحسانًا كبيرًا من أبي.

إنها تتحدث وكأنها تصف حياة شخص آخر.. سأعرف بعد قليل ما الذي جعل فتاة تمتلئ بالحياة أن تنطفئ بهذه الصورة التي أراها أمامي.. لتكمل (منيرة) بحزن:

- بعد فترة التخرج.. بدأت أقضي جُل وقتي مع أبي.. سواء في البيت أو في الخارج.. حيث أقوم بدفع كرسيه المتحرك في المجمعات التجارية.. أو نجلس في المقاهي ونقضي أوقاتًا طويلة في الحديث حول أمور مختلفة.. في حين ظللت أتواصل مع (طلال) للتخطيط للمرحلة القادمة من حياتنا.. ولاختيار الوقت المناسب كي يزور أبي ويطلب يدي منه.

سألتها:

- هل شعرتِ يومًا بالملل من مصاحبتك الدائمة لوالدك؟!.. ففتاة مثلك بحاجة إلى حياتها الخاصة أيضًا.. إلى صديقات في مثل سنها.

هزت رأسها نفيًا بسرعة وكأنها تستنكر هذا السؤال.. لتقول بصدق:

- إن أبي على قدر كبير من الثقافة.. ومن الممكن التحدث معه في أي موضوع بلا خجل أو ملل.. بل وتحدثت معه عن (طلال) بكل صراحة.. وأخبرته أنه ساعدني في العثور على وظيفة في شركة ذات مستقبل باهر وبراتب مجزٍ.. وأنني بدأت بالفعل إنهاء الأوراق الرسمية تمهيدًا لمباشرة العمل.. حيث دمعت عينا أبي تأثرًا يومها.. وهو يحتضنني ويؤكد لي أنّ تصرف (طلال) يدل على أنه شاب مسؤول بالفعل.. وأنني سأظل دومًا ابنته الصغيرة، حتى لو تزوجت وأنجبت.. وقد انتهى كلامنا بطلب من أبي أن يلتقي بـ(طلال) في بيتنا قبل أن يأتي بأفراد عائلته لخطبتي رسمياً.. كي يتعرف عليه أكثر ويكسر الحاجز الجليدي كما يقول الإنجليز.

غمغمت قائلاً:

- إن والدك رجل رائع فعلاً.. جميل أنه يرحب بعلاقة حب شريفة تعيشها ابنته.. أمر كهذا لا يحدث كثيرًا في مجتمعاتنا.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها.. ثم أكملَت:

- قمت بتنفيذ كلام أبي.. وطلبت من (طلال) أن يتواصل معه هاتفيًا كي يتم تحديد موعد مبدئي للقائهما قبل زيارته الرسمية مع أفراد عائلته.. فتواصل معه في نفس اليوم واتفقا أن يزورنا (طلال) بعد أيام قليلة في فترة المساء.. ولا يمكن أن أصف لك استعجالي

على مجيء هذا اليوم.. أن يدخل حبيبي وزوج المستقبل بيتنا لأول مرة.. لقد كنت أعد الأيام والساعات والدقائق إلى أن جاء اليوم الموعود أخيرًا.. حيث ذهبت قبلها لشراء بعض احتياجات الضيافة كوني امرأة البيت الوحيدة وأريد أن يرى (طلال) بيتنا في أفضل صورة عندما يلتقي بأبي.. وقد بدا أبي متوترًا للغاية يومها.. وقال لي بالحرف الواحد: ((المعذرة يا عزيزتي.. ليس من السهل أن أرى أحدهم يأتي لطلب يد ابنتي الوحيدة.. أعلم أنها سنّة الحياة.. لكن يبقى الأمر صعبًا عليّ)).. فاحتضنته بحُب وأكدت له أنني لن أتخلى عنه أبدًا.. بل وأخبرته أن (طلال) لا يمانع أن نقيم هنا بعد الزواج كي لا يشعر بالوحدة.

تجهمَت ملامحها فجأة.. وكأنها ستأتي إلى الجزء الذي اصطدمت فيه بصخرة الواقع.. إذ قالت وهي تضع يدها على جبينها:

- المشكلة يا دكتور أن (طلال) لم يأتِ أبدًا.. واختفى من حياتي تمامًا.. فقد انتظرناه طويلاً وحاولت الاتصال به أكثر من مرّة.. وأرسلت له العديد من الرسائل النصية والصوتية.. لكن هاتفه كان مغلقًا طوال الوقت.. والأسوأ أنني لا أملك رقم أحد من أفراد أسرته.. ولا أعرف حتى عنوان بيته.. كل ما أعرفه أنه يسكن في منطقة (قرطبة).. فكيف سأتمكن من الوصول إليه؟!.. وكيف سأعرف إن كان بخير أو أصيب بمكروه؟!.

أبديت دهشتي لهذا التحول الغريب في القصة.. وقلت متسائلاً:

- لو كان قد اختفى بطريقة غامضة.. فبالتأكيد أن أفراد أسرته حاولوا الوصول إليك للسؤال عنه.. لا شك أن له شقيقة أو قريبة

تعرف بأمر علاقتكما.. أليس كذلك؟!.

تسللت الدموع إلى عينيها بغتة.. وهمست بكلمات حزينة:

- لم يختفِ بطريقة غامضة كما تقول.. وإنما أرسل لي رسالة نصّية بعد ساعات وهو يعتذر عن عدم حضوره.. ويبلغني أنه فكر كثيرًا مع اقتراب موعد زيارته لأبي.. فاكتشف أنه ليس مستعدًا للارتباط.. وأنه يعتذر عن الإحراج الذي سببه لي.. وأن عليّ أن أنساه.. مؤكدًا أنه سوف يحظرني من كل وسائل التواصل الاجتماعي.. وقد يستبدل رقم هاتفه برقم آخر قريبًا كي لا أتمكن من الوصول إليه.. لعل هذا يساعدني على نسيانه.

هذا مؤلم للغاية.. لقد وضع المسكينة في موقف كارثي أمام والدها وحطّم قلبها بتصرّف غريب غير مسؤول لا توحي به شخصيته كما وصفَتها لي (منيرة).. إلاّ أنني لم أعقّب على كلامها.. وإنما ظللت أنظر إليها بإشفاق منتظرًا منها أن تكمل.. لتأخذ منديلاً من علبة المناديل على مكتبي.. فمسحت دموعها وهي تقول:

- لقد قضيت أيامًا طويلة أبكي في غرفتي عاجزة عن تجاوز الصدمة.. فـ(طلال) هو حبي الأول والحقيقي والوحيد في حياتي.. وقد غدر بي بطريقة حقيرة وتراجع عن رغبته في الارتباط، رغم أنه هو الذي بادر بذلك.. بينما ظل أبي بجانبي يحاول مواساتي ويذكّرني بأنني لم أخسر شيئًا.. وأنه من الأفضل أن تنتهي الأمور بهذه الطريقة قبل أن يتم الزواج فعليًا ويكتشف (طلال) أنه غير مؤهل للارتباط.. وراح يذكّرني كذلك أن قيمتي لا يحددها من يحبني أو يتركني.. بل وعيي بمن أكون.. بالطبع كلام أبي صحيح..

لكن ليس من السهل أيضًا تجاوز ما حدث.

سألتها بإشفاق:

- متى مررت بتلك الحادثة؟!.

أجابت بحسرة:

- منذ حوالي 7 سنوات.. إنها حادثة مدمّرة لأي فتاة.. فقد طعنَت في أنوثتي وهزت ثقتي بنفسي وفي أي علاقة قادمة.. وجعلتني أيضًا أنعزل في عملي.. حيث أغلقت باب العلاقات الاجتماعية إلى أجل غير مسمى، على أمل أن أتعافى نفسيًا يومًا ما.. كما كنت عاجزة عن النظر في عيني أبي لفترة طويلة من شدة الخجل والانكسار لاختياري السيئ الذي انتهى بهذه الطريقة المؤلمة.. في حين استمر هو بكلامه الإيجابي محاولاً احتوائي، مؤكدًا أننا جميعًا نخطئ في حكمنا على الناس.. وأن ألف شاب يتمنى الارتباط بي.. إلخ من الكلام الذي نسمعه عند فشل أي علاقة.

سألتها مستفهمًا:

- ألم تطلبي مساعدة نفسية؟!.

هزت رأسها نفيًا وهي تقول:

- هذه الحادثة جعلتني أتقرّب أكثر وأكثر إلى أبي الذي بات بالنسبة لي الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أثق به بين معشر الرجال.. خاصة وأنني قليلة الصديقات أصلاً.. فكنت لا أفارقه إلاّ في ساعات عملي.. وأقضي بقية الوقت معه نشاهد منصات الأفلام.. ونأكل.. ونتحدث حول كل ما قد يخطر في ذهنك.. وكنت أساعده كذلك في القيام

بأموره اليومية الاعتيادية رغم أنه لم يكن بحاجة إلى مساعدتي.. بعد أن تدرّب جيدًا على ممارسة حياته وهو بهذا العجز. لكني ظللت أفعل ذلك من باب الحب.

سألتها وأنا أضع يدي على جبهتي رافعًا شعري القصير:

- أعلم أن قصتك حزينة.. لكنها لا تبرر مظهرك يا (منيرة).. إنني أتساءل عن آخر مرة أكلتِ فيها.. هل أصاب والدك مكروهًا ما؟!.

صمتت قليلاً محاولة استعادة رباطة جأشها.. ثم أكملَت:

- لأنني لم أخبرك بالقصة كاملة.. وإجابة على سؤالك.. فأنا لم أعد آكل إلاّ للحفاظ على حياتي.. هناك غصة تمنعني حتى من شرب الماء.. إنني على قدر من الاطّلاع وأعلم أن مدمن المخدرات يستنزف عقله الـ(دوبامين).. وهو الناقل العصبي الذي يمنحنا الدافع لفعل الأشياء التي نحتاجها كالأكل والشرب.. أو نحب ممارستها كالجلوس مع الأصدقاء مثلاً.. ولو نقص إنتاج الـ(دوبامين) في دماغ المرء.. فهذا سيجعله يفقد الرغبة بكل شيء.. حتى احتياجاته الضرورية.. أي أنه لن يذهب لشرب الماء مثلاً لو كان يشعر بعطش شديد.. ولن يذهب إلى الحمّام لقضاء حاجته.. وإنما سيتبوّل في مكانه بلا اكتراث(11).. حسناً.. لقد كنت قريبة جدًا من كل هذا رغم أنني لم أتعاطَ المخدرات يومًا.

ظللت صامتًا وأنا ما زلت أنظر إليها منتظرًا منها الذروة.. هناك ذروة مرعبة في قصتها هذه.. فملامح (منيرة) تقول ذلك بوضوح.. لكن متى نصل إليها يا ترى؟!.. و.. وكأنها قرأت أفكاري.. لأنها عدّلت من وضعية جلوسها.. ونظرت إليّ بعينيها الفارغتين.. ثم أكملت

بجمود:

- منذ شهور قليلة حدثت الكارثة.. المصيبة التي سببت لي هذا الهزال البدني والنفسي الذي تراني عليهما.. والمسمار الأخير في نعش حياتي.. فقد كان أبي يومها يستحم وأنا جالسة في غرفة المعيشة أنتظر خروجه من الحمّام كي نتفق على مكان نذهب إليه كما نفعل بين وقت وآخر.. وعلى الأرجح كنا سنذهب إلى السينما كوننا نعشق الأفلام الأجنبية.. وأن علينا فقط الاتفاق على اختيار الفيلم.

التقطت نفسًا عميقًا للغاية وكأنها ستلقي الآن بمفاجأتها المدوّية.. وكانت بالفعل مدوّية لم أتوقعها أبدًا.. عندما قالت بكلمات مرتجفة:

- لا أعرف لماذا طرأ في ذهني لحظتها أننا لم نقم منذ مدة بغسل الملاءة التي تغطّي مَزتَبة أبي المائية.. لا شك أنك تعرف المَزتَبة المائية التي تحتوي على خزان أشبه بكيس ضخم من البلاستيك يحفظ المياه بدلاً من الحشوات التقليدية كالقطن أو الإسفنج.. تلك المَزتَبة التي كنت أستمتع في طفولتي بالقفز عليها.. المهم أنني شعرت بالذنب وتأنيب الضمير.. إن العاملة المنزلية تقوم بهذه المهمة من تلقاء نفسها بين فترة وأخرى.. لكن أعتقد أنها نسيت -أو تناست- ذلك في الآونة الأخيرة.. فناديتها كي تقوم بإزالة الملاءة ومن ثم غسلها.. وصوت شلال المياه ما زال مسموعًا في الحمام.

توقفت (منيرة) فجأة عن الحديث وكأن الكلمات ستخنقها.. ثم قالت بصوت مرتجف:

- أثناء إزالة الملاءة.. انتبهت إلى وجود شق صغير على جانب

المَرتَّبة المائية.. انحنيت قليلاً مقربة نظري تجاه الشق.. ليتضح أن أحدهم قد خاطه بطريقة غير احترافية لكنها مُحكمة.. فسألت العاملة المنزلية إن كانت هي التي قامت بخياطته.. لكنها أجابت بالنفي وأنها لم تنتبه لوجوده من قبل.. ثم أدارت ظهرها لتخرج من الغرفة وهي تحمل الملاءة.. أما أنا فقمت بنزع الخيوط كي أقوم بخياطة الشق بصورة أفضل كوني أجيد خياطة أشياء بسيطة كهذه.. وقد كنت أفعل كل هذا بحذر كي لا أثقب خزان الماء البلاستيكي الموجود داخل المَرتَّبة.

تصلّبت في مكاني مترقبًا التالي.. لتكمل بأنفاس سريعة:

- وقبل أن أذهب لجلب عدة الخياطة.. ألقيت نظرة فضولية على خزان الماء.. كان الخزان شفافًا إلى حد ما.. فرأيت شيئًا مرعبًا لن تتوقعه أبدًا يا دكتور.

انتابني فضول شديد وأنا أنظر إليها.. فسألتها بصوت هامس متوتر:

- ما الذي وجدتِه بالضبط يا (منيرة)؟!.

قالت بألم:

- لقد كانت هناك جثة موجودة في هذا المكان منذ زمن طويل.. حتى بدت أقرب إلى المومياء.

انتابتني رجفة عجزت عن السيطرة عليها رغم كل سنوات عملي في المستشفى ورغم كم التجارب الهائلة التي عشتها وسردتها لكم سابقًا.. فسألتها بذهول:

- عن أي جثة تتحدثين بالضبط؟!.

أجابت وهي تضع يدها على جبينها:

- جثة (طلال) يا دكتور.

قلت مصدوماً:

- هل.. هل تعنين أن (طلال) تعرض للقتل؟!.. وأن والدك ظل ينام على هذه المَرتَبة المائية طوال تلك السنوات والجثة مخبأة في طياتها؟!.

نظرت إليّ مقهورة وهي تهز رأسها إيجابًا.. فقلت تحت وطأة الذهول:

- لكن.. من المستحيل أن يتعرض (طلال) إلى القتل.. ثم يقوم هذا القاتل بإخفاء جثته في بيتك وفي مرتَبة السرير.. إلاّ لو كان القاتل هو والدك نفسه.

هزت رأسها مؤيدة لاستنتاجي الذي لم يكن يحتاج إلى ذكاء.. ثم أكملَت بأسى وحرقة:

- لقد كانت جثة (طلال) تسبح في خزان الماء الموجود داخل مرتَبة السرير التي يصل شفكها إلى 30 سم -كما علمت لاحقًا- وقد بدا منظر الجثة غريبًا ومرعبًا في نفس الوقت.. وكأنها تعرضت للتحنيط.. حتى بدَت شبيهة بجثث الفراعنة التي نراها في المتاحف.. ولم أكن لأعرف أنها جثة (طلال) أصلاً.. لولا أنني رأيت حول رسغه الساعة التي أهديته إياها ذات يوم.. حيث كان سوارها فضفاضًا على معصمه يتمايل ببطء مع حركة الماء.. فكان المنظر

العام يوحي أن القتل قد وقع منذ زمن بعيد.. تخيل صدمة اكتشاف أن (طلال) ميت.. وأن جثته ترقد عندنا في البيت منذ سنوات.. وفي مكان يستحيل أن أكتشفه لولا الصدفة.

وأمام نظراتي التي حملت عشرات الأسئلة.. أكملَت (منيرة) بغصّة تكاد تخنقها:

- لا أعرف كم ظللت أحدّق بالجثة بعد هذا الاكتشاف المروّع.. لكني عدت إلى الواقع عندما فُتح باب الحمّام وخرج أبي مرتديًا ثوب الاستحمام جالسًا فوق كرسيه المتحرك.. ولم يكن صعبًا عليه أن يستوعب الموقف.. إذ لمح الفراش الممزق.. ورأى وجهي الشاحب الخالي من الدماء.. فأدرك أنني اكتشفت وجود الجثة.

قلت وما زلت لم أتجاوز آثار المفاجأة:

- لكن لماذا فعل والدك ذلك؟!.. لماذا؟!.

أجابت بجمود:

- لم تكن هذه الصدمة الوحيدة يا دكتور.. فقوة المفاجأة جعلت أبي ينهض من كرسيه المتحرك ويقف على قدميه وهو ينظر إليّ بارتباك محاولاً العثور على تبرير لما رأيت.

نهضت من مكاني لا شعوريًا وذهبت لأجلس على الكرسي المقابل لها حتى اقتربت منها كثيرًا.. لأسألها بأنفاس قوية كادت أن تحرّك شعرها:

- هل تعنين أن والدك كان يدّعي الإعاقة طوال تلك السنوات؟!.

هزت رأسها إيجابًا.. فتراجعت في المقعد وأنا أقول بخفوت:

- يا إلهي.. يا إلهي!!.

راحت تحدق في الفراغ للحظة حتى بدت كالتمثال.. ثم قالت أمام عينيّ المتسعتين:

- دكتور.. لقد قرأت ذات مرة أنّ من يسقط من مكان مرتفع لا يعيش اللحظة.. بل يعيش كل الحياة في ثوان.. لأن المخ وقتها يعمل بسرعة مرعبة.. وقد أكد الذين نجوا أنهم رأوا شريط حياتهم ولحظاتهم الحلوة والمؤلمة بكل دقة.. وأكدّوا أيضًا أن أكثر ما شعروا فيه لحظة السقوط هو الوحدة المطلقة.. حسنًا.. هذه كانت مشاعري وقتها.

سكتُّ متأملاً كلماتها وأنا أحدق بها بلا ردود أفعال.. لتكمل:

- بالطبع كان الموقف أعظم من أن يجد أبي تبريرًا أو يختلق كذبة يفسر بها ما رأيته واكتشفته تلك الليلة.. هل تدرك يا دكتور معنى أن يصاب الإنسان بالذعر من مصدر أمانه الوحيد؟!.. أن يشعر بأنه تعرّض للغدر من أقرب الناس إليه؟!.. تلك المشاعر جعلتني أتحرك بسرعة.. فركضت خارج الغرفة ثم أغلقت الباب بالمفتاح على أبي.. كان لا بد من حبسه في الداخل حتى أستوعب ما حدث وأقرر ما يجب عليّ فعله.

يبدو أنها لم تنطق بكلماتها هذه أمام أحد سوى الآن.. فقد انهارت باكية أمامي.. لتأخذ مجموعة مناديل من العلبة الموجودة على مكتبي كي تمسح دموعها.. وبعد دقائق من البكاء الذي ساعدها على

استعادة رباطة جأشها.. أكملَت قائلة:

- راح أبي يبكي بانهيار وهو محبوس في غرفته.. يرجوني من خلف الباب أن أستمع إليه.. ويقسم أنه كان يخشى خسارتي بعد رحيل أمي.. وأنني آخر من بقي له في الدنيا.. ولم يكن يريدني أن أتزوج فتكون لي حياة أخرى خارج محيطه.. وهذا ما جعله يفتعل الإعاقة عندما انتبه إلى أنني كبرت وأنّ مسألة ارتباطي قد تحدث في أي وقت.

بدت وكأنها لم تعد قادرة على الكلام أكثر. فقلت بعد أكثر من دقيقة من الصمت:

- لن يكون استنتاج التفاصيل الأخرى عسيرًا.. أعتقد أن والدك فكر في البداية بالعثور على عذر لرفض (طلال) لكنه خشي أن تتزوجي غيره.. فبدأت تتشكل في ذهنه فكرة مريضة تعكس اضطرابًا نفسيًا عميقًا.. أن يقتل (طلال) ويخفي جثته.. في مكان لا يخطر ببال أحد أبدًا..في طيات المَزتَبة المائية.. وأن يجعلك تعيشين في دوامة لفترة طويلة لن تفكري خلالها بالزواج.. على الأرجح أن والدك كان قد طلب من (طلال) المجيء إلى بيتكم صباحًا للتحدث حول أمر ما قبل موعد لقائهما الرسمي المتفق عليه مساء نفس اليوم.. على أن يظل الأمر سرًا بينهما.. وقد التزم المسكين بوعده ولم يخبرك بشيء.. أظن أن والدك اختار هذا الموعد تحديدًا لارتكاب جريمته حتى لا تلاحظي غياب (طلال) لو كان قد قتَلَه قبلها بأيام مثلاً.

سكتُّ قليلاً وأنا أحاول استكمال نسج خيوط بقية التفاصيل في رأسي.. ثم قلت:

- لقد قام (طلال) بتنفيذ تعليمات والدك.. وجاء إلى بيتكم من دون علمك.. ربما أثناء وجودك في العمل.. وأثناء لقائهما.. فوجئ بوالدك سليمًا معافى ينهض من كرسيه المتحرك ليطعنه حتى الموت بسكين أو بأي آلة حادة أخرى.. ثم أخفى جثته في طيات المَزبَّة المائية.. أما الرسالة التي وصلتكِ من (طلال) يعتذر فيها عن عدم الارتباط.. أعتقد أن والدك هو من أرسلها بعد أن قتلَه وأخذ هاتفه.. ولم يكن من العسير أن يقوم بالولوج إلى معلومات هاتفه مستعينًا ببصمة وجهه وهو يرقد جثة هامدة في بيتكم.. وربما أخذ سيارة (طلال) بعد ذلك وتركها في مكان بعيد تمامًا عن بيتكم كي يبعد الشبهات عن نفسه.. هل أنا مصيب في استنتاجي؟!.

ظلت تستمع إليّ باهتمام وكأن نقل هذا الكلام على لسان شخص آخر أراحها نفسيًا.. فأكملت قائلاً:

- وبهذه الحالة لن تتحرري أبدًا من علاقتك العاطفية.. وستظلين تعيشين ألم رحيل (طلال) وتَراجعه عن فكرة الزواج.. وهو ما سيبدو لكِ أقرب إلى الغدر.. فتفقدين ثقتك بأي ارتباط مستقبلي.. مما يجعلك تتقربين أكثر من والدك الذي سيضمن بقاءك معه لسنوات قادمة قبل أن يقلق من أن تمضي بحياتك وتفكري مرة أخرى بالزواج.. حينها.. يحلها ألف حلّال كما يقال.

هزت رأسها إيجابًا وهي تؤكد لي أن كل ما قلته لها صحيح.. فطلبت منها أن تكمل على أن نتحدث عن علاجها النفسي بعد أن تنتهي من سرد قصتها.. لتقول:

- كنت أشعر بانهيار شديد وأنا أسمع أبي يطلب مني أن أفتح

له الباب وألاّ أتصل بالشرطة.. وأن أقف إلى جانبه وأساعده.. لأنه يحتاج إلى مساعدة نفسية حسب قوله.. لقد كان يتحدث بأنفاس سريعة وهو يصرخ باكيًا.. وهذا أسوأ ما قد يحدث لأحد في العالم.. تخيل مشاعر الفتاة وهي ترى والدها قاتلاً مخادعًا ضعيفًا مهزوزًا يتوسل إليها كما يتوسل الطفل لأمه أن تسامحه على خطأ فادح ارتكبه؟!.. لكني في النهاية اتخذت القرار.. إذ أمسكت بهاتفي.. واتصلت بالشرطة لأخبرهم عن وجود جثة في بيتنا.

توقعت منها هذا التصرف.. فمن المستحيل أن تعود الأمور كما كانت بينها وبين والدها.. لتكمل (منيرة) وهي مغمضة العينين:

- أما ما جرى بعد ذلك فكان أشبه بالعاصفة.. رجال الأدلة الجنائية والإسعاف ملأوا بيتنا وكأننا في مشهد ختامي لفيلم مأساوي.. تلَت ذلك تحقيقات مطوّلة.. وقد اعترف أبي أنه هو من أرسل لي الرسالة النصية من هاتف (طلال) معتذرًا عن الارتباط قبل أن يتخلص من الهاتف.. وأنا أتذكر بالفعل أنني تلقيت الرسالة بعد أن دخل غرفته عقب ساعات من انتظار (طلال) في ذلك اليوم المشؤوم.. كما اعتقلَت الشرطة الطبيب الحقير صديق أبي الذي ساهم في خداعي.. ووجّهت إليه تهمة تزوير التقرير الطبي الذي ادّعى فيه إصابة أبي بالمرض والإعاقة المزعومة.

سألتها وأنا أعدّل من وضع جلوسي:

- ماذا عن عملية إخفاء الجثة في المَرتّبة؟!.. لا أظن الأمر بهذه السهولة.

أجابت بإيجاز:

- لقد علمت من التحقيقات أن أبي أحدث شقًا كبيرًا نسبيًا في المَزتَبة المائية.. واستخدم مضخة كهربائية صغيرة لسحب الماء الموجود فيها.. وكان قد جهّز قبلها دلوًا لتجميع الماء المتدفق.. ثم دسّ جثة (طلال) في الداخل.. وبعدها أغلق الشق بِرِقعة لاصقة قوية مصنوعة من نفس مادة المَزتَبة.. وتركها حتى جفّت تمامًا والتصقت بإحكام.. ليعيد ملء المَزتَبة.. لكن هذه المرة بمحلول مِلحي مُشبّع لكي تبقى الجثة في هذا المكان لسنوات طويلة من دون أن تتعفن وتفوح رائحتها.. لهذا بدت جثة (طلال) شبيهة بالمومياء(12).. يقول أبي أنه تعلّم هذه الطريقة من مواقع (الانترنت).

سألتها مستفهمًا:

- وكيف تمكّن والدك من فعل كل هذا وحده من دون أن تكشفي أمره؟!.. إنك تتحدثين عن دعوته لـ(طلال) كي يزوره من دون علمك.. وربما جرى ذلك في التاسعة أو العاشرة صباحًا.. وعليه بعدها أن يقتله.. ثم يجر جثته إلى غرفته.. ويدسها في المَزتَبة المائية بما يتطلبه ذلك من جهد شرحتِه لي بنفسك.. كما أن عليه أن ينظف غرفة المعيشة حيث ارتكب جريمته.. ويمحو أي آثار من غرفته كذلك.. هذا لو كان يملك أصلاً مضخة لسحب المياه من المَزتَبة المائية.. بينما كان من الممكن أن تعودي من العمل في أي لحظة وتكشفي أمر الجريمة.

أجابت بفتور:

- أنت محق في كلامك.. ولهذا تطلّب الأمر يومين كاملين كي يقوم

أبي بتنفيذ الجريمة ويخفي الجثة.. فقد قتل (طلال).. وأخفى جثته تحت السرير بعد أن لفّها بأكياس القمامة.. هل تذكر حين أخبرتك أن أبي كان قلقًا ومتوتّرًا في ذلك اليوم، وقد ظننت أن السبب هو اقتراب موعد خطبتي؟!.. في الحقيقة أن كل تلك المشاعر لم تكن سوى انعكاسًا لوجود جثة (طلال) تحت سريره.. لقد تركها هناك طوال اليوم، بينما جلس معي في غرفة المعيشة متظاهرًا بانتظار الزيارة.. وقد تذكرت لاحقًا أن أبي أمضى معظم وقته بعد ذلك في غرفته مغلقًا الباب على نفسه.. وهو ليس بالأمر المعتاد.. لكن كيف لي أن ألاحظ أو أخمّن أن شيئًا مروّعًا يحدث خلف الكواليس، وأنا غارقة في أسوأ حالة نفسية لأن خطيبي تراجع عن قراره كما أوهمني أبي وخدعني؟!.

ظللت أنظر إليها منتظرًا منها المزيد من الشرح.. لتكمل قائلة:

- إنني أتذكر جيدًا حالتي النفسية بعد صدمة نهاية علاقتي بـ(طلال) والرسالة النصية المزيفة التي يعتذر فيها عن الزواج.. فقد قررت أن أحصل على إجازة مرَضية لليومين التاليين علّني أستوعب ما حدث.. لكن أبي دخل غرفتي صباح اليوم التالي وهو يصر على أن أنهض وأرتدي ثيابي كي أذهب إلى العمل.. مدعيًا أن حالتي النفسية ستتحسن.. بالطبع كان يفعل هذا حتى أخرج من البيت، فيقوم هو بعملية إخفاء الجثة في المَرتَبة.. أتذكّر أن ملامحه توترت فجأة عندما أصررت على موقفي.. مؤكدة أنني لست بحالة نفسية تسمح لي بالذهاب إلى العمل.. أي أن الجثة ظلت تحت سريره عدة أيام ملفوفة بأكياس البلاستيك.. إلى أن انتهت إجازتي المرَضية.. تخيل هذا.. كما تخلص من المضخة في حاوية القمامة بعد أن انتهى

من عمله.. هذا ما قاله في التحقيقات.. وأنه كان يشعر بالاطمئنان لأن جثة (طلال) ستظل محشورة في مَزتَبته المائية إلى يوم وفاته.. وأن أحدًا لن يكشف أمر جريمته -أو هذا ما كان يظنه- وقد كاد أن ينجح بالفعل لولا الصدفة.

سكتت للحظة.. ثم قالت بسخرية مريرة:

- أتذكر أنني في يوم استئنافي للعمل.. وحال عودتي منه.. ذهبت إلى غرفة أبي.. ووجدتها نظيفة مرتّبة للغاية.. ليخبرني أنه كان يشعر بالملل وقد أراد أن يتحرك قليلاً.. فقام بتنظيفها بنفسه.. والواقع أنه قام بذلك كي يمحو آثار جريمته.. وأنا كنت بمنتهى السذاجة، أُصدّق كل ما يقوله بلا تفكير.

قلت بأسف وتعاطف:

- لم يكن هناك أي مجال لكشف الحقيقة يا (منيرة).. فلا تلومي نفسك.. أعلم أن الكثير من الآباء يخشون ابتعاد أبنائهم عنهم في حال الزواج.. وهو أمر طبيعي للغاية.. لكنهم يسلّمون أمرهم لله -سبحانه وتعالى- في النهاية، مؤمنين أن هذه هي سنة الحياة.. لكن تصرفات والدك تؤكد أنه يعاني اضطرابات نفسية حادة لا تخفى على أحد.

ردّت مؤكدة:

- لقد أوصى القاضي بإحالة أبي أولاً إلى مستشفى الطب النفسي للتأكد من سلامته العقلية بالفعل.. ومن ثم إصدار الحكم.

قلت متسائلاً:

- لم تمر عليّ حالة كهذه ولم يصلني من القضاء شيئًا يخص التحقق من الحالة العقلية لرجل في عمر والدك.. ربما أشرف على حالته طبيب آخر.

تجاوزَت تلك النقطة بلا مبالاة وهي تقول:

- وقد ذكر تقرير الأطباء أن أبي مصاب باضطراب نفسي يتعلق بـ(الهوَس).. آه نعم.. (هوَس التملّك الزائد)(13).. لكن هذا لا يعفيه من المسؤولية القانونية حسبما ذكر التقرير.. فهو يعتبر مسؤولاً عن تصرفاته.. لهذا حُكم عليه بالسجن 10 سنوات مع الحرص على خضوعه للعلاج النفسي ومتابعة حالته بصورة مستمرة.

قلت بخفوت:

- ربما لأنه رجل كبير في السن -أعتقد في منتصف الخمسين قياسًا لعمرك- ولم يرتكب جرمًا في حياته من قبل.. وأظن أن تقرير الطب النفسي شفع له قليلاً.

ثم سألتها وقد تذكّرت نقطة أخرى:

- من المؤكد أن عائلة (طلال) قد لجأت إلى الشرطة للبحث عنه.. ومن المؤكد أيضًا أن رجال الشرطة اطّلعوا على سجلّه الهاتفي وعلموا بأمر اتصالاتكما المتكررة.. فلماذا لم يتواصلوا معكِ لسؤالك عنه؟!.. ففي هذه الحالة كنت ستعرفين على الأقل أن هناك أمرًا مريبًا يتعلق بعدم حضوره في تلك الليلة ورسالته النصية التي يعتذر فيها عن الارتباط بك.

ردت بإعجاب مرير:

- أنت ذكي يا دكتور.. ملاحظاتك تدل على ذلك.. لكن أبي كان قد عمل حسابه لتلك النقطة.. فقد ظل يتواصل مع عائلة (طلال) ومن خلال هاتف (طلال) نفسه على أنه هو.. مؤكدًا أنه متواجد مع أصدقائه في الشاليه وسيظل معهم هناك لعدة أيام.. كان هذا قبل أن يتخلص أبي من الهاتف ويلاحظ أفراد عائلة (طلال) اختفاءه.. وقد اتصل بي رجال الشرطة لاحقًا بالفعل للسؤال عنه.. لكني لم أهتم.. وأخبرتهم بما أعرفه.. وبأن علاقتي به انتهت منذ مدة.

ساد صمت طويل بعد هذا التحليل والأسئلة العميقة.. ثم سألتها:

- والآن.. كيف تعيشين حياتك يا (منيرة)؟!.. وأين تقيمين؟!.

قالت منكسرة:

- أقيم في بيتنا نفسه.. وإن كان هذا أمرًا عسيرًا للغاية.. فكل شيء حولي يذكّرني بما حدث.. إنني أفكر أحيانًا بالخروج والسكن في مكان آخر.. وربما أفعل ذلك مستقبلاً.. لكني بين وقت وآخر أعود إلى نقطة الصفر.. أعود إلى الانهيار والبكاء شاعرة أن حياتي انتهت.. وأن الغدر الذي تعرضت له على يد أبي يستحيل تجاوزه.. لقد تحطمت عاطفيًا.. ظنًا أن حبيبي تراجع عن الزواج في اللحظات الأخيرة.. وفقدت ثقتي بكل الرجال بسبب ذلك.. سوى أبي الذي رأيته الرجل الوحيد الذي لا يتكرر.. لأكتشف أنه أسوأهم مع الأسف.. إنني أعاني منذ مدة من مشاعر سلبية وهبوط في حالتي النفسية.. مما تسبب باضطرابات في النوم وفقدان الشغف بكل شيء.. إلى درجة أنني لم أعد أعرف ما الذي يمكن أن يسعدني.. كما أنني أعاني قلقًا شديدًا لا أفهم سببه.. وأستذكر تلك الأحداث طوال الوقت.. بل

وأراها باستمرار في كوابيس تزورني على فترات متقاربة جدًا.

نهضت لأجلس على مكتبي.. ثم ارتديت نظاراتي ببطء.. لأقول بتعاطف:

- لن أجلس هنا وأخبرك أنني أعرف كيف يكون غدر العائلة.. لأنني -ببساطة- لا أعرف ولم أتعرض لغدر كهذا يومًا.. لكن -والمعذرة للسؤال- هل رأيت والدك منذ أن تم القبض عليه؟!.

ردّت بلهجة قاسية محذّرة:

- لا أنكر أنني غارقة في صراع بين ذكرياتي السابقة الجميلة مع أبي وجرحه العميق لي.. لكني لن أسامحه أبدًا.. فلا تتحدث معي عن الأبوّة وتطلب مني أن أزوره في السجن لأنني لن أفعل.. لقد نزف احترامي له حتى آخر قطرة.

قلت مبتسمًا:

- لستُ مصلحًا اجتماعيًا يا (منيرة).. إنني هنا لأساعدك.. لا لأحاسبك.. كان فقط سؤالاً بسيطًا أثار فضولي.

تنحنحت بحرج أمام ابتسامتي لتقول:

- أعتذر إن بدا ردّي فظًا.. إنه يطلب لقائي كما وصلني من بعض المسؤولين في السجن.. واتصل بي أكثر من مرة.. لكني أغلق الخط في وجهه حال سماعي لصوته.. كما قمت مؤخرًا بتغيير رقم هاتفي كي يعجز عن الوصول إليّ.. ولا أعرف ما سأفعله عندما يخرج من السجن.. لكن ما زال الوقت مبكرًا جدًا على التفكير بذلك.. فلا تزال تنتظرني سنوات طويلة والحكم الصادر بحقه لم يمضِ عليه سوى

وقت قصير.

قلت بجدية محاولاً إيصال كلماتي إلى قلبها:

- قدَرك يا (منيرة) أنك كنت ضحية لشخص لم يكن على أهبة الاستعداد النفسي ليصبح أبًا.. لكن المهم الآن هو مستقبلك ومصيرك الذي تملكين وحدك أن تقرريه.. إمّا أن تعيشي كضحية وتعزفي على وتر التذمر واستدرار شفقة الآخرين.. أو أن تأخذي خطوات فعلية لتجاوز ما مررت به.. وأنا أرى أن قدومك لمستشفى الطب النفسي خطوة هامة لتغيير حياتك إلى الأفضل.. ولكي تتحوّلي من ضحية إلى ناجية.

نظرَت إليّ بامتنان شديد وكأنها كانت بحاجة ماسة لسماع كلام كهذا.. فأكملت قائلاً:

- إنكِ ترغبين بالخروج من حالة اليأس التي تنتابك.. لأن مجرد اتخاذ القرار بالتغيير لن يكفي إن كنت قد مررت بتلك الهزات النفسية العنيفة التي سببها والدك سامحه الله.. فالألم تأصّل في دمك وأفقَد رغبتك بالاستمتاع بملذات الحياة.. وتسبب لك أيضًا باضطرابات في النوم كما تقولين.. إنك تعانين (اضطراب ما بعد الصدمة)(14) كما هو واضح.

ضحكت بسخرية مريرة وهي تقول:

- ما بعد الصدمة؟!.. لا شيء يأتي (بعد).. لأن الصدمة ستعيش داخلك وكأن الزمن توقف هناك.

ابتسمت متداركًا ما مرت به في حياتها.. ثم قلت:

- إنني أخبرك بالاسم العلمي لاضطرابك النفسي فحسب(15).. المهم الآن.. علينا أن نبدأ بخطوات العلاج.. سأكتب لك وصفة طبية عبارة عن أقراص ستساعدك على تجاوز الصدمات التي مررت بها.. ومن الضروري أن ألتقي بك بعد شهر من الآن لنرى كيف تسير الأمور.. سيساعدك الدواء كثيرًا لو التزمت بأخذه يوميًا وفي أوقات محددة من دون إهمال.. وعليك أن تتذكري أن لا أحد يخرج من الألم كما كان.. جميعنا نُكسَر.. ثم نعيد بناء أنفسنا ببطء.. فنعيش بنسخة قد تكون أقل ضوءًا.. لكنها أكثر صدقًا ووضوحًا.

قلتها وأنا أكتب لها وصفَتها الطبية وعيناها تحملان نظرات الأمل لأول مرة منذ دخولها مكتبي.. إذ يبدو أنها كانت تعيش وحدة قاتلة بعد أن فقدت الثقة في الجميع.. وبدا كأنني أول شخص تقابله وتخرج من عنده بمشاعر الارتياح هذه منذ القبض على والدها.. وقد تأكدت من ذلك عندما مدّت يدها لتصافحني.. فمددت يدي بالمقابل وأنا أقول:

- عليكِ أيضًا ببذل بعض الجهد وعدم الاكتفاء بالدواء.. فالسفر قد يكون خيارًا جيدًا، حتى لو أجبرت نفسك عليه.. كما أن التطلع للمستقبل والتخطيط له سيكون له دوره الإيجابي أيضًا.

سألَتني بفضول يختلط بالقهر:

- هناك تناقضات كثيرة في شخصية أبي أعجز عن فهمها حتى الآن.. فكيف يكون ضعيفًا هشًا مهزوزًا إلى هذا الحد.. وفي الوقت نفسه يمتلك جرأة عجيبة على ارتكاب جريمة قتل بكل هذا الدهاء؟!.. بل ويخفي جثة (طلال) داخل مَزبَته المائية التي ينام

عليها كل ليلة.. بعد أن حوّلها إلى ما يشبه حوضًا كيميائيًا إن صح التعبير.

قلت بصدق:

- لا يوجد أي تناقض.. فالضعف والهشاشة لا يمنعان من ارتكاب الجريمة.. بل قد يكونان سببًا لها.. لأن الشخص المهزوز نفسيًا هو الأكثر قابلية للانجراف خلف مخاوفه وهواجسه.. ولو شعر بأن أحدًا يهدد ما يملكه أو يخشى فقدان السيطرة على من يتعلق بهم.. فقد يدفعه هذا إلى ارتكاب جريمة.. وهنا يصبح القتل خياره للحفاظ على من أصيب تجاهه بـ(هوَس التملّك الزائد).

ظلت تفكّر بإجابتي بعض الوقت.. ثم سألتني:

- ماذا عنّي أنا؟!.. كيف سأعلم أنني تعافيت من الصدمة النفسية؟!.

قلت وأنا أنظر إلى عينيها:

- عندما تكتشفين أنك قادرة على التعايش مع كل ما مررت به من دون أن يتأثر حاضرك أو مستقبلك.. عندما تصبح تلك الأحداث المؤلمة مجرد جزء من الماضي بالنسبة لك.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها.. ثم التفتت لتخرج من مكتبي وأنا أنظر إليها مبتعدة.. هذه المسكينة منحت والدها كل شيء.. وبالمقابل.. أخذ هو منها كل شيء في مفارقة غريبة للغاية كونهم يتحدثون دومًا عن تضحية الآباء لأبنائهم.. لكننا هنا نرى شيئًا جديدًا.. أب تجرّد من إنسانيته.. وبدلاً من أن يبحث عن العلاج النفسي لحالته.. حاول أن يمتلك ابنته لنفسه -بهذا المعنى حرفيًا-

ويسجنها من دون علمها بشكل غير مباشر.. لتكون معه وتحت إمرته طوال الوقت.. وقاده هذا السلوك المضطرب إلى خداع ابنته وارتكاب جريمة قتل بحق الشاب الذي أحبته.

لقد رأيت في مهنتي حالات كثيرة مما أطلق عليها (تربية البهائم).. وهو مصطلح غير علمي بالطبع لكني أستخدمه بيني وبين نفسي كثيرًا.. فرأيت الأب الذي يبصق في وجه ابنه بحقد أمام زملائه أو أصدقائه.. ورأيت الأب الذي يضرب ابنه بشكل همجي مهين أمام الناس.. وفي قصتنا هذه رأينا الأب الذي فعل ما فعله تجاه ابنته.. فهل يستحق هؤلاء الآباء الاحترام؟!.. إن طاعة الوالدين كما ينص عليها الدين يجب أن تكون في غير معصية.. لكن ماذا لو استغل الأب هذا الأمر الإلهي وقام بفرض تسلّطه على الأبناء وحرمانهم من حقوقهم؟!.. فهناك أيضًا نوع آخر من العقوق لا يُذكر كثيرًا.. وهو عقوق الآباء لأبنائهم.. ويتمثل في التقصير بحقوقهم الأساسية.. كحُسن التربية.. والعدل بينهم.. وتوفير بيئة نفسية سليمة.. وللأسف نرى كثير من الأبناء يُحرَمون من هذه الحقوق.. لكنهم يلتزمون الصمت خوفًا من غضب الله.. أو خشية نظرة المجتمع التي قد تتهمهم بالعقوق رغم تعرضهم لظلم واضح دمّر حياتهم.

وما رأيناه في قصة (منيرة) يُعد دليلاً واضحًا على كلامي.. وأسوأ بكثير من (تربية البهائم).. فقد كانت بارّة بوالدها كما عرفنا من أحداث القصة.. بينما هو الذي تلاعب بها وسعى لتحطيم حياتها رغبة بامتلاكها.. وبطريقة تؤكد أنه ليس إنسانًا سويًا من الناحية النفسية.. لكن المهم الآن أن (منيرة) بأمان.. وتستطيع أن تبني حياتها من جديد.. وربما تعثر أيضًا على حُب جديد.. أما علاقتها

بوالدها.. فلا أظن أن السنوات ستكون كفيلة بإرجاع الأمور إلى نصابها.. ولا أظن أن العلاج الذي ستخضع له تحت إشرافي سيساعدها على التخلص من الشعور بالغدر.. وإنما ستتمكن من التعايش مع ما تعرضّت له كما ذكرت لها.. خاصة وأن الغدر قد جاء من أقرب الناس إليها.. من والدها الذي يقبع في السجن الآن يقضي عقوبته.. ويتم علاجه -في نفس الوقت- من الاضطراب النفسي الذي دمر حياته وحياة ابنته.. الهوَس.

أيّـــان

تحكيها (صِبا)

العمر 27 سنة

عزيزي القارئ..

أعود هنا إلى الطريقة التي باتت مألوفة لمن قرأوا الأجزاء السابقة.. حيث أنسحب من دائرة الأحداث وأترك لبطلة القصة حرية سرد روايتها كما تشاء.. وكما أوضحت سابقًا.. فإنني ألجأ أحيانًا إلى هذا النهج بدافع المساعدة، كوسيلة للتطهير النفسي والفضفضة على الورق.. ولأتمكن أيضًا من الاطّلاع على تفاصيل الأحداث من منظور من تدّعي أنها عاشَتها لحظة بلحظة.

لقد أُحيلت بطلة قصتنا (صِبا) إلى مستشفى الطب النفسي بأمر قضائي.. وذلك بسبب تمسكها الشديد بأقوالها التي لا يصدّقها عقل.. فقصتها تحوي من الغرابة والرهبة ما أثار خوفي شخصيًا من قوة الأحداث بعيدًا عن مدى واقعيتها.. لكن -في النهاية- مهمتي لا تتعلق بتصديق القصة من عدمه.. بل تنحصر في تقييم الحالة العقلية لـ(صِبا) وتقديم تقريري للمسؤولين.

لنقرأ قصة (صِبا) كما كتبَتْها بنفسها مع عنوانها الغريب (أيّـان).. والذي يوحي بشيء غامض يثير الرهبة.. لكننا -وفي نفس الوقت- لا نعرف ماهيته.. وستكون لي عودة بعد ذلك للتعليق على الأحداث كما جرت العادة.

الدكتور (.....)

وسط عاصفة من الاتهامات التي تلاحقني وكأنني في زاوية ضيقة بلا منفذ.. وجدت نفسي مُحاصَرة بين جدران مستشفى الطب النفسي.. أنتظر تقرير الأطبّاء الذي سيُكتب بكلمات باردة خاضعة لتحيزاتهم العلمية المُسبقة التي جعلَت عقولهم منغلقة لا يمكن أن تفكّر للحظة خارج الصندوق.. وأن تدرك أنّ هناك عالمًا خفيًا لا يخضع لشروط أو قواعد ولا يعرف عنه العلم شيئًا.. ورغم هذا الحصار البدني والنفسي المحيط بي.. ما زلت متمسّكة بقول الحقيقة كما عشتها كاملة بلا نقصان.. وليحدث ما يحدث.

تبدأ قصتي عند وفاة والدي.. بعد أن كانت والدتي -رحمهما الله معًا- قد غادرت الحياة قبله ببضع سنوات بسبب مرضها.. حيث انتقَلَت ملكية البيت إلى الورثة.. أنا وشقيقتي وشقيقي اللذان يكبراني سنًا.. فقمنا ببيعه ليحصل كل منا على نصيبه.. ويلتفتان هما لحياتهما الخاصة كونهما متزوجين وكل منهما له أسرته ومتاعبها وانشغالاتها.. لأظل أنا وحدي.. لكن في وضع مادي جيد للغاية مع راتبي ونصيبي من الميراث.. إذ لم يكن هناك ما يستوجب القلق بشأني.

ورغم بلوغي سن الـ27 عامًا.. إلاّ أنني لم أفكر أبدًا بالزواج.. ربما لعدم شعوري بالحاجة إلى شريك حياة أصلاً.. خاصة وأن الأمومة كانت تخيفني والحق يقال.. لأنني رأيت ما عانته شقيقتي خلال فترات الحمل والولادة ثم فترة التربية.. ورأيت كيف انقلبَت حياتها رأسًا على عقب بسبب ذلك.. فأدرَكت أنني لا أريد حياة شبيهة، ولا أطيق فكرة تحمّل مسؤولية أسرة.

وقد أصر عليّ شقيقي أن أعيش في بيته مع أسرته، نظرًا لكوني فتاة غير متزوجة وقد تكون نظرة المجتمع سلبية تجاهنا.. لكنني -بالمقابل- أصررت على موقفي والاعتماد على نفسي.. وألاّ أحمل على عاتقي منّة من أحد.. حتى لو كان هذا الـ(أحد) شقيقي نفسه.. وهذا ما نشأنا عليه في كنف والدينا اللذين غرسا فينا روح المسؤولية منذ الصغر ومنحانا الثقة لاتخاذ قراراتنا بأنفسنا.. ليرضخ شقيقي في النهاية وينتهي بي الأمر باستئجار شقة صغيرة راقية تلبي احتياجاتي في منطقة (الجابرية) القريبة من مكان عملي.

كنت أستمتع كثيرًا في حياتي الجديدة.. مكتفية بما لدي.. لا أنتظر تغييرًا ولا أبحث عنه.. وأرى السعادة في التفاصيل اليومية الصغيرة.. في فنجان قهوة الصباح.. وفي نزهة عابرة مع صديقاتي.. فلا يتجاوز روتيني اليومي الذهاب إلى العمل والعودة منه.. ثم قضاء معظم وقتي بين ممارسة هواية تعلّمتها في مراهقتي -وسأذكرها لاحقًا- وبين الخروج مع صديقاتي اللاتي كنت قريبة منهن للغاية.. إذ لم أكن مجرد صديقة جيدة.. بل مستمعة جيدة أيضًا وأحفظ الأسرار.. ما جعلني محل ثقتهن الدائمة.. وأحاطني بصداقات دافئة تُجسّد شخصيتي الودودة وانفتاحي على الآخرين.. كما استمر تواصلي مع شقيقيّ.. وإن ظل مقتصرًا على وسائل التواصل الاجتماعي في أغلب الأوقات.

لكن.. من قلب ذلك الهدوء الذي خيّم على حياتي.. ومن بين الصداقات التي ظننتها آمنة ومستقرة.. بدأت شرارة الأحداث المجنونة التي سأسردها بالتفصيل.. فقد كنت في ذلك اليوم بِرِفقة صديقة مُقرّبة جدًا، نجلس في أحد المقاهي بمنطقة (الشويخ)..

مستمتعين بوقتنا وبالمشروبات الساخنة التي طلبناها.. حيث ظللنا قرابة نصف الساعة نتبادل الحديث حول العديد من المواضيع.. قبل أن تلتفت صديقتي بحذر -وبطريقة فاجأتني شخصيًا- حتى تتأكد أن كل من يجلس على الطاولات المجاورة منشغلاً عنا.. ثم انحنت تجاهي لتقول بصوت منخفض:

- (صِبا).. إنني أواجه مشكلة معقّدة.. وأعلم أنكِ قد لا تملكين حلها.. لكن مجرد التحدث إليك يمنحني شعورًا بالراحة والطمأنينة.

ظللت أنظر إليها مبتسمة متفهمة وأنا أطلب منها أن تسترسل.. متوقعة أنها تمر بعلاقة عاطفية وهناك بعض المشاكل التي تواجهها.. فغالبًا ما تكون هذه مشاكل بنات جيلي.. ولم أكن مخطئة في الواقع.. إذ قالت مباشرة:

- إنني أمر بعلاقة عاطفية منذ حوالي سنتين مع شاب يُدعى (أحمد).. إنه يحبني بصدق.. وتجمعنا الكثير من الصفات المشتركة.

ثم بدأت تتحدث بعض الوقت عن مؤهلات حبيبها وطباعه ورغبتهما بالارتباط في المستقبل القريب.. إلى أن وصلَت إلى صُلب المشكلة لتقول:

- والواقع أن هناك تغييرًا جذريًا من الممكن أن يحدث في حياة (أحمد) وحياتي بالتبعية.. لكن الأمر ليس سهلاً.. فنحن لم نسرق من قبل.. ولم نأخذ في حياتنا أموالاً بطريقة غير شرعية.. مما يسبب لنا تحديًا كبيرًا وتوترًا هائلاً نعيشه يوميًا أنا وهو.

سألتها مازحة مستغربة:

- هل قررتما السطو على البنوك؟!.

تجاهلَت مزحتي لتكمل بجدية:

- الحقيقة أن والد (أحمد) رجل خارج عن القانون.. فهو يتعامل بغسيل الأموال منذ سنوات بدهاء شديد من دون أن تكشفه السلطات.. وقد جمع نتاج ذلك مبالغ ضخمة يحتفظ بها في مكان لا يعرفه أحد إطلاقًا.. أنتِ تعلمين بالطبع أن من يمارس غسيل الأموال لا يقوم بإيداعها في البنوك كي لا يُسأل عن مصدرها.

سألتها وعيناي تترقبّان الجواب:

- كيف عرف (أحمد) أن والده يتعامل بغسيل الأموال؟!.

ردّت بنبرة مضطربة:

- (أحمد) هو الابن الوحيد وسط ثلاث شقيقات.. ويعيش مع والده بعد وفاة والدته منذ زمن وزواج شقيقاته جميعًا.. لذا لم يكن من العسير أن يلحظ المكالمات الهاتفية السرية التي يجريها والده.. والكلمات المبهمة.. والمشاوير الغامضة فى أوقات متأخرة من الليل.. إضافة إلى المبالغ التي ينفقها ببذخ على نفسه.. وشرائه ملابس وساعات ومقتنيات باهظة رغم دخله المتوسط.. وقد واجهه (أحمد) بكل هذه الملاحظات.. إلاّ أن والده أنكر كل شيء في البداية.. ثم اعترف بعدها ببضعة أسابيع.. عندما شعر أن ابنه ضيّق الخناق عليه كثيرًا بملاحظاته وتساؤلاته المنطقية.

قلت بحزم:

- إذًا يتحتم على (أحمد) توجيه النصيحة لوالده كي يتوقف

عن هذه الأعمال غير المشروعة؟!.. وإذا لم ينجح في ذلك.. فإن المسؤولية الأخلاقية تحتم عليه إبلاغ الشرطة.. لا شك أنه يستطيع التوصل إلى الأدلة التي تدين والده.

سكتُّ فجأة وأنا أفكر في كلامي.. ثم قلت بصوت خافت يفتقر إلى الحماسة:

- لا.. لا أظنه سيبلغ السلطات عن والده.. من العسير أن يفعلها رغم أن هذا هو الصواب.

ردّت بحدة:

- ليست هذه المشكلة يا (صِبا).. فقد انتبه (أحمد) متأخرًا أن والده قد توقف عن تصرفاته المشبوهة.. وبات يخطئ في معرفة الناس وينسى أشياء بديهية.. ولم يعد يعرف طريقه لو خرج من البيت.. ليتضح أن والده مصابًا بـ(الخرَف)(16).. وبعد مرور عدة شهور ساءت فيها حالة والده وبدأ يتحدث خلالها عن المال بطريقة عشوائية كحال كل مصاب بـ(الخرَف).. بدأت تلك الفكرة المتهورة تطرأ في ذهن (أحمد).. أن يستحوذ هو على المال.. إنه مبلغ حصل عليه والده الذي لا يمكن للسلطات -في حال كشف أمره- مُساءلته قانونيًا بحكم مرَضه الذي أثّر على حالته العقلية.. كما أن (أحمد) يجهل كل شيء عمّن يقف خلف شبكة غسيل الأموال هذه والأشخاص الذين يتعاملون مع والده.. أي أنه سيستحوذ على المال من دون علم أحد.. لكن المشكلة.. أين هو هذا المال؟!.. فقد قام (أحمد) بالبحث في كل مكان خطر بباله بلا جدوى.. بل وحاول استخراج المعلومات من والده.. ليحصل بالمقابل على إجابات

مضحكة لا علاقة لها بالموضوع.

أرجعت شعري إلى الوراء وأنا أسألها بقلق:

- ماذا عنكِ؟!.. ما رأيكِ في ذلك؟!.

قالت بخجل:

- إنّ المبلغ كبير جدًا كما هو يُفترَض.. وسيدخلنا عالم الثراء مباشرة ويؤمّن حياتنا إلى الأبد.. ولا تنسي أيضًا أننا لم نسرق من أحد في نهاية المطاف.

رددت بامتعاض غير مصدقة أن صديقتي تفكّر بهذه الطريقة:

- يبقى المال حرام وغير شرعي.. وليس من حقكما.

لم تجد ردًا على كلامي.. فسكتنا معًا.. وراحت كل منا تتأمل في عالمها الخاص.. ثم أمسكَت هي بهاتفها كي تعبث به قليلاً.. لتدير الشاشة تجاهي فجأة وهي تقول:

- هذا (أحمد) بالمناسبة.

لا أعلم كيف لم تلحظ ردة فعلي وارتباكي ووقْع المفاجأة على ملامحي.. لأن الصورة بدت مألوفة جداً.. إنها صورة ابن خالي!!.. إذًا صديقتي على علاقة عاطفية بابن خالي.. وكلاهما يجهل أنني حلقة الوصل بينهما.. أمور كهذه تحدث كثيرًا في بلد صغير متجانس كـ(الكويت).. وأنا -بالمناسبة- أعلم طبعًا أن خالي يعاني من (الخرَف) لكني لم أتوقع أن يكون هو الرجل الذي تتحدث عنه صديقتي.

ورغم هذه المفاجأة المدوّية.. فقد آثرت الصمت والاحتفاظ بهذا الاكتشاف لنفسي.. وما زلت حتى لحظة كتابة هذه السطور أجهل سبب سكوتي آنذاك.. إنه ذلك الشعور الغامض الذي يدفعك للاحتفاظ بمعلومة تهم الطرف الآخر وأنت لا تعرف السبب.. لكني عمومًا استجبت لهذا الإحساس الداخلي.. وربما سأكشف الحقيقة لصديقتي لاحقًا لو تقدّم لها ابن خالي رسميًا.. وحينها سأبرر سكوتي بعدم رغبتي في إحراجها كونها تحدثت عن خالي (والد حبيبها) بهذه الصورة واتهمَته بغسيل الأموال -بغض النظر عن صحة الاتهام- لينتهي لقاؤنا هذا بعدها بنصف الساعة تقريبًا لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.

بعد أيام شغلَتني فيها أمور الحياة حتى نسيت تمامًا ما أخبرتني به صديقتي التي لم ألتقِ بها منذ ذلك اليوم -وإن استمر تواصلنا عبر مواقع التواصل الاجتماعي- تلقّيت اتصالاً من شقيقتي تخبرني فيه أن خالي يرقد في المستشفى منذ مدة.. بعد أن تدهورت حالته الصحية.. مؤكدة أن علينا القيام بأداء الواجب وزيارته.. فأنهيت المكالمة وصورته في ذهني قد اهتزت كثيرًا بطبيعة الحال بعد كل ما عرفته عنه.. لكنه في النهاية شقيق والدتي.. ويُفترض أن أزوره في أقرب فرصة.

قمت في مساء نفس اليوم بزيارة خالي في مستشفى (العدان) حيث تم نقله من غرفة الملاحظة إلى غرفة عادية بعد أن تجاوز مرحلة الخطر.. وقد شعرت بشيء من الرهبة والألم عندما رأيته ينظر إلى الفراغ بلا حول أو قوة بعد أن فقد اتصاله بالواقع.. فاقتربت منه لأقبل رأسه.. ثم جلست بقربه وأنا أنظر إليه.. مستذكرة

الكثير من الأيام الجميلة في طفولتي معه.. بينما راح هو يغمغم بكلمات غير مترابطة بين لحظة وأخرى.

تنحنحت وسألته بحزن وشفقة وأنا أمسح على شعره مستغلّة وجودي معه في الغرفة لوحدنا:

- خالي.. هل صحيح ما سمعته عنك؟!.. هل صحيح أنك تمارس غسيل الأموال؟!.

لم يبدِ أي ردة فعل تجاه سؤالي.. ولا كأنني تحدثت إليه.. لكني لن أصدقه في كل الأحوال حتى لو نطق وأنكر مثلاً.. إذ لا توجد لصديقتي أي مصلحة في الكذب وتشويه صورة عائلة حبيبها وهي لا تعلم أصلاً أنها عائلتي أيضًا.. مما جعلني أجلس صامتة بعض الوقت.. ثم أنهض لأقبّل رأس خالي للمرة الثانية قبل أن أخرج وقد انحدرَت دمعة من عيني.. غير عالمة إن كنت سأراه مرة أخرى.. إنه يفوق والدتي -رحمها الله- سنًا بحوالي عقد من الزمن.. ومع ذلك توفيت هي قبله.

بعد يومين آخرين.. تلقيت اتصالاً من صديقتي ذاتها تخبرني بالمستجدّات التي أعرفها مسبقًا.. بأن والد (أحمد) يرقد في المستشفى، وأن (أحمد) يمضي ساعات طويلة بجانبه محاولاً استنباط مكان المال من بين هلاوسه.. لكن بلا جدوى.. الأمر الذي يكاد أن يصيبهما بالإحباط.. وفي هذه الأثناء.. ارتأيت أن الوقت قد حان لأكشف لها صلة قرابتي بحبيبها كونها تحدثت عنه للمرة الثانية وربما ستتحدث عنه لاحقًا لمرة ثالثة ورابعة.. وبالطبع كانت صدمة غير متوقعة بالنسبة لها.. فسكتت طويلاً.. ثم راحت تطرح الكثير من

الأسئلة عن (أحمد) علّها تكتشف جوانب أخرى لا تعرفها عن حياته.. إلى أن قالت فجأة:

- يجب أن تساعدينا يا (صِبا).

سألتها باستغراب عن نوع المساعدة التي تحتاجها.. فأجابت بصوت مضطرب:

- لماذا لا نخبر (أحمد) بأمر صداقتنا لكي نبحث نحن الثلاثة عن المال ونحاول أن نعرف مكانه؟!.. فثلاثة عقول أفضل من عقلين.. كما أنكِ قريبة (أحمد) وأقرب صديقاتي -في نفس الوقت- وأثق بكِ كثيرًا.. وجودك بيننا إضافة بالغة الأهمية.

قلت بوجوم من دون أن أرد على كلامها:

- أعتقد أنكِ تشعرين بعبء أخلاقي لقيامك بفعل غير قانوني.. وهذا ما جعلك تكشفين لي هذا السر في لقائنا السابق.. وتطلبين مني الآن مشاركتكما.. على أمل أن أقف إلى جانبك وأطمئنك أنّ لا بأس بارتكاب جريمة واضحة المعالم.. المعذرة.. أنا لا أريد الدخول في هذه المتاهة.. إنني فتاة مسالمة جدًا، ولا أجرؤ حتى على ارتكاب مخالفة مرورية بسيطة.. فكيف تتوقعين مني أن أتعاون معك في اقتحام عالم غسيل الأموال؟!.. لا يمكن.. الأفضل أن تتوقفي أنتِ عن هذا التفكير.. وأن تكفّي عن السعي وراء أموال غير مشروعة.

من الواضح أنني وصفت مشاعرها بدقة.. لأنها ارتبكَت أكثر عند انتهائي من الكلام.. لكنها حاولت أن تستعيد هدوءها.. وبدا وكأنها تحاول ترتيب بعض العبارات لإقناعي.. فأخذت نفسًا عميقًا.. ثم

قالت بكلمات بطيئة هامسة:

- (صِبا).. لا تنسي أن سجل خالك الجنائي ما زال نظيفًا حتى الآن.. ونحن نبحث عن مال لا يعرف بوجوده سواه.. خصوصًا بعد أن اضطر للتوقف عن تلك الأنشطة المشبوهة بسبب تدهور حالته الصحية والعقلية.. وهذا يعني أننا -في حال عثورنا على المال- لن نثير أي شبهة حولنا لأننا خارج دائرة الاتهام.. وحتى لو انكشف أمر خالك لأي سبب.. فهو -والمعذرة على كلامي- يُعد الآن في حكم الأموات.. ما أريدك أن تفهميه أن العملية آمنة وبعيدة عن أي خطر.. أرجوك.. إنني بحاجة إليك.

بدا التردد على ملامحي أمام منطقها القوي.. لتكمل صديقتي بعبارة ذات مغزى:

- بالمناسبة.. إن خالك يردد عبارة (مليونين دينار) كثيرًا في فترات هذيانه.. مما يرجح أنه المبلغ الذي نبحث عنه.

شعرت بهزة قوية تجاه هذا الإغراء.. فسكتُّ طويلاً.. طويلاً للغاية.. وقد بدأ بريق المال يمارس دوره بكل أسف.. حتى اختبأ الضمير تدريجيًا خلال دقائق وبات منسيًا في ركن مظلم من قلبي رغم كل كلامي السابق لصديقتي عن الشرف والأخلاق والقيام بفعل الصواب.. فسألتها بحرج شديد:

- وما الذي سأحصل عليه لو ساعدتكما في العثور على المال؟!.

تسرّب الأمل إلى صوتها وهي تقول:

- علينا أن نخبر (أحمد) بأمر علاقتي بك أولاً.. لا تنسي أنني أنا

نفسي لم أعرف عن صلة قرابتكما إلاّ منذ قليل.. وبعد ذلك.. سأقنعه كي يمنحك ربع المبلغ لو ساعدتنا في العثور عليه.. نصف مليون دينار.

لم أتوقع أن الصراع المرير الذي يدور في عقلي بين بريق المال وصوت الضمير سيحسم بهزيمة ساحقة لصالح المال وبهذه السهولة.. فقد أخبزت صديقتي بموافقتي.. لتنفرج أساريرها وتنهي المكالمة سريعًا كي تقوم بالاتصال بـ(أحمد) وتبلغه بالأمر، على أن يأتيا لزيارتي بعد قليل.. ولم يهمني أن أعرف كيف استقبل خبر علاقتي بصديقتي ودخولي كـ(شريك) ثالث في هذه الجريمة.. أو مدى موافقته على ذلك.. فقد فات الأوان الآن.. وعلينا أن نتعاون جميعًا للعثور على المال.

حضرا معًا إلى شقتي بعد أكثر من ساعة على تلك المكالمة.. وكانت صديقتي تمسك بيد (أحمد) في مشهد ضاعف شعوري بالحرج خلال لقائي به تحديدًا.. لكنه هو أيضًا كان يشاركني الشعور نفسه.. بعد أن وجد أنّ كل منا بات مكشوفًا أمام الآخر.. مما دفعه إلى الحديث فور جلوسنا في غرفة المعيشة محاولاً تبرير ما نحن مقدمون عليه.. بينما ظللت أوافق كلامه بإيماءات خجولة سرعان ما تحولت تدريجيًا إلى الحماس.. رغم أن ما يقوله لم يختلف كثيرًا عمّا سمعته من صديقتي.. وكأن كلينا يحاول أن يظهر بأفضل صورة ويثبت للآخر أنه جدير بالاحترام.. حتى ولو كان لصًا أو خارجًا عن القانون.

بعد ذلك.. دخل (أحمد) مباشرة في صُلب الموضوع.. وأخرج هاتفه من جيبه ليقرأ علينا العبارات التي التقطها من خالي.. مع محاولاته

المستمرة لربطها ببعضها علّها تكشف عن مكان المال.. حيث استغرقنا أكثر من ساعة في النقاش والتفكير.. لنكتشف في النهاية أننا أمام طريق مسدود.. فما يقوله خالي لا يتعدى هذيانًا مبعثرًا يستحيل جمعه في سياق مفهوم.. الشيء الوحيد المؤكد أنّ هناك مبلغًا ضخمًا مخبأ في مكان ما.. وأن خالي وحده يعرف موضعه.. ويُرجّح أن قيمته تصل إلى مليونين دينار كما علمنا.. أي أننا وجدنا أنفسنا مجددًا عند نقطة البداية.. مما أصابنا بخيبة أمل قاسية.. لينتهي الاجتماع ويغادرا شقتي على أن يواصل (أحمد) زياراته لوالده يوميًا في المستشفى.. ويقضي معه ساعات طويلة علّه يستمع إلى كلمات جديدة قد تقودنا إلى شيء.. وأن أفعل أنا الشيء ذاته متى سمحت الظروف.

صحيح أن هناك أمورًا أخرى تستدعي الحذر إذا عثرنا على المال.. مثل احتمال أن يغدر بي (أحمد) أو صديقتي.. فطالما أنّ المال قد غيّرني (قبل) العثور عليه.. كيف أضمن ألّا يغيّرهما تجاهي (بعد) العثور عليه؟!.. عندها سأضرب رأسي في الجدار ولن أتمكن من الحصول على نصيبي.. ولو قررت الانتقام منهما آنذاك واللجوء إلى السلطات.. ستكون اتهاماتي بلا دليل.. وهناك احتمال آخر أيضًا لا يقل خطورة.. أن ينقلب (أحمد) على صديقتي.. والعكس صحيح بالطبع.. لكنني في النهاية.. قررت أن أضع هذه المخاوف جانبًا وأوجّه اهتمامي بالعثور على المال أولاً.. وبعد ذلك سيكون لكل حادث حديث.

ظل البحث عن مكان المال شغلنا الشاغل طوال الأسابيع التالية.. كما أنني زرت خالي في المستشفى أكثر من مرة تنفيذًا

لدوري.. وصادفت هناك (أحمد) أكثر من مرة أيضًا مع بعض الأقارب.. وطوال زياراتي له كنت أترقَّب أن ينطق بمكان المال وسط هذيانه.. لكنه ظل صامتًا غائبًا عن عالمنا.. تمامًا كما كان منذ المرة الأولى التي زرته فيها.. ومع مرور الوقت أخذ كلامه يتضاءل أكثر وأكثر.. فتوقفت عن زيارته.. مقتنعة بأن علينا إيجاد وسيلة أخرى لمعرفة مكان المال.

وقد بدأت رحلة طويلة قضيت خلالها ساعات وأيام في مواقع (الانترنت) و(الذكاء الاصطناعي)، أستفهم عن كل الأماكن الممكنة التي يقوم الإنسان باستغلالها لإخفاء مبالغ مالية ضخمة.. لكني لم أحصل على فائدة واضحة وصريحة من هذا البحث.. لأن كل الأماكن المقترَحة كان (أحمد) قد بحث فيها كما علمت منه شخصيًا.. أو أنها غير واقعية أبدًا.. ثم.. جاءت لحظة التحول الحاسمة في هذه القصة.. عندما شاهدت -بالصدفة- أحد المؤثرين في وسائل التواصل الاجتماعي وهو يتحدث عن (سِحر) الطبيعة في إحدى الدول الأوروبية.. وقد توقفت كثيرًا عند هذه الكلمة.. وراح تفكيري يقودني إلى الاستعانة بساحر لمعرفة مكان المال؟!.. وهذه الطريقة في التفكير ليست غريبة عندما يستميت المرء للوصول إلى هدفه.. فيقوم بتجربة كل الحلول.

أعلم أن أول ما سيخطر في البال أنني أوشك على ارتكاب سقطة أخلاقية جديدة.. لكني ظللت أبرر لنفسي وأقسم بأنني لن أكرر ما أفعله الآن.. ولو عثرت على المال.. سأتصدق بجزء منه كنوع من التكفير عن ذنوبي.. وهو ذات الكلام الذي يقوله كل من يتجاوز القانون ويرتكب المُحرّمات، فقط ليقنع نفسه كل ليلة بأنه ما زال

يملك ضميرًا.

وأعترف هنا أنني خجلت من إخبار (أحمد) أو صديقتي عن موضوع لجوئي إلى عالم الغيبيات والسحر.. لذا قررت أن أتصرف من دون علمهما.. ولو نجحت.. سأكشف لهما كل شيء.. أما لو فشلت.. فسأفشل وحدي.. كما أن هذا سيجعلني في موقف قوة كون المال سيكون بحوزتي وأنّ لي الفضل الأول بالعثور عليه.. وحينها من الممكن مساومتهما للحصول على مبلغ أكبر من الذي وعَداني به.

شرَعْت في تنفيذ خطتي.. وفتحت حسابًا مجهول الهوية على أحد مواقع التواصل الاجتماعي.. ثم بدأت أبحث عن أشخاص ينشطون في عالم السحر وكل ما يتعلق به.. على أمل أن أكتشف ساحرًا حقيقيًا موثوقًا يمتلك القدرة على مساعدتي.. وبالمقابل سيتلقى مبلغًا محترمًا نظير أتعابه.. هذا لو نجح في مهمته بالطبع.. وقد كانت عملية البحث طويلة استمرت لأيام فقد خلالها خالي قدرته على الكلام تمامًا واستمر بقاؤه في المستشفى بسبب سوء حالته.. مما يعني أن فرصة الاعتماد عليه كي يخبرنا بمكان المال أصبحت معدومة.. وهذا ما جعلني أقضي وقتًا أطول لتصفح المواقع والحسابات المرتبطة بالسحر كونه الأمل الأخير كما بدا لي.. إلى أن وصلَتني رسالة ذات يوم من معرّف مجهول يسألني إن كنت أرغب بالحصول على مساعدة من ساحر.. وكان من البديهي أن أطرح السؤال:

- كيف عِلمت أنني أبحث عن ساحر؟!.

فجاء جوابه بديهيًا وبسيطًا:

- لأنك تتابعين حسابات كثيرة متعلقة بالسحرة.. فقدّرت أنكِ بحاجة لمساعدة ما.. مع العلم أن بعض هذه الحسابات ملكًا لي في واقع الأمر.. لكني لا أتواصل من خلالها.. أنت تعلمين أن ممارسة السحر مخالِف للقانون.. وأنا أحاول التحايل والاختباء من السلطات بقدر الإمكان.. مع تقديم خدماتي لمن يحتاجها.

هكذا كان التواصل.. وهكذا كان الاتفاق مع ذلك الشخص الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا سوى ما يقوله هو عن نفسه.. لكني شعرت بالاطمئنان عندما أكد لي بأنه لن يتقاضى أي دفعة مالية إلاّ بعد أن نلتقي وجهًا لوجه.. وقد كان المبلغ الذي طلبه كبيرًا، لكنه معقولاً بنفس الوقت.. على أن يستلم النصف كمُقدم.. والنصف الآخر عندما أرى نتيجة سحره.

التقيت بذلك الرجل في اليوم التالي في الواجهة البحرية بجانب أبراج (الكويت) حسب الاتفاق.. حيث كانت الساعة تتجاوز السادسة مساءً بقليل والأجواء لطيفة كوننا في بدايات شهر (إبريل).. وقد كنت أجلس في نقطة محددة اتفقنا عليها مُسبقًا أيضًا كي يعثر عليّ بسهولة.. لأرى أحد المارّة يقترب مني بعد دقائق ويلقي تحية سريعة.. إنه أسمر البشرة إلى درجة ملحوظة وكأنه من دولة أفريقية.. ويبدو كأي رجل عادي يرتدي ثيابًا عصرية على عكس الصورة النمطية التي رسمناها في أذهاننا عن السحرة.. وكان يتحدث العربية بطلاقة مما يدل على أنه عاش في (الكويت) سنوات طويلة.. أو ربما طوال حياته.

وبعد أن تبادلنا التحية.. جلس بجانبي يتأمل البحر.. ثم سألني من

دون أن ينظر إليّ:

- ما هي حاجتك بالضبط؟!.

أخبرته بقصتي بالتفصيل من دون التطرق لحجم المبلغ الذي نبحث عنه.. فظل يستمع إليّ بلا مقاطعة إلى أن انتهيت.. ليسيطر السكوت التام علينا سوى من أصوات المارة وأمواج البحر والهواء.. ثم تحدّث أخيرًا.. وطلب مني أن أصنع ثوبًا يشبه الزي الوطني الخليجي.. لكن يجب أن يكون فضفاضًا للغاية يصل مقاسه إلى ضعف حجم رجل متوسط الطول.. ولا بد أن يكون القماش أخضر اللون من الحرير الخالص.. وهذا -بالمناسبة- سيثير استغراب أي خياط قد ألجأ إليه.. عمومًا.. بإمكاني الادّعاء أن هذا الثوب من أجل مسرحية أو عمل تلفزيوني مثلاً.

عليّ بعد ذلك إحضار هذا الثوب له.. كي يذر عليه غبارًا يصنعه بنفسه.. ويتلو عليه بعض التمتمات المرتبطة بالسحر.. ثم يجب أن ألبس خالي الثوب وهو راقد في فراشه بالمستشفى.. حينها ستتملكه القدرة على الكلام ويمنحني الإجابة التي أبحث عنها وهو بلا وعي مسلوب الإرادة تحت تأثير السحر.. ولن يتمكن من تذكُّر الحادثة حتى لو تعافى فجأة من (الخرَف) واستعاد ذاكرته.. وهو مستحيل من الناحية الطبية.

كانت الشكوك تراودني وأنا أخبر الساحر صراحة أن كلامه ليس مقنعًا.. لكنه اكتفى بابتسامة هادئة غامضة وهو يقول إن الطقوس السحرية لا تكون مقنعة أصلاً.. فهي ليست بحثًا علميًا يمكن قياسه بالأدلة والبراهين.. وأضاف أنني سأشهد النتيجة بعيني.. عندها

وجدت نفسي أوافق على مطالبه.. متعهدة بأن أحضر له الثوب قريبًا وأسلمه نصف المبلغ.. آمل أن أكون على الطريق الصحيح وألاّ أتعرض لعملية نصب.. وأن أنتهي من كل شيء قبل أن أفاجأ بانتكاسة جديدة لخالي تنتهي بنقله إلى غرفة الملاحظة التي تخضع لمراقبة دقيقة ستمنعني من إلباسه ذلك الثوب الغريب.. أو قبل أن يتوفاه الله في أي لحظة فتنهار خطتي بأكملها.. وهناك نقطة أخرى تقلقني أيضًا.. ماذا لو دخل أحد الممرضين الغرفة أثناء وجودي مع خالي ورآه مرتديًا هذا الثوب الغريب؟!.. كيف سأفسر الأمر؟!.. سأفكر بالإجابة لاحقًا.

لم أجد صعوبة في التعامل مع الخياط.. حيث استلمت منه الثوب خلال أيام قليلة.. وقد بدا غريبًا مضحكًا يليق بالمهرجين بلونه الأخضر، والياقة كبيرة الحجم قياسًا للياقات التي يستخدمها الرجال.. لأترك الخياط وأتواصل مباشرة مع الساحر عبر نفس وسيلة التواصل الاجتماعي التي تحدثنا خلالها في المرة الأولى.. فطلب أن يكون لقاؤنا في شقته.. بحِجّة أنه سيستخدم أدوات خاصة بالسحر لا يمكنه إحضارها إلى مكان عام.. وهو ما زال يؤكد لي بثقة أن السحر سيأتي بنتيجة مذهلة تجعلني أغدق عليه بالمال من تلقاء نفسي ومن دون أن يطلب أكثر من المبلغ المتفق عليه على حد قوله.. وكأنه تاجر يتحدث عن سمعته الجيدة أثناء عقد صفقة تجارية ليمنحني المزيد من الاطمئنان على نجاح عمله.. فوعدته بمكافأة مجزية بالفعل لو نجح مفعول السحر.

كانت شقة الساحر في منطقة عمّالية داخل عمارة متهالكة.. حتى صار منظري غريبًا وأنا أصعد إليها.. وكنت أشعر بالخوف والقلق..

إذ بدا لي المكان بأكمله وكأنه وكرٌ للإجرام.. لكني تمالكت نفسي وأنا أطرق باب الشقة.. حيث استقبلني الساحر مرحّبًا وهو يدعوني للجلوس في غرفة المعيشة التي كانت بسيطة للغاية.. ثم أخرج من جيبه كيسًا صغيرًا يحتوي على مسحوق أسود لا رائحة له ولم أعرف ماهيته.. فنثر المسحوق على الثوب الأخضر وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها ويهز رأسه بقوة من دون توقف.. بأجواء شيطانية مرعبة جعلَتني أعد الدقائق حتى أخرج من هنا وأبتعد عن هذا الرجل إلى الأبد.

وحال انتهائه من هذه التمتمات.. طرحت عليه السؤال المنطقي الذي تبادر إلى ذهني:

- لماذا لا توظّف السحر لمصلحتك الشخصية كي تحصد الثراء والمجد وكل ما يلهث خلفه البشر في أحلامهم؟!.

رد وهو يأخذ نفسًا عميقًا:

- السحر ليس مصباح (علاء الدين).. ولن يمنَحني القدرة على تحويل الصخر إلى ذهب أو أوراق الشجر إلى مال.. وعمومًا فإنني أتقاضى مبالغ كبيرة مقابل خدماتي.. أي أنني أوظّف السحر لمصلحتي بالفعل.

اكتفيت بإجابته هذه ودفعت له نصف المبلغ كما اتفقنا.. ثم خرجت متجهة إلى المستشفى والساعة تتجاوز العاشرة مساءً.. أعرف أن موعد الزيارة الرسمية قد انتهى.. وهذا هو الهدف من ذهابي في مثل هذا الوقت أصلاً.. كما أنني لا أطيق الانتظار أكثر.. فالحماس والإثارة وبريق المال سيطروا عليّ تمامًا.. والقلق كذلك.. خوفًا من

أن يكتشف (أحمد) أو صديقتي ما أسعى عليه.. لأنني قررت أن أحتفظ بالمال كله.. نعم.. لقد استحوذ الطمع على تفكيري بعد لقائي بالساحر.. ورأيت أنني أستحق المال كله مع هذا الجهد المبذول.. لكني ظللت أطرح أفكاري جانبًا وأذكّر نفسي أن الوقت لم يحن بعد على هذا الكلام.. عليّ أن أنجح أولاً.

وصلت إلى المستشفى.. واتجهت إلى المدخل الرئيسي.. لحسن الحظ أن خالي في غرفة خاصة.. ولحسن الحظ كذلك أنّ عملية الزيارة لم تكن عسيرة رغم هذا الوقت المتأخر.. إذ أخبرت الممرضة في الاستقبال أنني أنهيت نوبتي كموظفة في مركز الاتصالات في أحد البنوك.. ووجدتها فرصة لزيارة خالي.. كما منحتها مبلغًا صغيرًا أخذَتْهُ على مضض وهي تؤكد أنها ستسمح لي بالدخول عند خالي لأقل من 10 دقائق فقط.. وإلّا ستقع في المتاعب على حد قولها.

دخلت الغرفة أخيرًا.. وظللت واقفة للحظات ألتقط أنفاسي وأنا أرى خالي نائمًا بأمان وبعض الأجهزة الطبية حوله.. لا يهم.. فحتى استيقاظه لم يعد له معنى بعد أن علمنا ما حل بعقله.. لأتجه ناحيته وبيدي كيس القماش الذي يحتوي على الثوب.. والخوف يسيطر عليّ من فشل التجربة.. ومن عدم عثوري حتى الآن على تبرير مناسب في حال لو رأى أحدهم خالي مرتديًا هذا الثوب المضحك خلال الدقائق القادمة.

والآن.. عليّ أن ألبسه الثوب.. ولا يهم لو ارتداه فوق البيجامة كما أخبرني الساحر.. لكنها تبقى عملية صعبة على فتاة كي تقوم بها لوحدها.. إلاّ أن عقلي ساعد عضلاتي لتكون أقوى.. وبأقصى سرعة

ممكنة.. رفغت رأس خالي ووضعته داخل الثوب.. ثم ألبسته الأكمام وهو ما يزال كاللعبة بين ذراعيّ.. ومستسلم تمامًا كحال كل مصاب بمراحل متأخرة نسبيًا من (الخرَف).. لأنتهي أخيرًا وأنظر إلى خالي الذي لم يظهر منه سوى رأسه.. بعد أن غطى الثوب جسده بالكامل.

لم أنتظر طويلاً للتساؤل إن كان السحر سيأتي بمفعوله.. فقد فوجئت بخالي يفتح عينيه فجأة وهو ينظر إلى السقف بجمود وطريقة آلية مرعبة.. ليتحدث بصوت آلي يخلو من المشاعر وهو يطلب مني طرح السؤال الذي أريده.. يا إلهي.. هذا لا يُصدّق.. لقد ظللت في حالة شك طوال الوقت وكنت أرى أن كل ما أفعله أقرب إلى الفشل منه إلى النجاح.. لكن الساحر على حق.. وكل ما أراه الآن يؤكد ذلك.

سألت خالي بصوت مرتجف عن حجم الثروة التي جمعها من غسيل الأموال.. ليجيب فورًا وبنبرة آلية أن المبلغ مليونا دينار.. كان هذا مذهلاً.. ثم بادرت بسؤاله بلهفة عن مكان المال.. ليجيب أيضًا ويكشف عن المكان الذي لم يكن ليخطر ببال أحد بالفعل.. وبالطبع لم أستطع البقاء لحظة واحدة بعد ذلك.. فمشاعر الانتصار كانت تلتهمني التهامًا.

نزعت عنه الثوب بسرعة وعنف لم أراعِ فيهما حالته الصحية.. ثم خرجت من المستشفى بخطوات سريعة للغاية متجهة إلى سيارتي.. آه لو علم (أحمد) بالمكان.. سيجن جنونه ولا شك.. لأن المال موجود أمام عينيه طوال الوقت لكنه لم ينتبه لمكانه.. و.. مع كل ما حدث أمام عينيّ.. ظلت بعض الشكوك تراودني.

رحت أقود السيارة باتّزان محاولة السيطرة على أعصابي مع التفكير في خطوتي التالية والأخيرة.. وإن كانت هناك أي ثغرات قد تكشف أمري.. إنّ سيارتي تقليدية ولن تثير الانتباه إن رآها أحد.. وقد كان عليّ أن أعود أولاً إلى شقتي لأحضر قبعة سأستعملها كنوع من التنكّر.. ومعها عدة بسيطة سأحتاجها لاستخراج المال.. ثم واصلت طريقي نحو بيت خالي.. حيث كان المال مخبأً على مقربة منه.. وحال وصولي.. نزلت لأسير بخطوات متوترة إلى برّاد السبيل الذي وضعته زوجة خالي -رحمها الله- من باب الصدَقة.. وقد تلفَ البرّاد بعد وفاتها بسنوات ولم يصلحه أحد من ذلك الحين.. ليظل في مكانه مهملاً منسيًا طوال تلك المدة.. يا له من مكان لم يكن ليخطر ببال أحد بالفعل.

توجهت إلى غطاء البرّاد في الخلف حيث تلتصق به الكثير من الشجيرات المهمَلة.. مما يعني أن ظهري سيتعرض لخدوش كثيرة بسبب الأغصان.. لا بأس.. هذا ثمن شديد التفاهة في سبيل الحصول على مليوني دينار.. ثم أخرجت من جيبي مجموعة من المفكّات متنوعة الأحجام كنت أحتفظ فيها في شقتي منذ مدة وها قد حان وقت استخدامها.. فأمسكت بالمفك الذي وجدته مناسبًا.. وبدأت أفتح -بصعوبة شديدة- المسامير اللولبية التي غلب عليها الصدأ والتي تمسك بغطاء البرّاد.. وأتوقف بين لحظة وأخرى لألتفت كي أتأكد أن لا أحد يراقبني.. وأنظر كذلك إلى البيوت المجاورة باحثة عن كاميرات مراقبة قد يكون أحدهم وضعها أمام بيته كما يفعل البعض.. لكني لم أجد شيئًا لحسن الحظ.

وأخيرًا انتهيت.. ووجدت أن غطاء البرّاد يتراخى ويستجيب..

لأزيحه كي أرى نتيجة خطتي.. إنها لحظة الحقيقة.. وقد كانت لحظة سعيدة للغاية طار لها قلبي فرحًا.. فقد انتزع خالي ماكينة التبريد وأنابيب الماء من البرّاد.. ليصبح أشبه بالصندوق الفارغ كبير الحجم.. ووضع في الداخل أكياس كبيرة من القماش كاد أن يطير صوابي عندما عثرت عليها.. لكني تمالكت أعصابي وقمت بتمزيق أحدها بالمفك من أجل المزيد من التأكّد.. لأرى داخله كمية من الأموال المتكدسة بإحكام في كيس آخر بلاستيكي شفاف.

انتابني حماس جنوني وأنا أخرج كل الأكياس واحدًا تلو الآخر كي أضعها في صندوق سيارتي والابتسامة لا تفارق ملامحي.. إلى أن انتهيت.. لأعيد غطاء البرّاد إلى مكانه وأحكم إغلاقه بالمسامير.. حقًا أن نسبة المغامرة بوضع المال في مكان كهذا ضئيلة جدًا تقترب من الصفر.. يا لك من ذكي يا خالي العزيز.. يا لك من ذكي يا خالي العزيز.

حالما وصلْت إلى شقتي وركنت سيارتي.. بدأت بنقل الأكياس إلى الداخل على أكثر من دفعة.. حيث كانت العملية مرهقة إلى حد ما.. وما إن فرَغْت منها.. حتى قفلت باب شقتي بإحكام ووقفت أنظر بانتصار وقلب يرقص فرحًا إلى كومة أكياس القماش التي وضَعتها على الأرض وسط غرفة المعيشة.. ثم بدأت أغني وأرقص وأنا أدور حول الأكياس على أنغام أغنية أردد كلماتها بصوت خافت.. محتفلة بإنجاز أكثر من 95% من المهمة.. إذ عليّ الآن التفكير بالخيارات المتاحة أمامي كي أحتفظ بالمال لنفسي من دون إثارة الشبهات.

جلست بعدها لألتقط أنفاسي وأفكر بالخطوة التالية.. فكان أول ما طرأ في ذهني أن أتصرف وكأن شيئًا لم يكن.. مما يعني أنّ

عليّ الذهاب إلى عملي يوميًا.. وأن أستمر بالتواصل مع (أحمد) وصديقتي.. والادعاء أنني ما زلت أفكر وأبحث عن الحلول لمعرفة مكان المال.. لا شك أنني سأعثر على وسيلة مناسبة للتصرف بتلك الأموال والاستفادة منها من دون إثارة الشبهات.. وسأملك كل الوقت لأفكر في ذلك.

بعد حوالي يومين لم يحدث فيهما ما يستحق الذكر سوى أنني منحت الساحر النصف الثاني من أجره مع مكافأة مجزية حيث شكرته على نجاح طريقته.. لتنتهي علاقتي به إلى الأبد.. كما قمت بنقل الأموال كلها إلى دولابي الذي قفلته بإحكام وخبأت المفتاح تحت إحدى علب الماكياج الخاصة بي.. وهو تصرف لا معنى له.. لكن فقط كي أشعر بالمزيد من الأمان.. فكنت لحظتها أجلس مسترخية أمام شاشة التلفزيون ومازال الشعور بالانتصار يتملكني.. لأسمع صوت جرس الباب.. مما أثار ريبتي وجعلني أنهض متوجسة لأسأل عن هوية الطارق.. وإذ به (أحمد) يطلب أن أسمح له بالدخول من أجل أمر هام للغاية حول نفس الموضوع.

انتابني قلق مفاجئ.. وحاولت جاهدة الحفاظ على أعصابي.. هل كشف أمري؟!.. لا أدري.. لكن يجب أن أتصرف على طبيعتي وأسيطر على أعصابي وكأن شيئًا لم يحدث.. ففتحت له الباب وقلت مباشرة قبل أن أدعوه للدخول:

- هل كل شيء على ما يرام؟!.. هل هناك أي مستجدات؟!.

بدا حزينًا وهو يدخل بخطوات متخاذلة من دون أن يرد على كلامي أو ينظر إليّ.. وما إن جلس في غرفة المعيشة.. حتى جلست

على المقعد المقابل لأسأله:

- لقد أقلقتني يا (أحمد).. ماذا هناك؟!.. هل خالي بخير؟!.

تغيرت ملامحه بسرعة إلى الخبث.. فبدا كالصياد الذي يمتلك سيطرة كاملة للانقضاض على فريسته.. إذ نهض من مكانه وقفز عليّ فجأة وهو يضع يده على فمي حتى يمنعني من الصراخ.. ثم قال بقسوة وعيناه تمتلآن حقدًا:

- أيتها اللعينة.. هل تظنين أنني غبي ولن أكشف أمرك؟!.. أعرف أنكِ زرت أبي في المستشفى.. وأعرف أنك قمتِ بتصرف غير مفهوم عندما ألبستِه ثوبًا غريبًا جعل أبي يفتح عينيه ويتحدث معك ليخبرك بمكان المال.. أنا لا أعرف كيف فعلتِها.. ولا يهمني أن أعرف.. فهو أقرب إلى تصرفات السحرة والمشعوذين.. المهم أنني عرفت مكان المال أيضًا والذي لم يكن ليخطر ببالي أبدًا.. وذهبت مسرعًا إلى بزّاد الماء القديم مقابل بيتنا.. لكن -وكما توقّعت- وجدت جوفَه فارغًا بعد أن سرقتِ المال واحتفظتِ به لنفسك.

كنت أُهفهِم محاولة الاعتراض على كلامه ويده ما تزال تكتم فمي.. فأكمل موضحًا:

- لا تكذبي علي يا (صِبا).. لقد وضعت كاميرا مراقبة في غرفة أبي في المستشفى.. وأنا أقوم بمراجعة ذاكرة المراقبة بين فترة وأخرى علّه يتحدث ويقول شيئًا متعلقًا بالمال أثناء هذيانه.. فرأيت وسمعت كل شيء.. والآن.. أريد المال كله حالاً وفورًا.. ولو كنت تظنين أنك ستحصلين على شيء منه أنت أو صديقتك الحمقاء.. فأنتما واهمتان.

كنت مصابة بحالة من الهلع على حياتي وعلى أحلامي التي ماتت قبل أن تولد.. مُدركة أن وباء الطمع وصل إلى (أحمد) أيضًا، الذي قرر -كما يبدو- ألاّ يجعل حبيبته (صديقتي) تحصل على شيء، حتى لو أنهى هذا علاقتهما.. لكني -رغم ذلك- رفضت الاعتراف حالما سمح لي بالكلام.. وظللت أدعي أنني لا أعرف شيئًا بكذبة واضحة وضوح الشمس.. ليقول وهو يمسك عنقي بيده:

- لن أنتظر الإجابة منكِ.. لا شك أن المال هنا في شقتك.. فلا أظن أنكِ تمكّنتِ من التصرف به أو إخفائه في مكان بعيد عن الأنظار.. أنا واثق من ذلك.

كان يتحدث وكأنه مجرم عتيد.. هل من الممكن أن يتحول الإنسان إلى كائن أناني متوحش هكذا بسبب المال حتى يكاد يكون شخصًا آخر لا نعرفه؟!.. لكني ابتلعت أفكاري عندما تذكّرت أنّ هذا ما حدث معي حرفيًا.. وأنا ما زلت أقسم له كذبًا أن المال ليس بحوزتي.. فتركَني (أحمد) للحظة.. واتجه بخطوات سريعة إلى باب الشقة حيث قام بقفله ووضع المفتاح في جيبه ليصبح مسيطرًا تمامًا على الوضع.. ثم قال بشراسة:

- أنتِ الآن تحت رحمتي.. لا يمكنك الخروج.. ولو صرختِ طلبًا للمساعدة.. سأنهال على وجهك ضربًا بقبضتي إلى أن تتحطم كل أسنانك.. لن أخسر كل شيء بسببك.. سأبحث عن المال في شقتك.. ولو عثرت عليه.. سآخذه معي وأخرج من هنا وكأن شيئًا لم يكن.. أو الأفضل أن تأتي لي بالمال بنفسك بدلاً من تضييع الوقت.. وأعدك بأنني....

لم يكمل عبارته.. وإنما قمت بمحاولة أخيرة ويائسة لإنقاذ المال.. عندما نهضت سريعًا لأركل (أحمد) في منطقة ذكورية حساسة للغاية ستسقطه أرضًا بلا شك.. لكني فشلت بالطبع.. لأنني لست مقاتلة ولم أخض عراكًا في حياتي.. مع ذلك أدرك (أحمد) ما كنت أنوي فعله.. فانفجر غضبًا.. وأطبق بيده على عنقي.. وراح يصفعني بيده الأخرى بلا توقف حتى كدت أفقد وعيي من قوة صفعاته.

هل فقدت وعيي بالفعل؟!.. أبدًا.. وإنما استعدتُه فجأة ووصلت إلى أعلى درجات اليقظة وأنا أرى ما يحدث!!.. لماذا توقف (أحمد) عن ضربي وتراخت يده في الهواء قبل صفعته التالية؟!.. لماذا زاغت نظراته هكذا؟!.. لماذا بات ينزف بهذه الغزارة من رقبته؟!.. ولماذا يبدو عليّ كل هذا الرعب؟!.. لأن هناك من جاء ممسكًا بسكين مطبخ كانت موجودة على طبق الفاكهة الصغير فوق طاولة الطعام في صالة شقتي.. وغرسها في رقبة (أحمد) الذي سقط أرضًا ولفظ أنفاسه الأخيرة في لحظات خاطفة؟!.

وقبل أن أتطرق لما حدث بالتفصيل في تلك اللحظات المرعبة التي انتهت بي إلى مستشفى الطب النفسي.. يجب أن أعود إلى بداية القصة.. عندما تحدّثت عن ممارستي لهواية ما.. من دون أن أتطرق إلى ماهيتها إن كنتم تتذكرون.. فالواقع أنني أمارس هواية صنع التحف من الخزف بأشكال وأحجام متنوعة.. وأعرض بعضها للبيع من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.. وقد كان من ضمن أعمالي صناعة تمثال لولد صغير يصل طوله إلى متر ونصف تقريبًا.. حيث قررت الاحتفاظ به في شقتي لشكله الجميل.. ووضعته في زاوية غرفة المعيشة ليضفي حضوره لمسة فنية دافئة على المكان.

والواقع أنني ارتكبت خطأً كارثيًا عندما احتفظت بالثوب الذي صنعته بناء على توصيات الساحر وألبسته خالي في تلك الليلة المشؤومة، على أن أتخلص منه لاحقًا.. لأنني لم أحتفظ بالثوب فقط.. وإنما ألبسته ذلك التمثال الصغير عندما كنت أرقص بعبث وجنون وأحتفل بعثوري على المال.. نعم.. أعتقد أن الصورة اتضحت لكم إلى درجة كبيرة.

لقد استولى الشلل على جسدي.. وخارت ساقاي حتى عجزتا عن حملي.. وكأن الخوف انتزع مني القدرة على الوقوف، عندما رأيت التمثال واقفًا خلف (أحمد) مباشرة تاركًا مكانه في زاوية غرفة المعيشة.. ومرتديًا الثوب الأخضر الذي منحه القدرة على التحرك وإنقاذ حياتي.. ليقوم بغرس السكين في رقبة (أحمد) بطريقة آلية مرعبة.

لماذا فعل التمثال ذلك؟!.. هل لأنني صنعته بنفسي وأصبح هناك نوعًا من العشرة بيننا رغم طرافة -وربما حماقة- السؤال؟!.. لا أعلم.. لكن ما حدث جعلني أتحوّل إلى ما هو أشبه بالحجر.. فلا شعور ولا حركة وأنا أراقب هذا المشهد المرعب الذي يستحيل وصفه وإيصاله لأحد ما لم يره بنفسه.

تظنون أنني أكذب لكسب تعاطفكم؟!.. تظنون أن ما أقوله لكم مجرد هراء وأنكم لن تصدقوا أبدًا هذه التفاهات؟!.. حسنًا.. دعوني أذكّركم أننا نعيش في بقعة مكانية وزمنية تعادل الصفر بالنسبة لحجم مجرتنا.. وأن مجرتنا تتواجد في بقعة مكانية وزمنية تعادل الصفر بالنسبة لحجم الكون.. ومع ذلك تعتقدون أن ما تعيشونه

يوميًا وما تحملونه من أفكار هو الحقيقة المطلقة؟!.. إنكم لطفاء جدًا وساذجون جدًا.. فقط اذهبوا إلى مقاهيكم واشربوا قهوتكم مطمئنين أنكم تعرفون الحياة.. بينما أنتم في الواقع تجهلون الكثير.. الكثير جدًا.

وقد كان لا بد من لحظة تعود فيها أنفاسي إليّ.. لأطلق مباشرة عدّة صرخات بأعلى صوتي من هول ما رأيت.. وهذه الصرخات كانت لا بد أن تلفت انتباه أحدهم.. إذ سمعت جاري وهو يطرق الباب بقلق ويسألني إن كنت بخير.. وأنا ما زلت أصرخ وأصرخ كحال أي إنسان رأى شيئًا يخالف كل قوانين المنطق والعلم.. وفي النهاية.. فقدت وعيي.

لم أستفِق إلاّ بوجود رجال الشرطة الذين اقتحموا الشقة كما علمت لاحقًا بناء على اتصال نفس الجار الذي ظل يطرق الباب بلا جدوى.. وقد أخبرتهم بكل ما جرى.. وأنا ما زلت غارقة في حالة من الهلع جعلَتني أستعيد تفاصيل ما رأيته لحظة بلحظة.. كأنني عالقة هناك.. في ذلك المشهد الذي يستعصي على العقل تصديقه.. مؤكدة لهم أنني لم أقتل (أحمد).. وإنما التمثال هو من فعل ذلك بسبب الثوب الأخضر السحري الذي يغطيه.. فكنت أرى في عيونهم مزيجًا من الريبة والسخرية.

وحتى عندما تمسّكت بالأمل الأخير وأمرت التمثال أن يتحرّك ليؤكد كلامي والثوب الأخضر الملعون مـا زال يغطيـه.. لم يحدث أي شيء.. فبدا للجميع مجرد تمثال غبي يرتدي ثوبًا غريب الشكل.. كما قام رجال الشرطة بتفتيش شقتي وعثروا على المال.. ليصبح

الاستنتاج الأسهل والأكثر منطقية.. أنني شريكة (أحمد) في سرقتنا لهذا المال.. وقد قتلتُه بسبب خلاف نشب بيننا.. وهذا -بالطبع- أقرب إلى التصديق من الهراء الذي ذكرته لهم كما وصفوه بأنفسهم.. وفي النهاية.. وضعوا القيود حول معصمي واقتادوني بعيدًا.

ظللت أتحدث أثناء التحقيقات عن كل الأدلة التي تؤكد قصتي الغريبة.. لكن لم تكن هناك أدلة أصلاً.. فقد قام (أحمد) بمحو اللقطة التي يستيقظ فيها خالي في المستشفى كي يخبرني عن مكان المال.. وهو الدليل الوحيد على لجوئي إلى السحر ونجاح مفعوله.. في حين لن يثبت استدعاء الساحر أي شيء.. إذ يستطيع الكذب والادعاء أن ما فعله لم يكن يتجاوز عملية نصب كي يخدعني ويحصل مني على بعض المال.. ولن يحدث سوى أن يتم القبض عليه بهذه التهمة السخيفة.. هذا ما قاله لي المحامي بعد أن التقى بالساحر الذي رفض تمامًا التعاون معنا والاعتراف بقدراته ومفعول سحره.

وبعد تحقيقات مطوّلة وخضوعي للمحاكمة.. قرر القاضي إحالتي إلى مستشفى الطب النفسي للوقوف على حالتي العقلية.. وأنا أؤكد لشقيقي وشقيقتي أنني بريئة.. وأن التمثال هو الذي قتل ابن خالنا (أحمد).. إلاّ أن اعترافي بالسرقة قد أضعف موقفي أكثر ووضع مصداقيتي على المحك.. أما صديقتي فلم ألتقِ بها ولا أعرف مشاعرها تجاهي.. ويبدو أنها قررت الصمت والابتعاد عن المشهد كي لا تُوَجّه لها أي اتهامات.. وهي عمومًا في أمان لأنها لم تفعل شيئًا سوى سكوتها عن رغبة (أحمد) بالاستحواذ على أموال غير مشروعة.

أعلم أنها قضية تشير فيها كل أصابع الاتهام إليّ.. وما زلت أجهل إلى ماذا ستؤول إليه الأمور.. ولا أعرف ما سيكتبه الطبيب النفسي في تقريره بعد أن يقف على حالتي العقلية.. لكني لم ولن أغير كلامي أبدًا.. أنا أعترف بسرقة المال.. لكني لم أقتل (أحمد).. التمثال هو من فعل ذلك.. وإن أكد لي المحامي أنني لن أُتهم بجريمة قتل.. لأن ما حدث كان دفاعًا عن النفس في نظر القانون.. خاصة بعد أن أثبت تقرير الطب الشرعي وجود خدوش على رقبتي ويدي وأجزاء من جسمي على يد (أحمد).. مما يؤكد أنه اعتدى علي وحاول إيذائي وهو في شقتي.

وإذا كان هناك من يسخر من قصتي ويراها غير معقولة.. عليه أن يطرح على نفسه هذا السؤال.. هل تدرك حقًا أين تقف حدود السحر؟!.. هل تتخيل قدراته الحقيقية؟!.. أتحدى أي شخص أن يجيب بثقة.. المشكلة أن جميع حالات السحر التي انتشرت عبر التاريخ كانت مختلَقَة -بالقاف وليس بالفاء- أو ارتبطت بالتعصب الديني والانتقام.. مثل ما جرى في (قرية سالم)(17) بحسب ما قرأته ذات مرة.. فتلك الحوادث الزائفة طغت على القصص الحقيقية التي لم نعرف عنها شيئًا.. لأن الساحر الحقيقي لا يمكن أن يكشف أسراره أو يقوم بتوثيق أفعاله.. ولولا أنني وقعت في قبضة الشرطة.. لما كنت أنا نفسي سأروي ما حدث.

لقد تحدث معي الطبيب النفسي بمنطق علمي صارم وأهبَل.. مُرجّحًا أنني أنا من غرست السكين في رقبة (أحمد) لأنقذ نفسي منه وأنقذ المال الذي كان سيستولي عليه.. لكن صدمة الموقف وصدمة

إقدامي على القتل -حتى لو كان دفاعًا عن النفس- جعلتني فريسة هلاوس وأوهام(18) كانت أشبه بمنظومة دفاعية استخدمها دماغي لحمايتي من هول الموقف.. خاصة مع ما سبق ذلك من رحلة البحث عن المال.. فرأيت لحظتها أشياء لم يكن لها وجود أصلاً.

أما عنوان قصتي الغريب (أيّان)(19).. فهو الاسم الذي أطلقته على التمثال حين كنت منشغلة في صنعه.. بعد أن سمعته مصادفة في إحدى البرامج التلفزيونية وأعجبني كثيرًا.. إذ شعرت أنه يحمل وقعًا غامضًا على أذني.. ولم يخطر ببالي أبدًا أن هذا الاسم سيلتصق بي كظل ثقيل.. وسيلاحقني ليغرق أيامي في كوابيس لن تنتهي إلى الأبد.

وفي كل مرة أستعيد أحداث القصة في ذاكرتي.. تأتي تلك الرجفة لتسيطر عليّ.. فتلتف حولي كأفعى باردة وتهمس لعقلي بأشياء لا أفهمها.. ولا أدري إن كان عليّ أن أشعر بالخوف بسبب مستقبلي المجهول.. أم بسبب وجود أشياء مرعبة خارقة للطبيعة في عالمنا ولا يصدقّها أحد.. فحتى لو قام أحدهم بدخول شقتي أثناء وجودي هنا للتخلص من التمثال -وهو ما طلبته من شقيقتي بالفعل- إلاّ أن هذا ليس كافيًا.. لأن شكل التمثال سيظل مطبوعًا في ذاكرتي إلى الأبد.. بوجهه الحجري وملامحه الجامدة التي لا تموت.. ويده التي طعنَت (أحمد) في رقبته لكي تنقذني من الموت.. يد (أيّان).

الخاتمة

ها أنا أعود إليكم لأكتب تعليقي على قصة (صِبا).. وأؤكد -كما أقول دومًا- أنني لا أهتم بمدى واقعية قصتها.. وإنما إيمانها بما تقوله.. وخبرتي تقول أنّ (صِبا) مقتنعة بكل كلمة كتبَتْها وقالتها لي.. ومن المُرجّح أن تكون هي من قتلت ابن خالها.. ثم أصيبت باهتزاز نفسي جعل دماغها يلجأ إلى وسيلة دفاعية يخفف بها وقع الصدمة.. فراح يصوّر لها أشياء لا وجود لها أصلاً.. ويجب أن نتذكر هنا أن الدماغ جهاز بالغ التعقيد.. وكل ما ندركه عبر حواسنا معرّض للخطأ والتأويل.. لأن حواسنا في النهاية ليست أكثر من إشارات كهربائية يتولى الدماغ تفسيرها وترجمتها إلى ما نظنّه واقعًا.. ولنا أن نتخيل ما قد تفسّره أدمغتنا عندما نتعرض لصدمات.. أو صدمة واحدة كبيرة.

ختامًا.. فإن الأمراض النفسية تجعل الإنسان (يظن) أنه عاش تجارب خارقة للطبيعة وربما هي ليست كذلك.. كما أن بعض الصراعات الإنسانية حول المال والسلطة والحب وكل مغريات الحياة.. تتسبب أحيانًا باضطرابات نفسية تتباين بين البشر.. كلٌ حسب استقبال دماغه لهذه الصراعات.. هذا هو تفسيري لقصة (صِبا).. وهذا ما سأكتبه في تقريري.

الدكتور (.....)

عبَث مخيف

تحكيها (كوثر)

العمر 25 سنة

أعشق الذهاب إلى العمل ليلاً.. خاصة في الأيام الباردة والأجواء الملبّدة بالغيوم.. فالليل البارد الغائم يشبه روحي.. إنه معتم لكنه ليس مظلمًا تمامًا.. كما أنه حزين ويمتلئ بأشياء لا تُقال لأنك تمتلكها لوحدك ولا ترغب بمشاركتها مع أحد.. إنني ابن الظلام والغيوم والأمطار.. ولا أنتمي أبدًا للأيام المشمسة.. وهذا جزء من شخصيتي.. لذلك أكره كثيرًا النوبات الصباحية التي أخرج فيها وكل الموجودات واضحة مملة جافة بما لا يترك للحلم والخيال مكان.. فبالنسبة لي.. كلما وضحت الموجودات، بهتت ألوانها في قلبي.. كأن الغموض وحده من يمنحها الحياة.. إن اكتئاب الشتاء لذيذ ونفتقده كثيرًا عندما ندخل فصل الصيف.

وهذا ما جعلني في حالة انتعاش عندما خرجت من شقتي مساء ذلك اليوم في منتصف شهر (فبراير) متجهًا إلى أقرب مقهى.. لأحصل على مشروبي المفضل المعتاد (لاتيه).. ومن ثم أقود سيارتي إلى نوبتي المسائية.. نوبة الهدوء التي يندر فيها الزوار.. وقد بينت كثيرًا في السابق أن مستشفى الطب النفسي شديد الهدوء في النوبات المسائية على عكس أي مستشفى باطني.. فلا توجد حالات نفسية طارئة إلاّ فيما ندر.. ماذا؟!.. تشعرون بالملل لأنني أردد هذا الكلام باستمرار؟!.. المعذرة، لكن هناك دومًا قراء جدد لحسن الحظ.. ولا بأس من تكرار بعض المعلومات من أجلهم.. كما أن هذا

جزء من روتين حياتي ومن الصعب ألاّ أتطرق إليه بين حين وآخر.

أصل إلى المستشفى وأركن سيارتي وزخات المطر بدأت تنهمر على استحياء ومن الواضح أنها ستتمادى أكثر وأكثر.. فالغيوم ملبّدة وتنذر بالكثير.. لكن هذا لم يمنعني من طرح ذلك السؤال الذي طرأ في ذهني فجأة.. لقد ركبت سيارتي ورحت أقودها ذاهبًا إلى المستشفى.. وأثناء ذلك فقدت إحساسي بكل شيء.. ثم انتبهت فجأة إلى أنني وصلت إلى وجهتي.. كأن من كان يقود السيارة شخصًا آخر.. وليس أنا.. أو كأن السيارة تسير بـ(القيادة الآلية) (Automated Driving).. هذا السلوك له تفسير في علم النفس.. ما هو؟!.. أحاول أن أتذكر وأنا أسير متجهًا إلى بوابة المستشفى الرئيسية.. لتسعفني ذاكرتي أخيرًا.. إنهم يطلقون على هذا اسم (الذاكرة الإجرائية).. وهي تنشأ من تكرار النشاط مرارًا.. فيتم حفظها في الذاكرة لتستردها تلقائيًا عند الحاجة من دون أن يتدخل الوَعي(20).

دخلت من بوابة المستشفى متجهًا إلى مكتبي.. لأضع حقيبتي الصغيرة جانبًا والتي تحوي هاتفي ومفاتيحي.. إلخ.. ثم أجلس مسترخيًا وكوب قهوتي ما زال معي.. والمدفأة أيضًا لا بد أن تعمل في مثل هذه الأجواء لكي أكمل المعادلة التي أعشقها.. برد الخارج ودفء الداخل.. ثم أرى أحد إداريي النوبة المسائية يطرق الباب مبتسمًا بعد أن لمحني قادمًا.. ليلقي تحية ودية ويتنحنح قائلاً بابتسامة:

- دكتور.. هناك فتاة تنتظرك.. أو تنتظر الطبيب المناوب إن أردنا

الدقة.

قالها وهو يشير لها بيده أن تقترب.. لأرى فتاة رائعة الجمال تقف عند عتبة باب الغرفة وهي توجه له كلمة شكر هادئة ثم تلتفت إليّ.. في حين ابتعد هو عائدًا إلى مكتبه في الإدارة.

دخلَت الفتاة بخطوات واثقة تحوي كبرياء شديدًا لأنوثتها الطاغية التي تعلَم يقينًا أنها قادرة على أن تخلب لب أي رجل.. فتاة كهذه لا شك أنها تتطلب من شريك حياتها أن يكون بنفس المستوى من ناحية الوسامة وقوة الشخصية وربما الثراء المادي.

كانت ترتدي ثيابًا شتوية ثقيلة وربما مبالغ بها في شتاء (الكويت).. لكنها زادتها جمالاً والحق يقال.. وكأنها ترتديها من أجل التأنق وليس طلبًا للدفء.. إلاّ أنني تجاهلت كل هذا وأشرت لها بيدي أن تتفضل متجنبًا التحديق في ملامحها حتى أظهر لها أنني أيضًا -وإن لم أمتلك الوسامة المطلوبة- على قدر هائل من القوة والثقة بالنفس.. وأن كل ما سأفعله في هذا اللقاء أن أؤدي عملي وواجبي فقط ولن أزيد على ذلك شيئًا.. إن معركة جذب الانتباه بين الذكر والأنثى تظهر في كل التعاملات الإنسانية ولا مفر من ذلك.. المهم ألّا تؤثّر في قراراتنا وحكْمنا على الأمور.

جلسَت الفتاة ووضعَت حقيبتها على الكرسي المقابل.. ثم سألتني بهدوء ومن دون مقدمات:

- دكتور.. لماذا عند السهر فقط نشعر برغبة ماسّة بالتحدث وتبدأ الأسرار بالخروج؟!.. هل الوقت المتأخر له دور؟!.

لم يطرح علي أحد هذا السؤال من قبل.. فاستجمعت أفكاري للحظة.. ثم قلت بهدوء مبتسمًا:

- في الليل يقل الضجيج والازدحام الذهني.. فلا مكالمات عمل ولا مهام منزلية ولا تواصل اجتماعي.. هذا الصفاء يجعل العقل يهدأ.. مما يفتح المجال للتفكير العميق والتأمل الذاتي.. ولا تنسي الظلام أيضًا.. إن ظلام الليل يخلق شعورًا بالخصوصية والانغلاق.. وكأن الشخص في فقاعة آمنة.. هذا الإحساس قد يجعل الحديث عن الأمور الشخصية أكثر سهولة.. وهناك أيضًا الشعور بالوحدة.. لأن السهر غالبًا ما يرافقه شعور بالوحدة يدفع الناس للرغبة في البوح بما في داخلهم.

وكأن كلامي لم يقنعها.. إذ ظلت تنظر إليّ منتظرة تفسيرًا علميًا وليس شاعريًا.. فقلت بلهجة الطب الصارمة:

- إن مستويات بعض الهرمونات المرتبطة بالمشاعر تتغير ليلاً.. وهذا يؤثر على المزاج ويزيد من الرغبة في التعبير.. أي أن السهر ليس مجرد وقت متأخر.. بل حالة شعورية ونفسية كاملة تُهيئ الإنسان للكلام الحقيقي والصادق(21).

ابتسمت بارتياح وكأنها تأكّدت من كفاءتي كطبيب.. لتقول وهي تلقي نظرة على غرفتي:

- ربما مكان أنيق كهذا ووجود مستمع جيد لهما تأثير أيضًا.. لأنني أشعر برغبة جارفة بالتحدث وإخبارك بالسر الذي يقيّد أنفاسي وكأنه يزن أطنانًا حقيقية لا مجازية.. صدقني.. الأمر مرهق للغاية.. لهذا أتيت إليك في مثل هذا الوقت.. وقد كنت آمل أن أشعر بالراحة

تجاه الطبيب الذي سيستقبلني.. وأنت تشعرني بهذه الراحة بالفعل.

نعود هنا إلى الفارق بين الطبيب النفسي والاستشاري النفسي ومهمة كل منهما.. إنها تخلط بين المهنتين كحال الكثير من الناس.. لذا أخبرتها أنني طبيب ألجأ إلى الأدوية لعلاج الأمراض النفسية.. أما ما تتحدث هي عنه فهو الاستشاري النفسي الذي يستمع إليها ويحاورها في جلسة -أو عدة جلسات- إلى أن تتجاوز المشكلة أو الأزمة التى تمر بها وتؤثر على حالتها النفسية.. لترد هى ممتعضة:

- هل هذا يعني أنك ستجعل مجيئي إلى هنا بلا فائدة؟!.. دعني أتحدث وأفضفض كما أشاء.. فالمستشفى خالٍ تمامًا.. ولا يوجد أحد ينتظر في الخارج.

وقبل أن أرد.. أكملت هي قائلة:

- بالمناسبة.. إحدى قريباتي طبيبة نفسية.. وقد فهمت منها في سياق حديثها ذات يوم عن وضع مستشفى الطب النفسي في النوبات المسائية.. فقررت المجيء ولقاء الطبيب المناوب كوني لا أستطيع أن أخبرها بقصتي.. إنها قريبتي في نهاية المطاف وسألتقي بها كثيرًا بطبيعة الحال.. أنت تعرف بعض الأقارب الذين يستغلون أي خلاف في المستقبل لكشف أسرارك وفضحك أمام الجميع.. أريد شخصًا أعرف أنني لن أراه بعد اللقاء الذي سيكون الأول والأخير بيننا.. ويبدو أنك ستكون هذا الشخص إذا سمحت لي.

ابتسمت وأنا أشير لها بيدي أن تتحدث.. فشبكّت أصابع يديها ببعضهما بطريقة لا تفعلها الأنثى كثيرًا.. لكن هذا زادها جمالاً.. ثم سألَتني:

- من أين أبدأ؟!.

مططت شفتي لأقول:

- أخبريني باسم أناديك به.. ويفضّل أن أعرف عمرك أيضًا.

هزت رأسها إيجابًا لتقول:

- اسمي (كوثر).. وعمري 25 سنة يا دكتور.

قلت بعد أن أخذت رشفة أخيرة من قهوتي:

- حسنًا يا (كوثر).. لكِ مطلق الحرية في الحديث.. تفضلي.

يجب أن أذكر هنا أن الصفة التي وجدتها مشتركة عند معظم الفتيات -مع كل احترامي للجنس اللطيف- هي كثرة الكلام والدخول في تفاصيل صغيرة لا ضرورة لها.. لكن (كوثر) لم تكن كذلك أبدًا.. إنها مختلفة.. وكلماتها رصينة للغاية وموزونة.. إلى درجة أنني لم أتعب كثيرًا في صياغة كلامها كي أنقله لكم.

المهم أنها بدأت تتحدث بصوتها الهادئ قائلة:

- يجب أن تعلم أولاً أنني لم أكن بالثقة التي تراني عليها الآن.. لكن المواقف والتجارب تغيّر الإنسان.. فما مررت به جعلني أكثر قوة وأكثر ثقة بنفسي.. وربما تلاحظ هذه الثقة من نظراتي وطريقة كلامي.

لم أعلّق على كلامها.. وإنما تركتها تكمل لتقول:

- لا شك أن قصتي تبدأ من زواجي من ذلك الشاب منذ حوالي 4

سنوات.. إنه من عائلة معروفة بالثراء ولها مكانة اجتماعية مرموقة.. أما أنا -بصراحة- فأنتمي إلى أسرة عادية جدًا ولا يميزني سوى جمالي الذي أدركه جيدًا وأفعل كل ما بوسعي لأحافظ عليه.. ولا أظنك بحاجة لمعرفة طريقة لقائي بذلك الشاب وكيف طلب يدي، كونها تفاصيل لن تهمك.. ولن أتحدث عن قلبي الذي تراقص فرحًا عندما علمت بمدى رغبته وجديته للارتباط بي.. فمَن التي ترفض شابًا من عائلة كهذه؟!.. ومَن التي ترفض الدخول إلى عالم الثراء بهذه السهولة؟!.. لذا أستطيع أن أقول أنّ زواجنا قد تم بلا مشاكل.

قلت معترضًا:

- لم أسمع منك أي كلمة عن صفات زوجك سوى عائلته المرموقة وثرائه.. لا أظن أن هذا كافٍ للزواج.. ولا شك أنك تعرفين ذلك جيدًا.

قالت مؤمّنة على كلامي:

- وكأنك تقرأ أفكاري.. فهناك قرارات مصيرية علينا دراستها بدقة كونها كفيلة بتغيير مستقبلنا بالكامل.. لكن وقتها لم أكن أملك الخبرة لذلك.. خاصة مع بريق المال الذي أعمى بصيرتي.. كما أنني فتاة مُدلّلة لم أتحمل أي مسؤولية حقيقية من قبل سوى دراستي.. واكتفيت بأمور بسيطة في فترة الخطوبة ظننتها كافية كي أحكم على شخصية زوجي.. إذ لاحظت أنه لا يلتفت إلى الفتيات الجميلات اللاتي نصادفهن أثناء خروجنا.. وبدا لي شخصًا هادئًا يمنح من حوله انطباعًا بالحكمة والثقة.. رغم أنه لم يُكمل دراسته واكتفى بشهادة الثانوية العامة.. على عكسي أنا التي حصلت على شهادة جامعية من كلية الآداب.

كنت أستمع إليها باهتمام وهي تروي قصتها بطريقة لبقَة تشد الانتباه.. فتَرَكْتها تتحدث كما تشاء لتكمل:

- لقد عشت معه أجمل أيامي في بداية زواجنا.. حيث أغرقني بالهدايا واشترى لي سيارة فاخرة لا يقدر على ثمنها سوى الأثرياء.. وجعلني أعيش حياة لم أكن أعرفها من قبل.. وبناءً على طلبه.. تركت وظيفتي في أحد البنوك بعد أن أكّد لي أن بإمكاني مساعدته في إدارة شركاته لاحقًا إن شعرت يومًا بالملل.. كما ترى.. كل شيء بدا مثاليًا.. إلى أن اكتشفت تلك المصيبة.. شيء لا يُصدّق ولا يمكن أن أتوقّعه أبدًا.. ولا حتى في أسوأ كوابيسي.

رمَيت كوب القهوة الورَقي في سلة المهملات وأنا ما زلت أنظر إليها وأسمعها تقول:

- فبعد شهور قليلة من زواجنا.. وفي ليلة بدت عادية مثل كل الليالي السابقة.. كنت نائمة في غرفتي في فيلتنا الفاخرة.. حيث أبلغني زوجي أنه في بيت شقيقته وسيتأخر قليلاً ولا داعي أن أنتظره.. خاصة وأنني اعتدت النوم مبكرًا منذ طفولتي ولا أحب السهر.. لذا ذهبت إلى الفراش وسرعان ما غرقْت في سبات هادئ عميق وسط ظلام الغرفة وجهاز التكييف البارد الذي جعل من فراشي حضنًا دافئًا يستحيل تركه.. ثم.. عدت إلى عالم الواقع سريعًا وفي جزء من الثانية.. لأنني شعرت بفوهة باردة على جبيني أيقظتني مباشرة.. لأنظر أمامي ويكاد قلبي أن يقفز رعبًا.. فقد كان يقف شخصًا متشحًا بالسواد ويغطّي وجهه بقناع صوفي كالذي يرتديه شراق البنوك.. ويده الممسكة بالمسدس مصوّبة تجاهي.

قلت مستغربًا:

- لص في غرفة نومك؟!.

فوجئت بها تقول:

- ليته كان لصًا يا دكتور.. الأمر أكبر من ذلك بكثير.. في البداية خارت قواي وبت عاجزة حتى عن الصراخ من شدة الخوف.. ثم سمعت الرجل يقول بصوت خافت وعينين صارمتين للغاية لم أرهما جيدًا في هذا الظلام لكني شعرت بهما: ((أريد كل ما تحتفظين به من مجوهرات.. ولو صرختِ أو أبديتِ أي مقاومة.. سأقتلك مباشرة)).. حسنًا.. أنا لم أعرف شعور الارتجاف في حياتي سوى في تلك اللحظة.. لأنني كنت أرتجف بشكل ملحوظ.. حتى وأنا أنهض باحثة عن مفتاح الإضاءة الذي ضغطت عليه بناء على طلب اللص.. لأرى عينيه الصارمتين كما توقعتهما.. فنهضت من الفراش وأنا أتوسل إليه ألاّ يؤذيني وسأتركه يأخذ ما يشاء.. لكني فوجئت بضحكة ساخرة طويلة أطلقها اللص الذي نزع عن نفسه القناع.. ليتضح أنه زوجي نفسه!!.

أصابني الذهول من كلامها.. فسألتها مستغربًا:

- ولماذا فعل ذلك؟!.

أسعدها تجاوبي مع قصتها بهذه الطريقة.. لتكمل من دون الرد على سؤالي:

- وقفت في مكاني مشدوهة عاجزة عن تصديق ما يحدث.. في حين راح زوجي يقهقه ضاحكًا ساخرًا من ردود أفعالي وحالة الرعب

التي عشتها.. مؤكدًا أنه يحب المقالب كثيرًا.. وقد شعر برغبة قوية في تنفيذ هذا المقلب ضدي.. تصور أنني لم أستوعب كلامه ولا حتى الموقف بأكمله.. إلى درجة أن زوجي أعاد ما قاله لي للمرة الثانية.. وعندما اقترب مني ليحتضنني وهو يطلب مني أن آخذ الأمر بروح رياضية.. انفجرت غاضبة ودفعته بقسوة وأنا أتهمه بالجنون.. وهو ما زال يضحك معتذرًا وكأنه لم يأخذ غضبي بجدية.. حتى أنني ظللت غاضبة لعدة أيام لم أتحدث خلالها معه إطلاقًا.. قبل أن أقبل اعتذاره أخيرًا وهو يؤكد ويعدني أنه لن يعود لفعل ذلك مرة أخرى.

قلت وما زالت نبرة الذهول واضحة في صوتي:

- تصرف غريب ينم عن عدم نضج.. بل هو أقرب إلى تصرفات الأطفال.. ولا أصدق أنه يأتي من زوج تجاه زوجته.

ردّت بحنق:

- وليته توقف عن ذلك.. فقد قام بتنفيذ مقلب آخر رغم كل وعوده.. عندما اتصل بي ذات يوم وهو في شركته.. ليطلب مني الذهاب إلى غرفة المكتب كي أفتح ثلاجته الصغيرة هناك وأتأكد له من تاريخ انتهاء صلاحية علبة أقراص المكملات الغذائية التي يحرص على أخذها باستمرار.. وقد نفذت كلامه بحسن نية.. لأتجه إلى غرفة مكتبه وأنا ما زلت أتحدث معه عن أمور جانبية.. لكن عندما فتحت الثلاجة.. وجدت رأس زوجي في جرّة زجاجية تسبح في محلول ما!!.. بالطبع لم يكن هذا رأسه فعليًا.. وإنما قطعة من الصلصال صُنعت باحترافية.. ولك أيضًا أن تتخيل الصرخة والشهقة التي خرجت مني.. لأسمع زوجي بضحكته الحقيرة الساخرة وهو

يعتذر مني على هذا المقلب ويقول كلامًا يعادل (تعيشين وتأخذين غيرها).

سكتت للحظة بأنفاس غاضبة.. ثم قالت مستدركة:

- ولا أنسى تلك المرّة التي استيقظ فيها في وقت متأخر من الليل.. فقط كي يذهب ويملأ وجهه بمساحيق تظهره كالمهرجين القتلة والأشرار الذين نراهم في السينما.. ثم عاد إلى غرفة النوم ووقف إلى جانب السرير حيث كنت نائمة لا أعرف شيئًا عن نواياه.. وقام بتشغيل إضاءة هاتفه ليضعها على وجهه وهو يهمس بأصوات مرعبة إلى أن استيقظت.. تخيّل الوقت الذي يضيعه في كل مرة.. فقط من أجل ثوانٍ قليلة يستمتع فيها بإخافتي.. وكعادته.. في كل مرة يقسم ويقسم ويعدني أنها الأخيرة.

ظللت صامتًا أستمع إليها بدهشة.. ثم تنحنحت لأستعيد توازني وأدلي برأيي قائلاً:

- إنّ تكرار هذه المقالب القاسية يكشف عن اضطراب سلوكي واضح(22).. لا شك أنّ زوجك بحاجة إلى علاج نفسي.

ردّت بلا اهتمام لتشخيصي لحالة زوجها النفسية:

- لطالما كنت ضد برامج المقالب التي تعرضها بعض القنوات.. تلك التي تصنع لحظات من الرعب الحقيقي للضحية.. ثم تنهي كل هذا بضحكة ثقيلة واعتراف غبي بأنّ ما حدث لم يكن سوى مقلب.

ثم أكملت (كوثر) كلامها بما يؤكد أن هناك المزيد من هذه المقالب المرعبة.. لتقول:

- بعد تنفيذ كل مقلب.. كنت أبكي بطريقة هستيرية وأتهمه بأنه إنسان غير طبيعي وبلا قلب كي يستمتع بإخافة زوجته هكذا.. وهو يظل يضحك بطريقة مستفزة -وكأن أحاسيسه قد تبلّدت- مؤكدًا لي أن المقالب هي عشقه ولا يستطيع مقاومتها مهما وعدني بعدم تكرارها.. تخيل أنه وضع مكبّر صوت صغير ذات مرة تحت السرير.. وأوصله بهاتفه من خلال (Bluetooth).. ليقوم بعدها بتشغيل أصوات مرعبة.. كالهمسات.. أو الكلمات المتقطعة.. أو أصوات البكاء.. ولا داعي أن أصف لك مشاعري في كل مرة أقع فيها ضحية مقالبه التي ينفذ معظمها أثناء نومي.. لأن وقع المفاجأة يكون أكبر كما يقول.. وهذا ما جعلني -مع مرور الأيام- أنام بعين نصف مغمضة.. وأنت تعرف كيف يكون حال الإنسان عندما يعيش حياة متوترة كهذه.. خاصة في أوقات نومه التي يفترض أن تكون أكثر أوقات الراحة والهدوء.

قلت بأسف:

- الأمر شبيه بمن يتعاطى المخدرات.. فبعد كل جرعة، يقسم لنفسه أنها ستكون الأخيرة.. لكنه يعجز عن مقاومة الإغراء.. إلى أن يقع في فخ الإدمان.. ومن الواضح أن زوجك أدمن هذه المقالب منذ مدة طويلة وأصبحت جزءًا من سلوكياته.

قالت وهي تنظر إلى النافذة:

- المشكلة يا دكتور أنه يترك بين مقالبه أيامًا -وأحيانًا أسابيع- حتى يعود إليّ اطمئناني وأبدأ بنسيان المقلب السابق وأعود إلى حياتي الطبيعية.. لأن هذا يجعل تأثير المقلب أقوى كما قال زوجي

بنفسه أيضًا.. ونتيجة لذلك.. انتبهت مع مرور الأيام إلى أنني أنهكت نفسيًا.. ولم أعد أحظى بالاطمئنان متوقّعة مقلبًا جديدًا في أي لحظة.. وبات التوتر والقلق يسيطران عليّ بصورة دائمة تقريبًا.. مما جعلني شديدة العصبية وعلى أتفه الأمور.. كما بدأت أواجه اضطرابات في النوم ساهمت بانحدار حالتي النفسية أكثر.

قلت مستنكرًا لما وصلت إليه الأمور في حياتها الزوجية:

- لكن توجد حلول كثيرة لمشكلة كهذه يا (كوثر).. أبسطها طلب التدخل من أفراد عائلتك أو حتى عائلته.. أو على الأقل تقديم النصح له باللجوء إلى العلاج النفسي.. أو حتى طلَب الطلاق مثلاً لو باتت الحياة معه مُرهِقة نفسيًا إلى هذا الحد.

أجابت بتردد:

- لم تكن الأمور بهذه البساطة يا دكتور.. لأن زوجي كان يبدو مثاليًا أمام عائلتي وعائلته.. ويتفقون كلهم على أنه لبق ومحب وكريم.. ورجل أعمال ناجح يحظى بسمعة ذهبية لا تشوبها شائبة.. ولم يكن أحد ليصدق لو أخبرتهم أن زوجي يفعل أشياء طفولية غبية كهذه.. خاصة وأنه كتوم بطبعه ولا أحد يعرف عن أفعاله هذه وعشقه للمقالب سوى قلة قليلة من أصدقائه الذين لم ألتقِ بهم يومًا.. وقد رفض الطلاق تمامًا عندما صارحته بذلك.. فأنا فرصة رائعة بالنسبة له لتنفيذ مقالبه.. لم يقلها صراحة لكن هذا ما بدا لي.. ولم يكن بإمكاني اللجوء إلى القضاء لطلب الطلاق.. لأنني لا أملك أي دليل على مقالب زوجي كونها لا تترك أثرًا يُثبتها.. لا كدمات.. لا تسجيلات.. وبذلك لن يرى القاضي أن طلبي مُستحق.. أما بخصوص

العلاج النفسي.. فقد اقترحته على زوجي بالفعل.. لكنه لم يأخذه على محمل الجد وأصر على أنه لا يعاني أي مشاكل نفسية.

قلت بإصرار:

- إذًا يتبقى اقتراحي الأخير.. تهديده بإبلاغ عائلته -أو حتى عائلتك- بأفعاله كي يتخذوا موقفًا واضحًا وصارمًا تجاهه.. سيصدقونكِ في النهاية لو واجهتِ زوجكِ أمامهم.. فمن الصعب حينها أن ينكر.

ردّت معترضة:

- لقد لجأت إلى التهديد بإبلاغ عائلته بالفعل.. فاعتبر الأمر إهانة بالغة لرجولته.. وردّ عليّ بصفعة أطارت صوابي.. مهددًا أنه سينكر كل شيء وأنني سأندم طوال حياتي لو أفشيت لأحد بأسرارنا الزوجية -كما وصفها- وأنه لن يقبل أبدًا أن أقوم أنا أو أي شخص آخر بتشويه سمعته.. وقد رفضت إشراك والديّ لكبر سنّهما.. ولم أشرك أشقائي خوفًا من تهديداته بإيذائهم عبر علاقاته القوية.. مذكّرًا باستمرار أنه لن يكون لي خط رجعة لو تحدثت عنه بالسوء أمام أحد.. لذا.. ظللت أعيش على أمل أن يتغير زوجي من تلقاء نفسه مع مرور الوقت ولا أعلم كيف سيحدث ذلك.. محاوِلة التركيز على الاستمتاع بالرفاهية التي أعيشها بسببه.. إلاّ أنني فشلت.. ففي غياب الأمان.. تفقد الاهتمام بكل ملذات الحياة.

لم يعجبني استسلامها بهذه الصورة.. فقلت بحزم:

- لا بد أن تواجهي هذه الطريقة الحقيرة في تعامله معك.. نحن

لسنا في غابة كي يقوم بتهديدك وتهديد أفراد عائلتك فقط لأنه ثري.. عليك بالبحث عن وسيلة إثبات مقالبه الحقيرة هذه.. ومن ثم اللجوء إلى المحكمة وطلب الطلاق إن رفض هو تطليقك بالحسنى.

ردت بملل وكأنها فكّرت في ذلك مرارًا بالفعل:

- صدقني.. لم تكن هناك وسيلة لإثبات مقالبه أو سوء معاملته.. فقد بات يراقبني ويفتش في هاتفي.. ويتأكد من عدم وجود أجهزة تسجيل أو تصوير عندما ينتهي من مقالبه.. إن زوجي شديد الحرص على ألاّ تخرج أي أسرار تتعلق بحياته الخاصة كما هو الحال مع معظم الأثرياء.. إلى أن وصل به الأمر ذات مرة إلى حبسي في غرفتي وانتزاع هاتفي.. بعد أن صفعني بقسوة وجعل الدم ينزف من أنفي إثر شجاري معه حول آخر مقالبه.. فقد كان شديد الاستياء لأنني أفسدت عليه متعته.. تخيّل هذا.. مما دفعني إلى حالة لا توصف من الغضب والقهر.

قلت باشمئزاز مفسّرًا تصرُّفه الحقير:

- بالطبع قام بحبسك وأخذ هاتفك خشية أن تتواصلي مع الشرطة وتبلغي عنه.. فقد كانت آثار العنف واضحة على ملامحك وبإمكانك استخدامها ضده كدليل.. إنه جبان -كما توقعت- رغم كل تهديداته.

أومأت برأسها موافِقة.. لتقول:

- إنه يطلب مني -وبكل بساطة- أن أحتمل مقالبه هذه وآخذها بروح رياضية.. وستسير حياتنا بهدوء وبلا مشاكل.. والويل -كل الويل- لو فكّرت بفضحه أمام أحد.. خصوصًا أفراد عائلته أو

عائلتي.. ولا أنكر أنني فكرّت جديًا بعمل مقالب شبيهة لعلّه يتعظ ويعلم أنني قادرة أيضًا على إخافته.. لكّني خشيت كثيرًا من ردود أفعاله.. ثم أي حياة زوجية هذه التي ستكون قائمة على الخوف والمقالب وكسر شوكة الآخر؟!.

سكتنا بعض الوقت.. ثم قالت بطريقة حازمة لمن تَعلّم درسًا قاسيًا:

- لقد أدركت متأخرة أن مقولة (الزواج قسمة ونصيب) التي نسمعها باستمرار هي أكبر كذبة يعيشها مجتمعنا.. لأن الزواج قرار واختيار ورغبة.. وليس بطاقة (امسح واربح).. لقد اخترت هذا الرجل بنفسي من دون دراسة.. واكتفيت فقط بثرائه على أنه سيمحو كل عيوبه الأخرى.. لأكتشف أنه إنسان غير مستقر نفسيًا.

سألتها وقد ظننت أن قصتها انتهت عند هذا الحد:

- هذه مشكلة اجتماعية لا أملك حلاً لها مع الأسف.. إنني طبيب نفسي في النهاية.. وكل ما أستطيع فعله هو منحك وصفة طبية تهدئ من أعصابك.. لكن -وأصدقك القول- من العسير أن يكون للأدوية التأثير المطلوب مع وجود مصدر القلق والتوتر (زوجك) بجانبك طوال الوقت.. والذي يجعلك في حالة ترقب وأنت تنتظرين المقلب القادم.. كحال من يشاهد فيلمًا مرعبًا ويترقّب لحظات الرعب المباغت (Jump Scares).. الفارق أن مدة الفيلم لا تتجاوز الساعتين وتشاهديه برغبتك واختيارك.

ردّت مؤمّنة على كلامي:

- أنت تعلم يا دكتور أنّ تراكم الضغوط يُبقي المشاعر في حالة ترقُّب وتوجس دائمين.. ويُنهك الجهاز العصبي.. مما ينعكس سلبًا على (الحُصين) و(لوزة الدماغ)(23).. وهذا بدوره يؤثّر بشكل سلبي على الذاكرة والتعلم وتنظيم العواطف.. وهو ما يفسر معاناة الكثيرين من صعوبات في التركيز واسترجاع المعلومات بعد فترات طويلة من التوتر الشديد المستمر.

سألتها مبتسمًا لثقافتها الواضحة:

- كيف علمتِ بكل هذا؟!.

أجابت بحنق:

- أخبرتك أنّ إحدى قريباتي طبيبة نفسية.. وقد تحدثت معها حول الأمر.. فأكّدَت لي بنفسها خطورة بقائي مع زوج كهذا على صحتي النفسية.. وأن المقالب التي يمارسها ضدي -إلى جانب سلوكياته العنيفة- تدل على أنه يعاني (اضطراب الشخصية النرجسية)(24).

قلت باستغراب:

- مهلاً.. هناك تناقض في كلامك.. لقد ذكرتِ في البداية أنكِ لم تخبري قريبتك الطبيبة النفسية بمشكلتك.. وأنّ لا أحد من عائلتك أو عائلة زوجك يعرف شيئًا عن الأمر.

أجابت بغموض:

- أنا لم أخبر قريبتي بكل التفاصيل.. وستفهم ما أعنيه في النهاية.. فالقصة لم تنتهِ بعد.

وكأن سؤالي شتّت أفكارها.. إذ أغمضَت عينيها قليلاً.. ثم نظرت إليّ للحظة.. وأكملَت:

- وبسبب كلام قريبتي الطبيبة النفسية.. بدأت مع مرور الأيام أفهم شخصية زوجي.. وانتبَهت إلى أنه لا يستطيع أبدًا القيام بتلك المقالب تجاه شقيقاته مثلاً.. فجميعهن متزوجات.. وأزواجهن من نفس الطبقة الثرية التي ينتمي لها زوجي.. وهذا ما دفعه إلى استغلال وجودي كشخص ضعيف يعيش معه في نفس البيت ليُفرغ أمامي كل سلوكياته المضطربة.. وبتجسيد واضح للشخصية النرجسية التي تدوس على من هُم أقل منها.. وتنكمش أمام من تراهم أفضل منها.. وقد توسلت إليه كثيرًا وتحدثت معه بالحسنى أكثر من مرة كي يتوقف عن مقالبه.. أو يطلّقني.. لكنه ظل يرفض رفضًا قاطعًا.. مستمرًا في مقالبه التي كان يتفنن في تنفيذها بعيدًا عن أعين الخدم.. وهذا ما جعلني أحاول التعامل معه وفق شخصيته النرجسية هذه من دون أن يدرك.. إذ اعتمدت على توصيات قريبتي.. ورحت أتشبث بكبريائي وأحافظ على مظهري وجمالي.. محاوِلة ألّا أسمح له بأن يرى وقع مقالبه عليّ.. لأن الإنسان النرجسي لا يحترمك مع الأسف.. فهو إما أن يخيفك.. أو يخاف منك.. ومن المستحيل أن أجعله يخاف مني إلاّ بواسطة كبريائي وسطوة أنوثتي.. لقد كان هذا سلاحي الوحيد.

سألتها بفضول:

- وماذا كانت النتيجة؟!.

لم تجب على سؤالي.. وإنما قالت فجأة بصوت خافت وكأنها

ستفشي سرًا خطيرًا:

- منذ بضعة شهور حدث أهم ما بقصتي يا دكتور.. فقد اتفق زوجي مع شقيقاته وأزواجهن على قضاء أسبوع في شاليه العائلة.. مستغلين جزءًا من الإجازة الصيفية كما اعتادوا بين حين وآخر.. حيث أرادوها للكبار فقط.. تاركين الأطفال في بيوتهم.. وبالمناسبة.. أنا أحب شقيقاته وأفراد عائلته كثيرًا وعلاقتي بهم طيبة للغاية.. كما أنّ زوجي يظهر أمامهم بشخصية أخرى تختلف تمامًا عن التي أراها في البيت.

تنحنحت قليلاً.. وأطلقت تنهيدة حارة لتكمل:

- كنت أجلس بين أفراد عائلته في الشاليه وعقلي يفكر بكيفية إصلاح حياتي وكم التأثير الذي تسبب به زوجي على حالتي النفسية.. حتى بدوت شاردة مهمومة أمام الجميع الذين ظنّوا أنني على خلاف معه.. إلى أن شعرت بأن جفوني ثقلت مع تأخر الوقت وتجاوز الساعة الحادية عشرة مساءً.. وهو وقت متأخر بالفعل بالنسبة لفتاة اعتادت النوم مبكرًا طوال حياتها تقريبًا كما ذكرت في بداية قصتي.. فنهضت من مكاني مستأذنة من الجميع كي أذهب إلى الفراش.. على عكس زوجي وأفراد عائلته الذين بدوا وكأنهم سيقضون سهرة طويلة معًا.

سكتَت وكأنها تفكر بأمر ما.. ثم تداركت سكوتها الطويل هذا وقالت بغموض:

- دكتور.. ما مررت به في تلك الليلة كان مرعبًا مرهقًا للقلب والعقل والجسد بأكمله.. ولا أبالغ لو قلت إنها كانت أهم ليلة في حياتي..

فقد استيقظت بعد نحو ساعتين غارقة في العرق.. لأنتبه إلى انقطاع التيار الكهربائي وتوقّف جهاز التكييف المركزي عن العمل.. عندها أخذت أتلفّت حولي باحثة عن زوجي.. لكنني لم أجِده.. فأمسكت بهاتفي مستعينة بضوئه وسط الظلام الدامس.. ونهضت من فراشي لأرتدي شيئًا مناسبًا قبل أن أغادر الغرفة.. أردت أن أفهم سبب انقطاع التيار الكهربائي وذلك السكون الغريب الذي خيّم على الشاليه كله.. لأن المكان بدا صامتًا على نحو غير طبيعي.. خاصة أن الوقت ما زال مبكرًا لينام الجميع.. وحتى لو خلدوا للنوم.. كيف لم يُوقظهم هذا الحر الخانق؟!.

ما زلت أرى بعض النقاط المفقودة والمتناقضة في قصتها.. لكني ظللت صامتًا منصتًا باهتمام.. لتكمل هي:

- ورغم أن الشاليه ليس غريبًا عليّ.. فأنا أزوره مع عائلة زوجي مرتين أو أكثر كل عام.. إلاّ أن أجواءه بدت مخيفة على نحو غير مسبوق في تلك الليلة.. إذ كانت المرة الأولى التي يخيّم على المكان هذا الصمت المطبق والظلام الدامس.. من دون أن يُسمع صوت لأي أحد.. مما جعلني أسير بين الممرات وأطرق أبواب الغرف واحدة تلو الأخرى وأنا أعتذر عن إزعاجهم.. وأسألهم إن كانوا قد لاحظوا انقطاع التيار الكهربائي وحرارة الجو الخانقة.. لكنني فوجئت بأن الغرف جميعها خالية.. ولا يُعقل أن يكونوا جميعًا في الطابق السفلي من دون أن يتسرب أي صوت.. عندها تسلل الخوف إلى قلبي.. فنزلت إلى الطابق الأرضي بقلق متزايد.. لأجد نفسي وحيدة في صالة الشاليه الكبيرة.. محاطة بالظلام الدامس.. أين ذهب الجميع؟!.. هل ذهبوا للجلوس عند البحر؟!.. لا أظن.. إنّ الباب

الزجاجي المؤدي إلى شاطئ البحر مغلق ومقفل من الداخل.. وقد استبعدت أن يكون كل هذا مجرد مقلب من زوجي.. فهو لم يجرؤ يومًا على تنفيذ مقالبه بحضور أو عِلم أحد كما أخبرتك.

استحوذ كلامها على كل اهتمامي متوقعًا مفاجأة مدوّية.. فأشرت لها بيدي مستعجلاً أن تكمل.. لتقول:

- وأمام صمتي ووقوفي مترددة وسط المكان.. رنّ هاتفي.. والمتصل رقم أرضي غير مسجل في ذاكرة الهاتف.. فأجبت بسرعة.. وإذا بشقيقة زوجي تتحدث بصوت مضطرب وتخبرني أنهم محتجَزين جميعًا في السرداب من قِبل شخص مجهول.. وقد اكتشف أن أحد الأفراد (أنا) غائبًا عنهم كوني ذهبت إلى الفراش في وقت مبكر نسبيًا.. مؤكدة كذلك ألاّ أتصل بالشرطة وإلاّ سندفع الثمن غاليًا على حد قولها.. لتنهي المكالمة قبل أن تسمع ردّي.. أتذكّر أن زوجي أخبرني ذات مرة بوجود خصوم له ولعائلته في عالم التجارة.. وأن هؤلاء الخصوم يبحثون دومًا عن طُرق لتدميره.. فهل هو وعائلته رهائن عند أحد هؤلاء الخصوم؟!.. وماذا سيحدث لو نزلت وانضممت إليهم؟!.. هل سنموت جميعًا؟!.. وفجأة.. تذكرت أمرًا هامًا.. المسدس.. نعم.. إن زوجي يمتلك مسدّسًا مرخصًا يحتفظ به هنا في غرفة النوم.. ويستخدمه في الرماية وإصابة بعض الأهداف القريبة.. إنها هواية يحبها ويأتي إلى الشاليه من أجلها أحيانًا.. لماذا لا آخذ المسدس وأذهب به إلى السرداب؟!.. صحيح أنني لم أمسك بمسدس من قبل.. لكني أوهمت نفسي أنني قادرة على استخدامه.

وكأن الأحداث التالية واضحة ومن السهل تخمينها.. حتى أنني قلت لـ(كوثر):

- لن يكون من العدل أن أجلس هنا بأمان وألومك بأنك كان يجب أن تتوقعي ما سيحدث.. فالعقلانية تغيب وسط الخوف وتلك اللحظات المتوترة التي مررتِ بها.. لأن كل كلامك يوحي بمقلب جديد أشرك فيه زوجك أفراد عائلته لسبب ما.. ربما مناسبة خاصة.. عيد ميلادك مثلاً.

وضعت كف يدها أمامي وكأنها تريد منعي من الحديث وإفساح المجال لها كي تكمل.. فسكتُّ احترامًا لرغبتها.. لتستطرد قائلة:

- أحضرت المسدس.. وتأكدت من إزالة مفتاح الأمان كما رأيت زوجي يفعل أكثر من مرة.. لكنَ يدي راحت ترتعش بوضوح.. فاضطررت إلى الإمساك به بكلتا يدي.. مقلدة رجال الشرطة في الأفلام وهم يقتحمون بيوت المجرمين.. وبدأت أنزل إلى السرداب.. فإذا بأصوات الهمهمة والأنفاس المتقطعة تصلني منه.. لأصل أخيرًا إلى الباب وأمسك بالمقبض.. وما إن فتحته.. حتى اصطدمت بظلام دامس وصرخة واحدة عالية جدًا.. لم تكن صرخة.. وإنما كانت كلمة (Surprise) أطلقها الجميع في اللحظة ذاتها التي انطلقت فيها الأضواء لتغمر المكان.. دكتور.. لقد حدث كل هذا في لحظة وسرعة لم أستوعب فيها الموقف.. لذا فقدت السيطرة على الزناد وأطلقت رصاصة من المسدس.

هذا ما توقعته بالضبط.. لكني لم أعلق على كلامها.. وإنما تركتها تكمل بحرارة:

- كانت رصاصة واحدة يا دكتور اتجهت مباشرة إلى صدر زوجي الذي يقف في المنتصف أمام الجميع.. وقد قاموا بتزيين الغرفة بالكامل وبطريقة تنم عن البذخ والذوق الرفيع معًا.. وهناك لافتة ضخمة تحتل الجدار خلفهم كُتب عليها ((عيد زواج سعيد يا كوثر)).. ففي تجمّع عائلي سابق.. أخبزت شقيقات زوجي أننا لم نحتفل بهذه المناسبة من قبل.. لذا خططّن لإعداد هذه المفاجأة من أجل إسعادي.. غير أنّ ما كان يفترض أن يكون لحظة فرح.. تحول إلى كارثة بكل معنى الكلمة.. بعدما انطلقت رصاصة من مسدسي لتخترق صدر زوجي أمام أفراد عائلته الذين ضُعقوا من هول الموقف.. أما أنا.. فرميت المسدس أرضًا.. وفي طرفة عين انتقلت من فتاة ترتجف خوفًا.. إلى تمثال جامد بلا حراك.

كما ذكرت.. لقد توقعت نهاية كهذه رغم قسوتها.. فمن يمارس المقالب باستمرار.. ستنقلب الظروف ضده يومًا ما.. لذا قلت بأسف:

- لا شك أن أفراد عائلته وجّهوا إليكِ اللوم لحظتها وكاد بعضهم أن يفتك بك.. أما أنتِ فأُصبتِ بما هو أقرب إلى الانهيار العصبي.. ووجهتِ لهم اللوم بالمقابل لأنهم صنعوا هذا المقلب الثقيل.. ولا أعرف في الواقع من ألوم.. أفراد عائلته الذين لا يعرفون شيئًا عن عشق زوجك للمقالب وتنفيذها ضدك طوال الوقت؟!.. أم أنتِ التي كتمتِ المواقف المرعبة التي عشتِها معه ولم تخبري بها أحدًا خوفًا من ردة فعله؟!.. ربما لا أحدًا يُلام هنا.. وإنما هو سوء الحظ فقط الذي أدى إلى هذا الموقف الكارثي.

هزت رأسها وكأن ما أقوله بديهيًا للغاية ولا يحتاج إلى ذكاء.. ثم

قالت:

- لقد قامت عائلة زوجي بإحاطة القضية بتعتيم إعلامي كامل كي لا يخرج شيئًا إلى وسائل الإعلام ويسيء إليهم.. أما أنا فقد تم القبض عليّ بعد أقل من ساعة لمعرفة ملابسات القضية.. إلى أن أطلقوا سراحي بعد أيام قليلة.. حيث أثبتت التحقيقات -وبشهادة عائلة زوجي نفسها- أن ما حدث كان نتيجة محاولتي الدفاع عن نفسي.. بعد أن أوهموني بوجود مجرم بينهم.. لأنال لاحقًا البراءة كاملة.. وبالطبع فإن هذا لم يحرمني من أن أرث جزءًا من أموال زوجي.. إذ لم أخضع للقاعدة القانونية التي تقول: ((القاتل لا يرث ضحيته)).. لأن كل ما حدث عبارة عن سوء فهم لا أُلام عليه.

لم أسألها عن مشاعرها بموت زوجها بهذه الطريقة وتأثير ذلك على حالتها النفسية كونها قتلَته بنفسها -وإن كان هذا عن طريق الخطأ- لكن.. تذكّرت فجأة بعض التناقضات في قصتها.. فقلت والشكوك تملأ رأسي:

- مهلاً يا (كوثر).. أنتِ أخبرت قريبتك الطبيبة النفسية بموضوع مقالب زوجك.. كما أن قتلك لزوجك وقَع أمام عدد كبير من الشهود وكلهم من أفراد عائلته.. وقد وصل الأمر إلى النيابة والقضاء.. أي أن القضية لم تعُد سرًا.. في حين أتذكّر أنكِ قلتِ في البداية أن هناك سرًا يقيّد أنفاسك على حد وصفك.. فأين هو السر بالضبط؟!.. إن قصتك مكشوفة بأكملها للجميع.

هنا بدا التردد الواضح على ملامحها.. وكأنها فقدت كل الثقة التي ظهرت عليها قبل قليل.. إذ نظرَت إليّ بعض الوقت بتردد.. ثم التفَتَت

حولها كي تتأكد أن لا أحد يستمع إلينا.. لتقول بصوت مرتجف:

- كلامك صحيح.. وسأخبرك بالسر يا دكتور.. السر الذي جئت إليك من أجله.. ففي الحقيقة أنني كنت أعرف أن زوجي وأفراد عائلته يخططون لهذه المفاجأة من أجلي.. لأنني كنت قد سمعته قبل أيام قليلة وهو يتحدث هاتفيًا مع إحدى شقيقاته التي طلبَت منه مساعدتها في تجهيز المفاجأة.. والخطة التي سيتّبعونها لاستدراجي إلى السرداب.. ومع ذلك.. ذهبت معه إلى الشاليه متظاهرة بالجهل تقديرًا لعائلته.. حيث انتابتني الفكرة ليلتها أثناء وجودي بين أفراد عائلته وقبل ذهابي إلى النوم.. أن أستغل المفاجأة وأقتل زوجي.. واثقة أنها ستكون أسهل جريمة قتل في التاريخ.. وسأخرج منها بريئة من دون أي مشاكل وبوجود شهود.. جميعهم أفراد عائلته.. حيث سيؤكدون في التحقيقات أنني قتلت زوجي بالخطأ.. خاصة وأن أحدًا منهم لا يعرف بمشاكلي ومعاناتي معه!!.

كانت الصدمة مهولة بِحق.. ولم تخطر في ذهني للحظة.. فتسارعَت أنفاسي ونبضات قلبي وقد نسيت وقاري كطبيب وأنا أردد بذهول:

- يا إلهي!!.. يا إلهي!!.. ما هذا الدهاء المرعب؟!.

قالت (كوثر) محذرة:

- تذكّر أنك لن تستطيع إبلاغ الشرطة.. لأنني -ببساطة- سأنكر كل كلامي.. ولن تجد دليلاً واحدًا ضدي.. لقد قتلْت زوجي وانتهى الأمر.. وكل الشهود أكدوا أن القتل حدث بالخطأ بناء على ردة فعل عفوية مني بسبب تضليلي وتغييب الحقائق عني وإخافتي من قِبَلهم.. إذ

لم يتوقع أحد منهم أن أستخدم المسدس لحماية نفسي مهما كانت مخاوفي.

لم أكترث لكلامها.. وإنما سألتها وما زالت آثار المفاجأة واضحة على ملامحي:

- لكن هناك أمورًا لا أفهمها.. كيف أدركتِ أن زوجك سيقف في منتصف هذا التجمع العائلي وأن الرصاصة ستصيبه هو تحديدًا؟!.. إذ لم يكن لديك سوى جزء من الثانية كي تطلقي الرصاصة لكي توحي أنكِ فعلتِها عن غير قصد ومن شدة الخوف.

قالت وهي تطلق زفيرًا عميقًا:

- عندما سمغته وهو يتفق مع شقيقته على تفاصيل المفاجأة.. فهمت من سياق الكلام أنه سيكون واقفًا في المنتصف أمام الجميع.. إلاّ أن هذا لم يكن كافيًا بالطبع.. فقد كانت هناك فرصة لا يمكن تجاهلها أن أصيب أحدهم بالخطأ.. عندها لن أتمكن من إعادة تصويب المسدس تجاه زوجي.. وإلاّ سيكون واضحًا للجميع أنها جريمة قتل متعمّدة.. أي أنني كنت أمام فرصة واحدة فقط.. فرصة واحدة لن تتكرر.. ولا أنكر أن جزءًا كبيرًا من توتري أثناء نزولي السرداب، كان بسبب هذه النقطة التي كانت ترعبني أكثر من فكرة القتل نفسها.. لكن الحظ وقف إلى جانبي في النهاية لأحقق هدفي بنجاح.

ظللت أحدق بها بملامح مصدومة لفترة طويلة.. قبل أن تكمل (كوثر) بصوت منخفض:

- هذه هي قصتي يا دكتور.. وأنا في الواقع أشعر براحة كبيرة الآن.. إنها المرّة الأولى التي أبوح فيها بالقصة كاملة أمام أحد.. فرغم حريتي التي حصلت عليها بعد قتل زوجي.. ورغم المبلغ الهائل الذي ورثته منه.. إلاّ أن الأحداث الماضية ظلت جاثمة على صدري لغاية يومنا هذا.. وما زال المشهد يتكرر في ذاكرتي بين وقت وآخر.. ويزورني في كوابيسي.. أعترف أنني أضع ابتسامة مزيفة طوال الوقت.. وأحاول التصرّف بطريقة طبيعية أمام الجميع.. لكني مُرهَقة في داخلي وأشعر بتوتر مستمر بلا سبب.. لذا فإنني أرجوك أن تمنحني وصفة دوائية مهدئة للأعصاب.

ماذا أفعل؟!.. ليس بيدي أي شيء مع الأسف.. إذ يمكنها نفي كل قصتها لو أبلغت السلطات كما قالت بنفسها.. ثم.. سحبتني (كوثر) من أفكاري وهي تقول:

- كنت ككل النساء في مجتمعنا.. أظن أن المرأة أكثر عاطفية من الرجل وأقل عقلانية منه.. لكن هذه الحادثة جعلتني أكتشف أن لا فارق هناك بين الجنسين.. وأنه من الممكن أن يكون هناك رجل عاطفي أكثر من أي امرأة.. وامرأة عقلانية أكثر من أي رجل.. أي أنه لا توجد قاعدة عامة.

لم أرد على ملاحظتها.. وإنما وصفت لها دواء شهير مهدئ للأعصاب.. لتقول بارتياح:

- أشعر أنني أفضل حالاً بكثير، لمجرد أنني اعترفت لك بهذا السر الذي احتفظت به لنفسي طوال الشهور الماضية.. وكأنني انتزعت شوكة كانت مغروسة في قلبي.. لعل هذا الاعتراف يكون خطوتي

الأولى للتخلص من مشاعري السلبية.. على أمل أن يستكمل الدواء علاجي ويعيد إليّ هدوء أعصابي.

قالتها وهي تنهض من مكانها مودعة.. رافعة رأسها بكبرياء لافت كناية عن شعورها بالقوة.. بعد أن نفّذت خطتها بدهاء غير متوقّع يضم السذاجة والاتقان معًا.. وهما مزيجان لا يجتمعان أبدًا.. لكنهما اجتمعا هنا لأن زوجها هو من منحها كل الأدوات كي تتخلص منه.. فاستغلت نقطة ضعفه التي ظن أنها نقطة قوته.. واستغلّت اندفاعه وعدم تفكيره بنتائج مقالبه هذه.. لتوجه ضربتها أمام عدد كبير من الشهود.. وهكـذا انتفـى مجـال الاتهـام أو الشك.. أو حتى اللوم..

وفي مواقف كهذه.. أجدني دائمًا أضـع نفسي مكان بطل القصة -أو بطلَتها في حالتنا هذه- وأمارس نوعًا من التقمّص العاطفي(25) الذي لا أستطيع مقاومته.. فأتساءل: ماذا لو كنت مكان (كوثر)؟!.. هل كنت سأملك نفس الشجاعة؟!.. وهل سأرى أن الزوج يستحق القتل؟!.. وماذا لو أن الزوج أوصلها إلى نقطة الانفجار وجعلها تفكر بهذه الطريقة، بعد هذا العبث الذي مارسه معها طوال فترة زواجهما؟!.. إنها أسئلة مهمة.. لكني لا أملك الإجابة عنها.

هكذا هي المواقف التي يختلط فيها الحق بالباطل.. ويتشابك فيها الصواب بالخطأ.. فلا تدري أين هو الخير وأين الشر.. هكذا تغدو الأمور حين يمارس أحدهم العبَث.. خاصة إذا كان مخيفًا.

المُختـــل

تحكيها (كادي)

العمر 25 سنة

عزيزي القارئ..

أعود هنا للتنحّي عن المشهد العام.. تاركًا المساحة بأكملها لبطلة قصتنا (كادي).. التي ستكون صاحبة الصوت الأول والأخير لتكتب لنا -بالتفصيل- الأحداث التي مرّت بها.. أما دوري.. فلَن يتعدى تنقيح الأسلوب وإعادة صياغة بعض العبارات دون المساس بالمضمون.

إنها ليست مجرد قصة.. وإنما مواجهة مع رعب غامض وتجربة مروّعة جرت أحداثها في محيط مظلم كئيب ترك أثره العميق على (كادي).. فأُصيبت باضطرابات نفسية حادّة.. وباتت تقضي لياليًا سوداء مُثقلة بالنوم المتقطع والكوابيس.. وفي النهاية لجأت إليّ طلبًا للعلاج النفسي.. لأوصي ببقائها في المستشفى بعض الوقت كي أتابع حالتها عن قرب.. على أمل أن أساعدها في استعادة توازنها والعودة إلى حالتها الطبيعية.

لقد طلبت منها أن تكتب قصتها كاملة كجزء من العلاج النفسي.. فمواجهة مخاوفها على الورق أفضل بكثير من أن تظل حبيسة أعماقها.. وقد تكون إحدى خطوات التعافي.. وأنا هنا لا أعلم مدى مصداقية قصة (كادي).. لأنني ببساطة شديدة لا أملك الإجابة عن هذا السؤال.. لكني أؤكد أنها على يقين كامل بما شهدَتْه ومرّت به من أحداث.. وهذا ما جعلها نزيلة في المستشفى.. والآن.. لنترك السطور

تتحدث بصوت (كادي).. فهي من ستقودنا عبر كلماتها.. على أن تكون لي عودة لاحقًا للتعليق كما اعتدت دائمًا..

(الدكتور .....)

قبل أعوام قليلة فحسب.. لم يكن ليخطر ببالي إطلاقًا أنني سأجد نفسي غارقة في ظروف قاسية كهذه.. فقد كنت ممتلئة بالحيوية أنظر إلى الحياة بتفاؤل كبير بعد تخرجي من كلية العلوم بمعدل مرتفع وحصولي على وظيفة في جهة حكومية براتب مجز.. حيث كانت الأمور تسير بصورة رائعة بالنسبة لفتاة مقبلة على حقبة جديدة من حياتها.

ولم أمر بأي تغييرات جذرية سوى وفاة أمي بسبب أمراض الشيخوخة.. لتنعم بالراحة الأبدية أخيرًا بعد أن سبقها أبي إلى ذلك منذ عدة سنوات.. فقد تزوجها في سن متأخرة.. واكتفيا بإنجابي فقط.. خاصة وأن أبي لم يكن يتوق للإنجاب كثيرًا لأن أمي هي زوجته الثانية في واقع الأمر.. ولم تكن أسرتنا الصغيرة هذه تمثل له كلمة (البيت).. لذا فقد اكتفى بوضعنا في شقة صغيرة كان يدفع إيجارها شهريًا.. مكتفيًا ببَيته حيث زوجته الأولى.. والتي أنجبت له 3 أبناء لا تربطني بهم أي علاقة ولم ألتقِ بهم يومًا.. وهم يبغضونني ويبغضون أمي كثيرًا لأنها -بوجهة نظرهم- سرقَت والدهم منهم وكسرَت قلب والدتهم.. فنشأت بعيدة عنهم.. وأعترف أيضًا أنني لم أطالب بأي حق من حقوقي بعد وفاة أبي.. لأنني خشيت مواجهة أخوتي في المحاكم.. إذ لا يوجد لدي سند أو أقارب حتى من جهة أمي كونها من جنسية أجنبية وجميع أقاربها في بلدهم.. أي أنني وحيدة.. وحيدة جدًا.

وقد كان من الضروري اتخاذ خطوة حتمية بعد وفاة أمي.. أن أنتقل إلى شقة أصغر حجمًا وأقل سعرًا تلائم احتياجاتي.. والواقع أن هذه النقلة الجديدة في حياتي لم تفاجئني أو تخيفني.. لأنني

كنت أدرك جيدًا أنها آتية عاجلاً أم آجلاً.. فقمت -بالفعل- باستئجار شقة صغيرة راقيــة في منطقة (العقيلة) تناسب احتياجاتي وبإمكاني دفع إيجارها من راتبي.. محتفظة بما تركته لي أمي من مبلغ جيد في حسابي البنكي.

ومع الأسف.. فقد كانت مشكلتي الدائمة هي استعجالي الشديد على النجاح ورغبتي الجامحة في خوض العمل الحُر.. إذ كنت أحلم منذ أيام المرحلة الثانوية ألّا ينتهي بي المطاف أسيرة لوظيفة تُقيّد حياتي وحريتي.. مُدرِكة أن الطموح لا يتحقق إلاّ بالمغامرة واقتحام المجهول.. وإلاّ عاش المرء داخل دوائر مكرّرة يعيد إنتاج نفسه فيها.. غارقًا في روتين يحرم روحه من تذوّق لذة الحياة.

لكن.. كان طموحي الجارف نحو النجاح السريع هو السبب المباشر لسقوطي في الفخ.. فقد اندفعت بحماس إلى التفكير بمضاعفة أموالي في سوق الأوراق المالية.. ومن دون تخطيط مدروس أو معرفة كافية.. متوهّمة أن حماسة الشباب وحدها تكفي.. لأجد نفسي سريعًا في القاع بعد خسائر متتالية تبخّرت معها كل مدخراتي.. ثم بدأت رحلة الاقتراض لتعويض خسائري في تصرّف آخر غير مدروس.. أولاً من البنك.. ثم من صديقاتي.. لكني خسرت المزيد والمزيد.. لينتهي بي الأمر إلى الإفلاس.. إذ لم يتبقّ لي سوى راتبي الشهري الذي يُستنزف بالكامل في سداد إيجار شقتي والقروض البنكية وأقساط الديون المتناثرة.

ومع مرور الوقت.. وجدت نفسي أختنق تحت وطأة الضغوط

المالية.. إلى أن وصلت إلى مرحلة العجز الكامل.. ولم أعد قادرة حتى على دفع إيجار الشقة الذي تراكم لثلاثة شهور متتالية.. وفي النهاية.. لم يجد مالك العمارة خيارًا سوى اللجوء إلى القضاء.. فصدر في حقي حكم بالإخلاء في ذلك اليوم الأسود.. عندما طرَق مندوب المحكمة باب شقتي حاملاً بيده القرار القضائي الذي يأمر بطردي من الشقة.. ولم يمنحني أكثر من نصف ساعة لجمع ما استطعت حمله من ملابس وأغراض شخصية.. لأصبح مشرّدة أبحث عن مكان أقضي فيه ليلتي وربما الليالي القادمة.. وهناك أحكام قضائية أخرى ستصدر بحقي من بعض صديقاتي -اللاتي خسرتهن للأبد بالطبع- بعد أن عجزت عن سداد المبالغ التي استلفتها منهن.. أو أوامر ضبط وإحضار تمهيدًا لدخولي السجن.. حتى اضطررت لإغلاق هاتفي هربًا من الضغوط المتواصلة.

وقد حاولت يومها العثور على إخوتي من أبي في وسائل التواصل الاجتماعي كوني لا أملك أرقام هواتفهم.. على أمل أن تستيقظ نخوتهم ويقوموا بمساعدتي.. لكن كانت ردود أفعالهم شديدة السوء.. فأحدهم تمنى لي المزيد من البؤس قبل أن يحظرني من حسابه الشخصي.. والآخر الذي أخبرني شامتًا أن هذا ثمن القهر الذي ذاقته والدته مني ومن أمي وكأنني مسؤولة عن زواجها من أبي.. وذلك الذي تجاهل رسالتي ولم يكلف نفسه عناء الرد.. إلخ.

خرجت مطرودة من شقتي وأنا أقود سيارتي بضياع.. عالمة أن سيارتي نفسها قد تُصادر قريبًا بموجب حكم قضائي.. وعليّ أن أعيش هذا الكابوس وحدي بلا أحد يقف إلى جانبي.. فقررت التوقُّف بالقرب من الواجهة البحرية وإطفاء محرك السيارة.. فقط

لأحافظ على ما تبقى من وقود.. لأنني لم أكن أملك ما يكفي من المال لملء الخزان.. نعم.. لقد وصلت إلى هذه الدرجة من العجز الذي جعلني أجلس في سيارتي أُحدّق في البحر وأبكي بحسرة.. حتى ظللت على هذا الوضع ساعات طويلة حل خلالها الظلام وقد امتلأ جسدي بالعرق بسبب حرارة الجو.. وشعرت أنني وصلت إلى درجة لا يفترض فيها أن أخشى على مستقبلي.. بل مستقبلي هو الذي عليه أن يخشاني.. أردد هذا الكلام في داخلي وأنفجر ضاحكة بيأس.. ثم يتحول هذا الضحك الجنوني إلى بكاء هستيري لا يتوقف.

في النهايـة.. وصلت إلى حقيقـة واضحـة لا مـفـر منهـا.. إمـا التصرّف.. أو السير إلى البحر لأموت غرقًا وأنهي حياتي.. لكني قلت لنفسي محاولة استجماع أفكاري:

- يا لكِ من حمقاء كي تفكري بالانتحار.. أنتِ أجبن من أن تقومي بهذا الفعل.. عليكِ بالابتعاد عن الأفكار الغبية والتركيز على القادم.. فهذا البكاء والتحسر على ما فات لن يغير شيئًا؟!.. يجب مراجعة الحلول المتاحة.. كالعثور على وظيفة أخرى بعد فترة الظهر.. نعم.. سيساعدني هذا على جدولة ديوني وتسديدها على دفعات.

ثم يصطدم هذا الكلام الإيجابي بالواقع.. فأقول لنفسي بصوت مرتفع:

- لكن أمرًا كهذا لن يحدث في ليلة وضحاها.. بل سيتطلب بعض الوقت.. فكيف سأعيش إلى ذلك الحين؟!.. وأين سأبيت؟!.. إننا لا نتحدث عن المبيت ليلة أو ليلتين.. وإنما فترة قد تمتد إلى أسابيع -أو ربما شهور- لحين عثوري على وظيفة إضافية.. يا إلهي.. كيف

سأتدبر أموري؟!.

وبعد أن وجدت أنني أمام طريق مسدود.. بدأت أبحث عن حل عقلاني وسريع.. عن أي شخص في هذا العالم قد ينقذني من هذا المأزق.. ثم.. رفعت رأسي بأمل وقد تذكرت شقيق أبي الوحيد والذي يصغره سنًا ببضع سنوات.. لقد كانا على خلاف شديد حول بعض الأمور العائلية.. وقد انقطعت علاقتهما ببعض منذ سنوات طويلة للغاية وقبل أن أولد -كما سمعت ذات مرة من أبي- وآخر ما عرفته عنه أنه يعيش مع زوجته ولم ينجب أبدًا لمشاكل صحية.. لا شك أن لديه مكانًا لاستضافتي فيه.. إنني ابنة أخيه في النهاية ولن يقبل أن أبيت في الشارع.. فلماذا لا أذهب إليه وأخبره بظروفي، وأطلب منه أن يستضيفني في بيته مؤقتًا لحين تمكّني من إدارة حياتي من جديد؟!.

كانت الفكرة غريبة وصاعقة بالنسبة لي رغم أنها نبعت من رأسي.. لأنني لم ألتقِ بعمّي هذا من قبل.. ولا أعرف شيئًا عن حياته الحالية.. وكل ما أعرفه عنه سمعته من أبي.. فسكتُّ محاولة استيعاب الفكرة.. وأنا أتساءل إن كان عمّي على قيد الحياة أصلاً.. فهو لم يتواصل معي عند وفاة أبي.. ولا أعلم حتى إذا كان قد حضر إلى المقبرة أثناء مراسم الدفن.. وربما ماتت زوجته أيضًا.

عمومًا.. عليّ أن أجرب.. إنه يقيم في منطقة (الروضة) حسبما أذكر.. ففي بدايات مراهقتي ذهبت لزيارة زميلة لي في المدرسة تسكن في نفس المنطقة.. وقتها أخبرني أبي أن عمّي يعيش هناك أيضًا.. فطلبت منه -بدافع الفضول- أن يمر بسيارته لنرى بيته.. ربما

سأتمكن من العثور على البيت لو ذهبت إلى المنطقة وقدت السيارة بين شوارعها.. عليّ أن أجرب.. إنه الحل الوحيد المتاح حالياً.. فالساعة تقترب من الثامنة مساءً وعليّ أن أجد مكانًا أبيت فيه.

أدرت محرك سيارتي.. ثم بدأت أقودها متجهة إلى منطقة (الروضة).. محاولة تجاهل الحرج الذي سأعيشه عندما أقف أمام رجل لا أعرف عنه أي شيء وأطلب منه مساعدتي.. لكن كونه عمّي فهذا سيُعد كافيًا بالنسبة لي.. وربّما له.. عندما يعلم أنني لم ألجأ إليه إلاّ بعد أن تقطّعت بي السبل.

لم يكن العثور على بيته سهلاً.. فقد استغرقت عملية البحث وقتًا طويلاً استنزف خلاله الكثير من الوقود.. وأنا أقود سيارتي بين أحياء منطقة (الروضة) واحدًا تلو الآخر.. أعتمد فقط على ذاكرة باهتة تعود لبدايات مراهقتي.. وكل أملي أن يكون البيت على حاله.. وإلاّ لن تكون هناك أي فرصة للتعرف عليه لو كان عمّي قد أجرى بعض التعديلات أو الأعمال الإنشائية التي تطمس ملامح البيت الموجودة في ذاكرتي.. لكني في النهاية.. عثرت على بيت يشبه الصورة الضبابية الموجودة في ذاكرتي.. آملة أن يكون هوَ.

كنت أعلم أن منطقة (الروضة) قديمة نسبيًا تأسست في بدايات سبعينات القرن الماضي.. لكني لم أتوقع أن يكون البيت قديمًا هكذا أيضاً.. وكأنه أول بيت يتم بناؤه في المنطقة.. إنه ما زال محتفظًا بشكله القديم وقد طال الإهمال كل شبر منه.. كما أحاط به الظلام الدامس، حتى شعرت للحظة أن البيت مهجور.. خاصة مع السيارة المركونة في الخارج والتي طالتها الأتربة وغطتها بالكامل.. مما يؤكد

أنها لم تتحرك من مكانها منذ سنوات.

هل البيت مهجور؟!.. ظللت أمعن النظر.. فلاحظت أن جميع النوافذ مغلقة ولم تطلها أيدي العابثين كما يحدث عادة في البيوت المهجورة.. وهذا قد يعني أن أحدهم يعيش هنا بالفعل.. مما شجّعني على ركن سيارتي.. لأترجّل منها وأسير بحذر ناحية الباب الرئيسي.. وألتقط أنفاسًا عميقة لتخفيف حدة التوتر.. مذكّرة نفسي أن الأمر لا يتجاوز قيام فتاة بزيارة عمّها.. مهما كانت الظروف وهيئة البيت الخارجية التي لا تبشر بالخير.. ولا أعلم عن أي خير أتحدث هنا أو نوع الخير الذي أترقّبه.

كان زر الجرس من الطراز القديم مثل كل شيء آخر في البيت.. ولم أكن متأكدة إن كان يعمل.. لذا ضغطت عليه بإصبعي -وبكل قوتي- من دون أن أسمع أي صوت.. ثم أعذت الضغط بإلحاح أكبر بلا جدوى.. والسكون ما زال يخيّم بالكامل على المكان.. عندها فكّرت بسؤال الجيران.. لكني تركت هذه الفكرة جانبًا لعدَم جدوى السؤال.. فماذا لو أخبروني أن عمّي ميت أو غير موجود، أو لم يعد يعيش هنا مثلاً؟!.. ماذا لو أخبروني أنه في الداخل ولا يرغب باستقبال أحد؟!.. كل الإجابات لن تغير من واقع أنني سأبيت في الشارع اليوم إذا لم أدخل.. يجب أن أدخل.. ولو لم أجد أحدًا في الداخل.. فعلى الأقل سيكون هناك سقفًا أنام تحته.

اقتربت من سور البيت ووقفت أمامه بعض الوقت مترددة.. ثم اتخذت قراري وتسلّقته بصعوبة وفي خطوة لم يخطر ببالي يومًا أن أقْدِم عليها.. لأنزل بعدها داخل ساحة البيت وأنا أنفض عني الغبار

الذي التصق بملابسي -وفي نفس الوقت- أنظر حولي بحذر وأرى الساحة الداخلية المغطاة بطبقة كثيفة من الأتربة.. والشجيرات الميتة منذ زمن طويل.. كل شيء في المكان يوحي بأنه مهجور تمامًا.. عمومًا.. هذا البيت يمثل فرصتي الوحيدة الآن.

سرعان ما وصَلْت إلى الباب الداخلي.. حيث رخت أطرقه بخفوت وأنا أنادي عمّي بصوت مرتجف مؤكدة أنني ابنة شقيقه.. لكن لا أحد يرد.. فأمسكت بمقبض الباب محاولة فتحه.. لأجده مفتوحًا بالفعل وأصطَدم بالظلام الدامس في الداخل.. ثم حسمت أمري وقمت بإنارة الإضاءة في هاتفي لأدخل بعدها بخطوات مترددة.

صوتي الخائف المتوتر يبدد سكون المكان وأنا أنادي عمّي وأعتذر له عن دخولي.. لأنتبه فجأة إلى أمر أشعرني ببعض الاطمئنان.. فالأجواء باردة في الداخل رغم حرارة الجو في الخارج.. هذا يعني أنه توجد وحدات تكييف تعمل بكفاءة.. وأن أحدهم يعيش هنا.. سواء كان عمّي أو غيره.. لكن لماذا الظلام الدامس؟!.. هل من الممكن أن يكون خارج البلد مثلاً وقد نسي وحدات التكييف تعمل؟!.. أو خرج وتركها متعمدًا ليحتفظ البيت ببرودته لحين عودته؟!.. لا تبدو لي الأمور بهذه الصورة.

ظللت في الدور الأرضي أفتش الغرف واحدة تلو الأخرى.. وجميعها تقريبًا مؤثثة بما يوحي أن أحدهم يعيش هنا بالفعل.. لكن الإهمال الذي أصاب المكان مرعب.. وكأن عمّي وزوجته قد توفاهما الله منذ مدة طويلة وتحللت جثتاهما هنا ولم يعرف أحد بذلك.. فأرعبني هذا الخاطر وحاولت تجاهله وأنا أتجه إلى الدرج كي أصعد

الدور العلوي.. ثم.. توقفت في مكاني عندما سمعت صوت خطوات أقدام يأتي من إحدى الغرف.. لألتفت مسرعة وأجد رجلاً عجوزًا يقف عند عتبة غرفة كنت قد بحثت فيها بنفسي ولم أجد أحدًا داخلها.. كيف حدث ذلك؟!.. هذا مستحيل.. إن الغرفة صغيرة في النهاية ولم يكن هناك ما يكفي من الأثاث كي يختبئ أحدهم فيها.

وما أخافني لم يكن الظلام أو هذا الخاطر فقط.. بل شكل الرجل العجوز نفسه.. إذ بدا وكأنه عاد من الموت للتو.. إنه نحيل بشكل مخيف لدرجة أن عظام وجهه تكاد تخترق الجلد.. وعيناه واسعتان جامدتان كأن لا روح فيهما.. وقد بدا حليق الوجه لا بفعل العناية.. وإنما لأنه غير مشعر أصلاً.. فلو دققت النظر في وجهه.. ستجد شعيرات قليلة تخرج من هنا وهناك بإهمال.. وكان يرتدي بنطلونًا وقميصًا داكنين.. وتفوح منه رائحة نفاذة كريهة توحي بأنه لم يستحم منذ فترة طويلة.. وما زاد المشهد غرابة.. أنه كان يحمل شمعدانًا فيه شمعة واحدة مع أن أجهزة التكييف تعمل.. أي أن الكهرباء متوفرة.. فلماذا لا يستخدم الضوء العادي؟!.

ثم انتبهت إلى إضاءة هاتفي الموجهة إلى وجهه.. فقمت بخفضها وأنا أعتذر له وأعرّفه بنفسي.. مؤكدة أنني لم أدخل إلاّ بعد أن ضربت الجرس كثيرًا ولم أحصل على إجابة.. وأنني خشيت أن مكروهًا أصابه هو أو زوجته.. ليقول بطريقة آلية جامدة للغاية وصوت مبحوح:

- زوجتي توفيت منذ سنوات.. وأنا لا أستقبل أحدًا هنا.. أخرجي الآن.

إنه يقيم هنا وحيدًا إذًا.. لكن كيف لا يتأثر إطلاقًا حين تزوره ابنة شقيقه لأول مرة، ويكتفي بطردها بهذه البساطة؟!.. فتنحنخت بحرج وخوف وقد قررت مصارحته بكل شيء.. إذ أخبرتّه بعلمي التام أن مجيئي يحوي شيئًا من الوقاحة كوني أتيت فقط عندما احتجت إلى مساعدته.. مؤكدة له أنني في ورطة حقيقية.. وأنني سأبيت في الشارع لو لم يسمح لي بالبقاء.. محاولة تخفيف وطأة كلامي بإخباره أنها مرحلة مؤقتة قد تستغرق بضعة أيام أو أسابيع.. وأنني سأقوم طوال فترة بقائي هنا -إن سمح لي- بتنظيف البيت وإعادة الحياة إليه بعد أن طاله الإهمال.

رد عمّي بصوته المبحوح:

- لا أهتم لنظافة البيت.

قلت بحماس مفتعل محاولة تلطيف الجو:

- على الأقل سأقوم باستبدال المصابيح المعطّلة.. فالظلام يعم المكان بأكمله يا عمّي.. من الواضح أن البيت لا يخضع لأي نوع من الصيانة.. حتى أنني ظننته مهجورًا في البداية.

رد من دون أن ينظر إليّ:

- إنني أحب بيتي بهذه الطريقة.

كل عباراته مقتضبة ويقولها بملامح جامدة مرعبة.. لماذا يا ترى؟!.. لكن الخوف رفاهية لا أمتلكها في هذه الظروف.. لذا لانت ملامحي وبدأت بالتوسل إليه إلى درجة الإذلال.. ولم أجد ضررًا أو إهانة في ذلك.. محاولة تذكير نفسي مرة تلو الأخرى.. أن هذا الرجل في

النهاية هو عمّي شقيق والدي.. مع الوضع بالاعتبار أيضا كبر سنه.. فظل يستمع إلى توسلاتي ونبرات البكاء في صوتي من دون أن يبدي أي تأثّر.. إلى أن قال بجموده الغريب:

- لدي غرفة في الطابق الأعلى.. تستطيعين الإقامة فيها.

ثم سار متجهًا إلى الدرج.. صاعدًا بخطوات بطيئة مشيرًا إليّ بيده كي أتبعَه.. فصعدت خلفه بصمت حتى وصلنا إلى الطابق العلوي الذي بدا أكثر إهمالاً وظلمة من الطابق الأرضي.. لقد كان الجو ثقيلاً مرعبًا ومشبعًا بالكآبة والغموض.. ولو كنت مخرجة أفلام رعب أبحث عن موقع تصوير لِبيت مهجور تسكنه الأشباح.. لاخترت هذا المكان من دون تردد.. و.. وسط هذا الصمت الخانق.. عاد ذلك السؤال ليطرق رأسي مجددًا.. أنا متأكدة أنني فتّشت الغرفة التي خرج منها عمّي منذ قليل.. وكانت خالية تمامًا.. فكيف حدث ذلك؟!.. لا أملك أي تفسير.

وصلنا إلى غرفة كبيرة الحجم نسبيًا في الطابق العلوي تغطيها الأتربة وشبكات العنكبوت تملأ زواياها.. ليأمرني عمّي بالدخول وبنبرة صارمة.. فلم أجد أمامي سوى الانصياع.. وعندما دخلْت.. مدّ يده نحو زر الإضاءة.. ليضيء مصباحًا صغيرًا واحدًا فقط.. أما بقية مصابيح الغرفة فكانت معطلة.. كما لو أن عمّي يتعمّد تجاهل كل ما يحتاج إصلاحًا في بيته.. يبدو أنني سأضطر للمبيت في هذا المكان المتهالك.. ولا أحد يعلم إلى متى في ظل هذه الظروف.

وبعد كل هذا.. فاجأني عمّي بكلمات كانت كالقنبلة.. عندما قال بنفس النبرة الثابتة:

- إنكِ في بيتي.. وعليكِ الالتزام بشروطي.

نظرت إليه بلا فهم.. ليقول مكملاً:

- لن يكون مسموحًا لكِ الخروج من الغرفة بعد السادسة مساءً ولغاية الرابعة صباحًا من كل يوم مهما كانت الأسباب.. هل هذا مفهوم؟!.

وكأنه يتحدث مع طالبة في المرحلة الابتدائية.. إنني ابنة شقيقه رغم كل الخلافات والتفكك العائلي.. فكيف يعاملني بهذه الطريقة؟!.. إلاّ أنني حاولت السيطرة على أعصابي وهززت رأسي موافقة.. ليقوم عمّي بتصرف آخر غير متوقع وأكثر استفزازية.. إذ أغلق علي الباب ووضع المفتاح في الثقب الخارجي ليقفله.. أي أنني بت سجينة عنده لغاية الرابعة من صباح الغد على حد قوله.. وها هو يؤكد كلامه بتصرفه هذا.

لم أكن أشعر بالخوف رغم كل ما رأيته.. فكما قلت سابقًا.. الخوف يعتبر ترفًا لا أملكه في هذه الظروف.. لكنني ظللت أتساءل عن هذه المعاملة الجافة.. وسر الظلام الكثيف الذي يغمر البيت.. والقذارة التي تملأ كل شيء حتى جسد عمّي نفسه.. إنّ رائحته كريهة للغاية يصعب احتمالها.. وشكله وحده كفيل بأن يزرع الرعب في القلوب.. والأسوأ من هذا كله.. أنه لم يسألني إن كنت تناولت العشاء.. ولم يزوّدني حتى بوسادة أو بطانية للنوم.

لكن.. ظلت تلك الملاحظة تطاردني أكثر من غيرها.. كيف خرج عمّي فجأة من تلك الغرفة في الطابق الأرضي؟!.. أنا ما زلت متأكدة أنها كانت خالية عندما بحثت فيها... فأين كان؟!.. حاولت إقناع

نفسي أنني لم أنتبه لوجوده أثناء بحثي عنه.. أو أنه كان مختبئًا خلف الباب مثلاً، وقد خرج لاستقبالي بعد أن شعر أنني سأظل أبحث عنه إلى أن أجده.. إنه رجل غريب الأطوار كما هو واضح.. كل شيء هنا يدل على ذلك.. كما انتبهت إلى أنّ نوافذ الغرفة مغلقة تمامًا ومختومة بالألواح الخشبية.. واكتشفت لاحقًا أن كل نوافذ البيت بهذه الصورة.

جلست على الأرض وتذكّرت أن ثيابي وحاجياتي ما زالت في السيارة ولم أخرجها بعد هذا الاستقبال البارد الغامض.. ولا أظنها فكرة سديدة أن أنادي عمّي الآن كي يسمح لي بذلك.. لذا -وفي النهاية- استسلمت لوضعي.. محاولة جر تفكيري إلى المأزق الكبير الذي أعيشه في حياتي.. فهو أهم بكثير من تساؤلاتي هذه.. ولحسن الحظ أن وحدة التكييف الصغيرة في الغرفة تعمل وإلاّ لانصهرت من حرارة الجو.

ما زلت أجلس مستندة إلى أحد جدران الغرفة أنظر إلى مجموعة من الصحف والمجلات القديمة التي تكوّمت هنا وهناك في ليلة بدت هي الأطول في حياتي.. ولحسن الحظ أن للغرفة حمّام.. فلا أظن أن عمّي كان سيهتم لحاجتي إلى استخدام الحمّام في فترة الاحتجاز هذه.. وسيكون علي انتظار صباح اليوم التالي فقط من أجل ذلك.

ثم تذكّرت أن أفتح هاتفي لأدخل إلى الموقع الإلكتروني لوظيفتي وأطلب إجازة طويلة الأمد ستستهلك كل رصيدي من الإجازات.. فلا يمكن للإنسان أن يذهب إلى عمله بصورة طبيعية في مثل

هذه الظروف.. وفي الوقت نفسه لا أستطيع المخاطرة بالتعرّض إلى الخصم أو الفصل.. لأن راتبي يذهب بأكمله تقريبًا للبنك وبعض الدائنين.. وإلاّ ستتفاقم مشاكلي أكثر.

رحت بعد ذلك أعبث في هاتفي بطريقة تلقائية.. لأرى رسائل التهديد من بعض صديقاتي اللاتي استلفْت منهن.. وقد فشلَت كل محاولاتهن للحصول على أموالهن باللين.. فبعضهن قمن برفع دعاوى قضائية ضدي كما ذكرت.. وأخريات يتهمنني باستغلال صداقتي لهنّ وأنهن قد كشفن حقيقتي على حد قولهن.

وضعت هاتفي جانبًا محاولة التمسك ببادرة الأمل وطمأنة نفسي بالبحث عن وظيفة إضافية قريبًا لمحاولة جدولة الديون وتسديدها بالتدريج.. وربما حتى البحث عن وظيفة ثالثة أيضًا لا تتطلب ساعات عمل.. وتكون من خلال الهاتف مثلاً.. فهناك حسابات في وسائل التواصل الاجتماعي لمشاهير قد يطلبون من يدير لهم أعمالهم.. نعم.. عليّ أن أبحث في كل مكان من أجل وظيفة ثانية وثالثة.. ولو نجحت في ذلك.. سأحتاج ربما 4 أو 5 سنوات قادمة لأتخلص من كل الديون التي تطاردني.

لكن.. مشكلة لحظات الأمل هذه أنها تتلاشى بسرعة أمام الواقع الذي أعود إليه بين لحظة وأخرى.. فأشعر برغبة قوية في البكاء تجعلني أشتم المال والثراء وأحسد الأثرياء وألعنهم بلا سبب.. بل وأتمنى لو كنت من متوسطي الدخل ممن يعيشون حياة طبيعية بلا هموم مادية أو ديون.. هكذا كانت حياتي قبل غبائي وأحلامي بالثراء السريع.. و.. لا أعلم كيف تمكنت من النوم في هذا الجحيم

المادي والمعنوي.. نمت على الأرض وبلا مفرش.. نومًا متقطعًا مزعجًا آلم ظهري فيما بعد.

مرت الليلة الأولى بسلام رغم كل الصعوبات.. حيث استيقظت بعد السابعة صباحًا بقليل.. فقلت لنفسي بسخرية مريرة حال استيقاظي:

- صباح الخير.. مع أنني ضد فكرة أن أصحو أساسًا.

ارتسمت على وجهي ابتسامة باهتة.. ثم نهضت لأنادي عمّي كي يفتح الباب وقد كنت أتضور جوعًا كوني لم آكل أي شيء منذ صباح أمس تقريبًا.. لكن.. الباب كان مفتوحًا.. هذا جيد.. على الأقل لم ينسَ الوغد أن يحررني من هذه الغرفة الحقيرة.. فخرجت لأسير في أرجاء البيت الذي بدا أكثر قذارة مما ظننت.. بعد أن كشفَت أشعة الشمس التي اخترقت ثقوب الألواح الخشبية كل ما هو مستور.. وأنا ما زلت أنادي عمّي بطريقة ودية من دون أن يرد.

لقد كانت هناك 4 غرف في الطابق العلوي جميعها مغلقة ومقفلة بالمفتاح.. إحداها بدَت وكأنها غرفة النوم الرئيسية.. على الأرجح أنها غرفة عمّي النائم الآن بعد أن قام بفتح قفل باب غرفتي أثناء نومي.. ولست بحاجة إلى الكثير من الذكاء لأعرف أنه يفعل شيئًا مريبًا عندما يبقيني سجينة.. فهل يتاجر بالخمور أو المخدرات مثلاً؟!.. لا يبدو لي أنه من ذلك النوع من الرجال.

نزلت إلى الطابق الأسفل حيث المطبخ.. ورحت أبحث عن شيء آكله.. توجد الكثير من المعلّبات ولا وجود لأي أطعمة طبيعية.. فأخذت علبة فول فتختها ووضعت محتواها في طبق رحت آكل منه بنهم وقد شعرت أنني أفضل حالاً.. إنني أمتلك مبلغًا بسيطًا

للغاية يكفي لشراء الخبز لبضعة أيام وربما بعض المعلبات كذلك.. هذا لو رفض عمّي أن آكل من طعامه.. لكن لا أظنه يمانع وإلاّ قالها صراحة.. عمومًا.. سأذهب بعد قليل لأخرج حقيبتي من السيارة وآتي بها إلى الغرفة التي سيكون عليّ تنظيفها جيدًا.. أظن أنها ستكون مسكني الجديد مؤقتًا.. آمل أن يكون هذا المكان نقطة انطلاقة للبدء بإعادة بناء حياتي.

ذهبت لجلب حقيبتي.. ثم صعدت إلى غرفتي وشرعت في تنظيفها لساعتين كاملتين حتى بدت مقبولة ونظيفة بعض الشيء.. وبعدها بحثت في أرجاء البيت عن مفرش وبطانية.. لأعثر عليهما متناثرين هنا وهناك.. متسخين ومغطيين بالغبار.. فأخذتهما معي إلى الغرفة وقمت بتنظيفهما جيدًا.

أما عمّي فلم أره يومها.. وإنما سمعت صوت باب غرفته يُفتح بعد السادسة مساءً بقليل.. بينما كنت قد التزمت بأوامره وغذت إلى غرفتي قبلها بدقائق.. أظن أنه قضى الليلة الماضية ساهرًا لسبب ما.. لكني لم أجرؤ على سؤاله عن السبب بالطبع.. بل ولم أجرؤ حتى على مغادرة غرفتي أثناء استيقاظه.. وكان هو حريصًا أيضًا على سجني فيها.. إذ سمعت وقع خطواته تقترب من الباب.. ثم صوت القفل يدور إيذانًا ببدء ساعات حظر التجول.. وربما كان من الأفضل بالفعل أن أكون خارج أنظاره.. خوفًا من غرابة أطواره ومن أن يطردني في أي لحظة.. ولحسن الحظ أنني كنت قد اشتريت بعض الخبز والجبن كي يكون هذا غدائي أو عشائي.. فَلَم أعد أركّز على مثل هذه التفاصيل.

ظللت على هذا الحال عدة أيام لم أتوقف خلالها عن التواصل مع كل إعلان وظيفة وجدته في وسائل التواصل الاجتماعي من أجل الحصول على وظيفة في الفترة المسائية.. ولم أكن أحصل إلاّ على الوعود بالاطلاع على سيرتي الذاتية حال إرسالها ومن ثم الاتصال بي لاحقًا لإبلاغي بالقرار.. أما عمّي.. فقد ظل ظهوره قليلاً للغاية إلى درجة أنني لم ألتقِ به منذ الليلة الأولى سوى مرة واحدة فقط تجاهل فيها وجودي تمامًا.. وكأنني لا أقيم معه في نفس البيت.. هذا الرجل غريب الأطوار بطريقة مرعبة.. ومن الواضح أنه لا يستحم أبدًا.. إنه حتى لم يبدّل ثيابه منذ أن رأيته.. إنها نفس الثياب التي استقبلني فيها.. ويعلم الله وحده منذ متى وهو يرتديها.. ولولا أن لحيته لا تطول كثيرًا لأسباب وراثية كما ذكرت.. لكان اليوم أشبه برجل الكهف.

بعد مرور أكثر من أسبوعين.. وبينما كنت في غرفتي أثناء فترة حظر التجول هذه.. كان الملل يقتلني.. فلا أستطيع الخروج لأنني لا أملك المال لتعبئة السيارة بالوقود لو نفد.. لكني كنت في حالة نفسية أفضل.. بعد أن حصلت على وعد بوظيفة في فترة بعد الظهر لدى إحدى الشركات وبراتب يفوق توقعاتي.. على أن أبدأ بعد شهرين تقريبًا.. مما منحني الأمل في العثور على وظيفة ثالثة أيضًا كما كنت قد خططت سابقًا.. علّني أتمكن عندها من استعادة حياتي واستئجار سكن مناسب لي.. ومن ثم البدء بتسديد ديوني.

وبسبب شعوري ببعض الاطمئنان على مصيري.. بدأ الفضول يتملكني لأول مرة حول الأجواء التي تحيط بي في بيت عمّي.. هل تعرفون قصة ذي اللحية الزرقاء؟!.. الرجل الذي أهدى زوجته قصرًا

به 99 غرفة، يمكنها أن تتنقل بينها كما تشاء؟!.. لقد منعها من دخول الغرفة المئة.. فماذا كانت النتيجة؟!.. لم تعد الزوجة ترى في القصر سوى هذه الغرفة.. وأصبح الفضول يقتلها قتلاً لمعرفة ما تحويه.. إنّ تلك القصة تعبّر بقوة عن ولع الإنسان بالمجهول.. هذا الولع والفضول اللذان لا يرتويان أبدا.. وهذه متعة غريزية كامنة في الوجدان الإنساني منذ فجر التاريخ.. وتوجد في كل منا بنسب متفاوتة.

فبدأت في تلك الليلة أتساءل وأدقق في غرابة أجواء المكان وسلوكيات عمّي وغموضه الشديد.. إنه قليل الكلام جامد الملامح.. ويتجنبني بطريقة واضحة.. وأنا لا أراه يأكل أبدًا.. أو ربما يأكل في غرفته.. لا أعلم.. لأنني لم أدخل غرفته من قبل ولا أعرف كيف تبدو من الداخل.. مما جعل تلك الفكرة المشاغبة تبدأ تستحوذ عليّ.. أن أعثر على وسيلة كي أخرج من الغرفة أثناء فترة حظر التجول، وأكتشف السر خلف سجني فيها لساعات طويلة من كل يوم مع غروب الشمس وبعد شروقها.. لكن كيف سأفعل ذلك؟!.

نهضت من مكاني لأتفحص قفل باب الغرفة.. إنه من الأقفال القديمة التي تُفتح بالمفاتيح الثقيلة.. وعمّي لم يترك المفتاح في القفل مع الأسف.. وإلاّ كنت سأفعل ما شاهدته في السينما ذات مرة عندما وضع أحدهم جريدة تحت فتحة الباب.. وراح يعبث بالمفتاح وهو بالقفل لكي يسقط على الجريدة.. ومن ثم يتم سحب الجريدة إلى الداخل وأخذ المفتاح.. وإن كانت هذه الطريقة لا تصلح.. لأنه سيتوجب عليّ قفل الباب مرة أخرى وإعادة المفتاح إلى مكانه في ثقب القفل الخارجي.. وهذا مستحيل منطقياً.. يجب أن أبحث عن حلول أكثر واقعية.

أتذكر أنني -وأثناء تنظيف غرفتي- عثرت على صندوق صغير يحتوي على مفكّات للأشياء الدقيقة كالنظارات وغيرها.. ففتحت الصندوق وأخذت منه مفكًا ظننته مناسبًا.. ثم أدخلته في ثقب القفل وبدأت أقوم بتحريكه يمينًا ويسارًا بطريقة غبية.. بالطبع لم يحدث شيء.. عندها تذكرت هاتفي.. سأبحث في (Youtube) عن مقطع يشرح لنا طريقة فتح أبواب من هذا النوع.. ولحسن الحظ أن البحث لم يستمر طويلاً.. إذ وجدت مقطعًا يشرح الأمر بأسلوب مُبسّط وعمَلي جدًا.. المسألة قد تحتاج بعض الوقت فقط.. لكن لو سرت على الخطوات المشروحة ففرصتي في النجاح ستكون كبيرة.

رحت ألتزم بالتعليمات التي شرحها المقطع.. إلى أن شعرت بعد أكثر من نصف الساعة أنني أستطيع التحكم بالقفل بواسطة المفك الذي في يدي.. الباب يفتح أخيرًا بصرير بسيط لا أظنه يلفت انتباه أحد.. ومع ذلك كنت حريصة جدًا ألاّ أصدر أي صوت.. لا أظن عمّي سيكون سعيدًا بهذا التصرف الطفولي الذي يعتبر مخاطرة كبيرة جدًا لبقائي هنا.. فلا يمكن تخمين ردة فعله لو كشف أمري.. ولا أعتقد أن الأمر سيتعلق فقط بالطرد من بيته لو كان ما سأكتشفه مخالفًا للقانون.

يا إلهي.. إنني أضع نفسي في مأزق كبير.. لكني لا أستطيع تجاوز الأمر.. لقد بدأت الحماقة وعليّ استكمالها.. وإلاّ سأجن من فرط الفضول الذي أخرس صوت العقل.. هكذا الفضول.. يعمل بكفاءة عالية جدًا وقت الاطمئنان.. لأن فكرة كهذه لم تكن لتطرأ في ذهني قبل الوعد بحصولي على الوظيفة الثانية في الفترة القادمة كما

ذكرت.

حسنًا.. إنني خارج الغرفة في مثل هذا الوقت ولأول مرة منذ ليلتي الأولى هنا.. المشكلة أنني لا أستطيع استخدام إضاءة هاتفي خوفًا أن ألفت انتباه عمي.. فمَشيت بخطوات مترددة جدًا وسط الظلام عاجزة عن الرؤية.. ويدي ممدودة بتوجس وحذر شديدين خوفًا أن أصطدم بشيء.. ثم نزلت عبر الدرج إلى الطابق الأسفل.. وما إن وصلت.. حتى انتبهت إلى وجود مصدر لضوء خافت يخرج من تحت باب إحدى الغرف.. إنها نفس الغرفة التي خرَج منها عمّي في الليلة الأولى عند مجيئي.. تلك الغرفة التي كنت أجزم أنني بحثت فيها ولم أجد أحدًا.

أسمع همهمة تأتي من خلف باب الغرفة.. لا ليست همهمَة.. بل صوت أحدهم يتحدث.. فاقتربت أكثر تجاه الباب وبين لحظة وأخرى أحاول الاستماع إلى صوت العقل الذي يطلب مني بإلحاح أن أعود إلى غرفتي وأعيد قفل الباب كما كان.. لكن الفضول ظَل صاحب الكلمة العليا.. وهو الذي جعلني ألتصق بالباب وأصغي السمع.. نعم.. أحدهم في الداخل يتحدث بنبرة غريبة جعلَتني أنحني لأنظر عبر ثقب القفل.. إنني أرى عمّي جالسًا مع شخصين آخرين حول طاولة مستديرة صغيرة وسط الظلام الذي تبدده بعض الشموع على الطاولة وفي أماكن أخرى من الغرفة.. لماذا لا يستخدم عمّي الكهرباء إطلاقًا؟!.. وكأنني أعيش في إحدى القلاع القديمة في القرون الوسطى.

أمعنت النظر محاولة التعرف على الضيفين.. لا أستطيع أن أتبين

ملامحهما بسبب صغر مساحة الرؤية في القفل.. لكن واضح أنهما يشتركان مع عمّي في المرحلة العمرية وسوء المظهر.. وما زال ذلك المتحدث يستمر في كلامه بصوت خافت عجزت عن الاستماع إلى كلماته التي يقولها بثبات غريب بلا أي انفعالات.. وكأنه آلة.. وعمّي مع ضيفه الآخر يستمعان إليه بجمود واضح ومريب من دون أن يبدي أي منهما حركة واحدة.. واضح أن ما يقوله الرجل مهم للغاية وإلاّ لن يمنحاه كل هذا الانتباه.. تُرى.. كيف دخل الضيفان بيت عمّي بهذا الهدوء من دون أن يحدثا أي صوت؟!.

لم يكن بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلت.. خاصة بعد أن أدركت استحالة سماع أي كلمة تقال داخل الغرفة رغم كل محاولاتي للإنصات.. عندها.. انسحبت بهدوء وعدت إلى غرفتي في الطابق العلوي بخطوات حذرة.. وظللت أفكر بما رأيت، حتى بعد أن أعدت القفل إلى مكانه واستلقيت في مكان نومي.. ليتسلل إليّ النعاس ويغلبني أخيرًا.

ويبدو أن مرور الليلة بسلام شجّعني على تكرار التجربة في الليلة التالية التي شهدت فيها نفس التفاصيل تقريبًا.. إذ وجدت المشهد ذاته يتكرر دون أدنى تغيير.. باستثناء تبدّل أماكن الجلوس.. والضيف نفسه يتحدث بالطريقة الآلية ذاتها بلا انفعال.. بينما يواصل عمّي والرجل الآخر الاستماع إليه والصوت ما زال خافتًا لا يصل إلى مسامعي.. فطرأت في ذهني فكرة بسيطة لكنها قد تكون فعالة.. وستكشف لي بعض هذا الغموض.. لأن كل الدلائل تؤكد أن شيئًا مريبًا يحدث هنا.

اتجهت ناحية الباب الداخلي الرئيسي ووضعت هناك طُعمًا بسيطًا وصغيرًا -سأتحدث عنه لاحقًا- لكنه كفيل بأن يكشف لي الكثير.. ثم عدت إلى غرفتي وأعدت القفل إلى مكانه.. وجلست أفكر بفعالية هذا الطُعم.. وبالرجلين اللذين رأيتهما برفقة عمّي.. هل يقومان بزيارة المكان كل يوم؟!.. ولماذا؟!.. أم أنهما يقيمان هنا؟!.. لكن أين يقيمان بالضبط؟!.. هل يُعقل أن يختبئا في البيت ولا أرى أي أثر لهما طوال فترات النهار؟!.. إننا لا نعيش في قلعة هائلة الحجم كي يختبئ فيها أحدهم بهذه البساطة.. وماذا سيفعل عمّي لو كشف أنني أتجسس عليه؟!.. ثم ماذا عن الظلام الدامس في البيت كله واعتماد عمّي على الشموع.. حتى أثناء وجوده مع الضيفين؟!.. هل أقوم بمغامرة أكبر غدًا وأخبئ هاتفي في الغرفة ليقوم بتسجيل الكلام الذي يدور فيها حتى أستطيع سماعه لاحقًا؟!.

ظل عقلي يطرح التساؤلات بلا توقف.. فرَكنتها جانبًا وجلست أراسل حسابات إخبارية وحسابات شركات ومشاهير للحصول على وظيفة ثالثة لا تتطلب ساعات عمل.. وهو ما أفعله طوال الأيام السابقة بلا نتيجة حتى الآن.. إلى أن اقتربَت الساعة من الرابعة فجرًا وشعرت أن جفوني ثقلت كثيرًا.. لأترك كل شيء وأستلقي على المفرش.. وبسرعة.. وجدت نفسي أنزلق إلى عالم الأحلام.

استيقظْت في فترة الظهر حيث بدا اليوم هادئًا مملاً للغاية لا يختلف عن الأيام السابقة.. ورحت أنظر في هاتفي إن كان أحدهم رد على رسالتي من أجل الوظيفة الثالثة.. لكن لا شيء بعد.. وقد فضلت يومها البقاء في غرفتي مع هاتفي.. خاصة وأنني أحتفظ فيها ببعض المأكولات المعلبة على سبيل الطوارئ لو شعرت بالجوع

أثناء فترة سجني.. وفي وقت متأخر من الليل.. سأستكمل عملية مراقبة عمّي.. إننا نعيش في عالمين مختلفين.. فعندما أستيقظ ينام هو.. وعندما يستيقظ أنام أنا.. لذا لم أكن أقابله أو أراه إطلاقًا.

في مساء نفس اليوم.. وأثناء استعدادي لخوض مغامرة التجسس على عمّي والاطلاع على ما أسفر عنه الطُعم الذي وضعته في الباب الرئيسي الداخلي.. حدث ما لم أتوقعه أبدًا.. عندما سمعت صوت أحدهم يضع المفتاح في قفل غرفتي ليفتح لي الباب والساعة تجاوزت الثامنة مساءً بقليل.. إنها المرة الأولى التي يُفتح فيها باب الغرفة في ساعات حظر التجول بواسطة شخص آخر غيري.. وإذ بعمّي يقف عند عتبة الباب وينظر إليّ بنظراته العميقة الجامدة التي يستحيل أن أفهمها.. ثم أشار إليّ وهو يأمرني بصوته الخافت المبحوح أن أتبعه الآن وفوراً.. فنظرت إليه بقلق عجزت أن أخفيه.. آملة ألّا يكون قد كشف أمري.

تبغته في صمت.. مستسلمة لخطواته التي تقودني وسط ظلام لا يبدده سوى وهج خافت من شمعة كبيرة يحملها في يده.. كان واضحًا أنه يأخذني إلى الطابق الأسفل.. وإلى تلك الغرفة تحديدًا.. يا إلهي.. ما الذي ينوي فعله؟!.. قلبي يدق كالطبل.. ويدي ترتجف من الخوف.. و.. عندما اقتربنا من باب غرفة الأسرار هذه -كما أطلق عليها- رمقَني بنظرة صارمة وأمرني بصوت حازم أن أدخل.. فخارت قواي ولم أجرؤ على الاعتراض.. لأدخل مطأطأة الرأس مُدركة أنه كشف أمري.. ليتبعني هو إلى الداخل ويخرج مفتاحًا من جيبه كي يقفل الباب ثم يعيد المفتاح إلى جيبه.. أي أنني الآن محبوسة معه ومع ضيفيه اللذين كانا جالسين كأن شيئًا لم يحدث.. دون أن يلتفتا

إطلاقًا لما يجري!!.

قال عمّي بأسلوبه المقيت:

- أعلم أنكِ وضعتِ ورقة صغيرة مطوية على الباب الرئيسي الداخلي لتتحققي ما إذا كان هناك من يدخل أو يخرج من هنا.. لكنك تجهلين أنني شديد الانتباه.. وأعرف كل شبر في هذا البيت لأنني لا أغادره أبدًا.. وقد أدركت حينها أنك تتجسسين عليّ.. فأنتِ ما كنتِ لتضعي هذه الورقة المطوية، لولا شكوكك بوجود آخرين يدخلون البيت.. كما انتبهت إلى أنكِ بت تستيقظين متأخرة في الآونة الأخيرة.. مما يعني أنك تسهرين طويلاً.. التفسير واضح.. لقد وجدتِ وسيلة للخروج من غرفتك والتجسس علي.

لم يكن في كلماته ما يُعد دليلاً قاطعًا على كشف أمري.. إلاّ أنه كان يتحدث بثقة مخيفة وكأنه أمسك بي متلبّسة.. فشعرت بتوتّر شديد وأنا أنظر إلى رهبة الظلام والإضاءة الضعيفة المتراقصة التي تتسبب بها الشموع في الغرفة.. وإلى الطاولة الدائرية الصغيرة الموجودة في المنتصف حيث جلس ضيفاه.. كل منهما يرتدي ملاءة سوداء تشبه ما يُستخدم في صالونات الحلاقة.. لكنها طويلة وتغطي جسديهما بالكامل حتى تكاد تلامس الأرض.. وقد كانا ساكنين تمامًا ونظراتهما شاردة متجهة إلى الفراغ وكأن لا يعنيهما أبدًا ما يدور بيني وبين عمّي.. ثم ماذا عن بشرتهما الشاحبة وكأن الحياة انسحبت منهما منذ زمن طويل.. إنهما يبدوان كالتماثيل.. هل هما تمثالان بالفعل؟!.

تجاهلت كلام عمّي لأقول وأنا أرتجف بأكملي:

- أريـد أن أعـرف من هـذان الرجـلان بالضبط؟!.. ولماذا لا يتحركّان؟!.

رد بعبارة ساكنة باردة.. وكأنها خرجت من أعماق قبر لا على لسان بشري:

- لا يتحركّان لأنهما ميّتان.

شهقت وبسمَلت ذعرًا.. واضعة يدي على صدري متراجعة إلى أن التصقت بالباب.. ثم قلت وأنا أشير بيد مرتجفة إلى أحد الضيفين:

- ما تقوله مستحيل.. لقد رأيت هذا الرجل مساء أمس من فتحة قفل الباب وهو يتحدث.. فكيف تقول أنه ميت؟!.

قال وهو يأخذ مقعده في الطاولة المستديرة:

- استمعي إليّ جيدًا لأنني لن أعيد كلمة واحدة مما سأقوله.. وما سأقوله هو الحقيقة رغم غرابتها.

نظر إلى ضيفيه اللذين لم يبديا أي حركة أو ردة فعل.. ثم التفت إليّ وقال:

- كل ما تعرفينه عني أنني أعيش وحيداً.. لكنكِ لا تعرفين أنني تعلمت ممارسة الطب الشعبي منذ سنوات طويلة.. وبسبب متطلباته.. سافرت كثيرًا إلى القُرى المنعزلة في القارة الإفريقية.. وتعلمت الكثير من أحد زعماء القبائل الذي توطدت صداقتي به.. حيث أخبرني أسرارًا مرعبة لا يعرفها عامة الناس.

ظللت أستمع إليه صامتة متجمدة في مكاني.. ليكمل هو:

- لقد أخبرني زعيم القبيلة أن أجداده ظلوا يتساءلون لأجيال طويلة عن مصير ذاكرة الإنسان بعد موته.. وإن كانت تبقى حبيسة في خلايا الدماغ الميتة؟!.. وهل بالإمكان استخراجها لو كانت كذلك؟!.. إلى أن توصّلوا إلى خلطة من العقاقير الطبيعية المستخرجة من الأعشاب.. والتي تُحقن في دماغ الميت.. لتتدفق المعلومات إلى لسانه الذي سينطق بكل ما تحتويه ذاكرته.

رحت أتمتم بشفتين مرتجفتين ببعض الآيات القرآنية وعيناي لا تفارقان هذين الميتين -إن كانا كذلك حقًا- محاولة الالتصاق بالجدار أكثر حتى تمنيت لو أنه قادر على ابتلاعي.. هل يعقل أن يكون ضيفاه ميتين بالفعل؟!.. كل ما يقوله وما يبدو لي يؤكد ذلك.. جمودهما التام وشحوبهما ونحولهما.. والطريقة التي كان أحدهما يتحدث بها أثناء تجسسي عليهم.. وكأنه بلا مشاعر.. مثل الـ(زومبي) (26).

أما عمّي.. فلم يبدُ عليه أدنى اكتراث للحظات الرعب التي عشتها.. وكأن الرهبة نفسها لم يعد لها مكان في حياته.. إذ أكمل قائلاً:

- وقد تفوقت على صديقي زعيم القبيلة هذا.. لأنني توصلت من خلال قراءاتي وممارستي للطب الشعبي أن هناك منطقة محددة من دماغ الإنسان هي التي تحوي أدق وأسوأ أسراره وتفاصيل حياته التي لا يرغب أن يطّلع عليها أحد.. وهذا وفّر عليّ وقتًا هائلاً بدلاً من الاستماع إلى شريط حياة الميت بأكمله الذي ينتقل من ذاكرته إلى لسانه.

ثم أضاف وهو يشير إلى الشخصين الجالسين:

- هـذان الميتان أمامـك يتحدثـان ويخبراني بكل أسرارهمـا.. وأنا أجلس ساعات طويلة أستمع وأستمع.. إنها متعة يستحيل وصفها، تلاشت أمامها كل متع الحياة الأخرى.. فجلست مع موتى كثيرين طوال السنوات الماضية.. إلى أن تحول الأمر لما هو أشبه بالإدمان بالنسبة لي.. مما جعلني أهمل كل شيء آخر في حياتي مع مرور الوقت.. مثل تنظيف البيت.. ونظافتي الشخصية.. بل إنني أنسى أن آكل أو أشرب أحياناً.. أقولها من دون مبالغة.. لهذا أبدو شديد النحول.. إنّ ما أفعله شبيه بقراءة أفكار الناس.. لكن بعد موتهم.. وقد قمت بتجربة تلك الأعشاب على أحد الأحياء أيضًا.. لكنها عبثت بخلايا دماغه.. وخرج من هنا مجنونًا فاقدًا عقله.

قلت كمحاولة أخيرة للحفاظ على عقلي:

- لا أحد يستطيع إعادة الموتى إلى الحياة.. هذا مستحيل.

رد عمّي بصوته العميق الذي لا تتغير نبراته أبدًا وكأنه اكتسب هذه العادة من الموتى الذين يأتي بهم إلى بيته:

- جميع من آتي بهم إلى هنا موتى لن يعودوا إلى الحياة أبدًا.. إنني أستخدمهم كأدوات فقط حتى تخرج الكلمات من أفواههم.. وكأنهم جهاز تسجيل يستخرج ما تحويه الذاكرة.. إنني أتعامل مع أحد عمّال الدفن في المقابر وأدفع له بسخاء.. ولا أبالغ لو قلت أنّ أكثر من نصف راتبي التقاعدي يذهب إليه.. ما يعادل أضعاف راتبه الذي يستلمه نظير مهنته.. مما جعله شديد الوفاء لي.. هذا العامل هو من يشتري احتياجاتي بصورة دورية.. وهو من يأتي لي بجثث حديثة من المقابر لم يمضِ على وفاتها سوى يوم أو يومين بناء على طلبي..

ثم يهيل التراب على القبر ويعيده إلى ما كان عليه.. ولن يتصور أحد من أهالي الموتى للحظة أن القبر خالٍ في واقع الأمر.. من السهل القيام بذلك لعدم وجود حراسة على القبور.. وعندما تبوح الجثة بكل أسرارها وأشعر بالملل منها.. أطلب من العامل إعادتها إلى القبر ليأتي لي بغيرها.. انظري إلى الجثتين جيدًا.. ستلاحظين أن الأتربة تغطي وجهيهما.. فأنا لا أكترث كثيرًا لنظافتهما.

سألته بذعر وبصورة تؤكد أن الفضول البشري لا حدود له حتى في ظروف كهذه:

- ماذا عن الشموع؟!.. لماذا لا تستخدم الإضاءة العادية في البيت؟!.

رد بذات النبرة البغيضة:

- الإضاءة العاديــة تؤثــر على دمـاغ الميت بصـورة سلبية تجعلني عاجزًا عن استخراج الذاكرة منه.. أنا نفسي لا أعرف السبب.. لكني أشبّه الأمر بعدم قدرة الإنسان على النوم عندما تكون الإضاءة عالية.. لهذا يقوم بإطفاء الأنوار بالكامل قبل النوم.. أو الاكتفاء بإضاءة خافتة جدًا.. إنني أستخدم (طاحونة ضوئية)(27) لقياس قوة الضوء.. ووجدت أن ضوء الشموع الخافت هو الأفضل.. فاعتذت على إضاءة الشموع مع مرور الوقت ووجدتها مريحة أكثر للعين وللدماغ.. وبت أعتمد عليها في كل أنحاء البيت سوى بعض الغرف التي لا أدخلها أصلاً.. مثل غرفتك.

سألتَه بتوتر وما زالت الشكوك تراودني تجاه كلامه:

- لو كان كلامك صحيحًا.. كيف جعلت هذين الميتين جالسين هكذا بجمود من دون أن يقعا على الأرض؟!.. ولماذا لا يتعفن جسداهما؟!.

رد وهو ينظر إليهما بطريقة ودية وكأنهما صديقان عزيزان:

- إنني أضع الموتى في ثلاجة للحفاظ على أجسادهم من التحلل.. ولا أخرجهم منها سوى في ساعات استماعي لأسرارهم.. على أن أعيدهم إلى الثلاجة بعد ذلك.. وأنا أقوم بتغطيتهم بهذه الملاءات السوداء لأنها مثبتة بالكراسي -وبالتالي تقوم بتثبيتهم كذلك وتمنعهم من الوقوع- فيكونون وكأنهم جالسون حول المائدة.. مما يمنح استماعي لأسرارهم إحساسًا بالدفء والقرب.. كأن الحديث يجري في دائرة صغيرة لا يسمعها سواي.

قالها وهو ينهض تجاه أحد الضيفين -أو الجثتين على سبيل الدقة- وقام بنزع الملاءة عنه.. ليسقط على الأرض عاريًا في مشهد مرعب مقزز للغاية.. إن عمّي هذا رجل مختل عقليًا ولا شك.. وهذا ما جعلني أقولها بصوت مرتفع:

- أنت إنسان مختل العقل.. لا يمكن أن تكون طبيعيًا.. لا مكان لي في بيتك الملعون بعد الآن.. سأخرج من هنا فورًا.

نهض عمّي ليقترب مني وأنا أنظر إليه بذعر.. ثم قال:

- أنا أعرض عليكِ البقاء معي إلى الأبد وأن تساعديني فيما أفعله.. وستكونين تحت رقابتي الدائمة.. أي أنكِ لن تخرجي من البيت أبدًا إلى أن تنالي ثقتي كاملة.. إنني أدعوك إلى عالم قد تخشينه كثيرًا

في البداية.. لكنك ستعشقينه بعد أن تعتادي عليه.. أنا واثق من ذلك.

سألته بذعر:

- وماذا لو رفضت؟!.

وضع يده على كتفي فكانت هذه أول مرة يلمسني.. ثم قال:

- عندها لن تخرجي من هذا المكان على قيد الحياة.. فلا يمكن أن أخاطر بترككِ ترحلين.. ربما تفشين السر أو تقومين بإبلاغ السلطات.

قلت بصوت حاولت أن أجعله حازمًا لكنه خرج مرتجفًا:

- كل كلمة تقولها تؤكد كلامي بأنك مختل عقليًا.. سأخرج من هنا.. ولن أعود إلى هذا المكان الموبوء.. أعطني المفتاح الآن وفورًا.

تجاهل كلامي وظل ينظر إليّ بطريقته البغيضة الجامدة.. فطلبت منه المفتاح للمرة الثانية والثالثة.. ثم.. سمعت أحدهم يطرق باب الغرفة.. ليخرج عمّي المفتاح من جيبه.. ويتجه بهدوء كي يفتح الباب متجاهلاً نظراتي.. وما أن فعل.. فوجئت بشخص طويل ضخم الجثة يقف أمامي.. ليقول عمّي:

- قبل أن آتي بكِ إلى هذه الغرفة.. كنت قد اتصلت بالعامل وطلبت منه أن يأتي فورًا كي يساعدني على التخلص منك لو لم تمتثلي لأوامري.. وها قد وصل.

ثم وجّه نظره إلى العامل وقال له بلهجة آمرة:

- اقتلها.. لكن لا تهشم رأسها.. ستكون ضيفة عندي لفترة من الزمن بعد موتها.

اتجه العامل مباشرة تجاهي وأمسكني من رقبتي بيده الضخمة الخشنة.. في حين صحت بصعوبة وذعر:

- إنني ابنة شقيقك.. كيف تفعل هذا بي؟!.

رد وهو ينظر إليّ:

- لقد رأيتِ وعرفتِ نمط حياتي.. هل تظنينني سأهتم بِصِلة القرابة بيننا؟!.

أنا لم أتعرض للخنق من قبل.. إنه شعور مرعب يجعلك تفقد صوابك.. خاصة في أجواء شيطانية كهذه.. ولو أضفنا القوة الجسمانية لهذا العامل.. لأدركنا أن فرصتي في النجاة تساوي صفرًا.. لكن.. لأنني ظللت أحاول المقاومة.. كانت هناك لحظة خاطفة حرّك فيها العامل يده قليلاً كي يحكم إمساكه برقبتي ويكبح حركتي.. وهذه الحركة كانت كفيلة بأن يقرّب رسغه من فمي.. فعضضت رسغه بكل قوتي إلى درجة أنني اقتلعت جزءًا من لحمه وقطعت معه شريانًا(28) -أو ربما عدة شرايين- لأرى الدماء تسيل منه بسرعة رهيبة.. إذ خارت قواه فجأة.. وأفلتني وهو يترنح إلى أن وقع أرضًا.

أما عمّي.. فهو لم يكن بقوة العامل بالطبع.. إنه مجرّد رجل عجوز هزيل الجسم وإن كان مخيف المظهر.. بينما أنا في مقتبل العمر وإن كنت مجرد فتاة قصيرة هزيلة.. وهذا ما جعلني أركض تجاهه وأدفعه بكل قوتي ليصطدم بالطاولة الدائرية ويقع مع الميتين الآخرين على الأرض.. لأسمع عمّي يطلق شتائم بذيئة جدًا لا ينطق بها أي إنسان طبيعي تجاه ابنة أخيه.

عندها خرجت من الغرفة بسرعة بعد أن انتزعت المفتاح من القفل الداخلي.. لأغلق الباب وأسجن الجميع في الغرفة.. ثم ركضت صاعدة إلى غرفتي كي آخذ مفتاح السيارة وأنزل بعدها جريًا.. لأخرج من باب البيت الداخلي متجهة إلى الباب الرئيسي والأدرينالين ساعدني على مضاعفة سرعتي.. إلى أن وصلت إلى سيارتي المركونة خارج هذا المكان الملعون.. حيث ركبتها وانطلقت بها إلى.. إلى.. لا أعلم إلى أين.. المهم أن أكون بعيدة عن هذا الجحيم.

لم أشعر بالأمان إلاّ عندما وصلت إلى السوق المركزي للمنطقة حيث الناس والسيارات والمارة.. فشعرت بالارتياح وأنا أرى العالم الذي نعرفه ونعيشه كل يوم ولا ندرك نعمته -وفي نفس الوقت- أمسح فمي وأبصق كل ما قد أكون ابتلغتَه عندما قضمت رسغ ذلك العامل.. لتنفجر دموعي وقد تدفّقت معها كل انفعالاتي الدفينة، بسبب ما مررت به من أحداث يستحيل على العقل تصديقها في بيت عمّي الذي لا يمت لي بِصِلة سوى الاسم.

لقد أصبحت وحيدة تمامًا الآن.. ولا أملك سوى سيارتي التي ركنتها في مواقف السوق المركزي.. والأفكار المتضاربة تذهب بي من مكان إلى آخر وتتركني عاجزة عن التصرّف.. إلى درجة أنني قضيت الليلة في سيارتي محتملة حرارة الجو في الخارج.. فأستيقظ بين ساعة وأخرى غارقة في العرَق.. وأنزل من السيارة متجهة إلى السوق المركزي كي أحصل هناك على جرعة من الهواء البارد.. لم أكن وقتها قد فقدت الأمل.. وإنما نسيته تمامًا.. لأنني كنت

أخشى ألاّ تنتهي مغامرتي بهذه البساطة.. وأنّ بإمكان عمّي ملاحقتي -بوسيلة أو بأخرى- للتخلص مني.. كأن يرسل ذلك العامل -لو كان ما زال على قيد الحياة- ليتولى قتلي.. المشكلة أن حتى اللجوء إلى الشرطة ليس خيارًا مضمونًا.. لأنني لا أعرف ما الذي سأخبرهم به؟!.. ولا يمكن أن أنقل لهم القصة كما رأيتها وعشتها كونها خارج نطاق التصديق.. وربما تجعلهم يشككون في حالتي العقلية.. إنّ مجرد وجود رجل عجوز غريب الأطوار يعيش في بيت قذر، لا يكفي لإقناع الشرطة بقصة مرعبة كهذه.. ولا ننسى أنني -ربما- تسببت بقتل ذلك العامل اللعين.. الأمر الذي سيجرّني إلى ورطة جديدة تضاف إلى سلسلة المصائب التي تحيط بحياتي.

في اليوم التالي.. كنت أجلس على أحد المقاعد في السوق المركزي وأفكر بطريقة أكثر منطقية.. ووصلت إلى قناعة أنّ عمّي -على الأرجح- لن يقوم بمطاردتي.. فحتى لو أقنعت رجال الشرطة بقصتي وكشفوا الحقيقة كاملة.. لن تتجاوز تهمة عمّي انتهاك حُرمة المقابر والعبث بالجثث.. وهي جُنحة.. وليست حتى جناية(29).. هذا ما علِمته أثناء بحثي في شبكة (الانترنت).. أي أنّ عقوبته لن تتجاوز الغرامة المالية.. في حين لا يوجد أي دليل أنّه حاول قتلي بواسطة ذلك العامل.. لذا.. هدأت أعصابي كثيرًا.. وعزمت على تجاوز الأحداث الشيطانية التي عشتها في بيت عمّي.. لأوجّه تفكيري نحو مشاكلي.

فاتخذت قرارًا مصيريًا وجدته ضروريًا للغاية.. وقد يكون أملي الوحيد في النجاة من هذه المصائب.. إذ بحثت في وسائل التواصل الاجتماعي عمّن يشتري سيارتي.. وعمّن يمتلك شقة صغيرة أو حتى

غرفة للإيجار.. حيث تطلّب ذلك يومًا إضافيًا كنت قد شعرت خلاله برغبة مجنونة بالاستحمام.. أمّا طعامي.. فاقتصر على الخبز فقط.. بعدما أوشك المبلغ الضئيل الذي أملكه على النفاد.

لم يكن الأمر عسيرًا في العثور على مشترٍ لسيارتي.. ولحسن الحظ أن هذا قد حدث قبل صدور الأحكام القضائية بالحجز على ممتلكاتي وهي هذه السيارة فقط.. لتتم عملية البيع بمبلغ جيد للغاية.. يتيح لي التحرك.. وعندما يتوفر المال.. تنتهي معظم المشاكل.. إذ عثرت في نفس اليوم على شقة صغيرة بغرفة واحدة.. لأقوم بعدها تدريجيًا بخطوات استرداد حياتي.. فتواصلت مع كل الدائنين وأخبرتهم أنني عثرت على وظيفة ثانية وسأباشر العمل فيها خلال الفترة القادمة.. محاولة إقناعهم بالانتظار وأنني سأسدد المبالغ المطلوبة على شكل أقساط.. وهذا أفضل بكثير لي ولَهُم من أن أذهب إلى السجن.. فشعرت أنني أتصرف بطريقة عملية وبثقة لم أمتلكها في الأيام الماضية؟!.. ربما النجاة ممّا حدث في بيت عمّي كان له دور في هذه الثقة.. هكذا كنت أقول لنفسي.. وكان يتوجب عليّ أيضًا شراء بعض المستلزمات للشقة.. والثياب بالطبع.. لأنني خرجت من بيت عمّي تاركة كل ثيابي هناك.

بعد عدة أسابيع.. انتهت إجازتي.. وبدأت أذهب إلى العمل مستخدمة وسائل المواصلات الحكومية.. وهي ثقافة غير سائدة في مجتمعنا الخليجي كما يعرف الجميع.. لكن عجلة الحياة بدأت تدور على الأقل، وأنا ما زلت أتواصل مع الدائنين بصورة دورية وقد كسبت ثقة معظمهم، عندما بدأت بتسديد أقساط من ديوني بفضل المال الذي حصلت عليه نظير بيع سيارتي.

وبعدها بفترة قصيرة.. قمت بتوقيع عقد العمل لوظيفتي الثانية وبت مستعدة لمباشرة العمل قريبًا.. وقد اكتملت خطتي عندما تمكّنت من العثور على وظيفة ثالثة لا تتطلب ساعات عمل.. مجرّد إدارة حساب إخباري على وسائل التواصل الاجتماعي.. ستكون الوظيفتان مخصصتين لتسديد الديون.. ووظيفتي الثالثة لدفع إيجار السكن مع القليل جدًا المتبقي للأكل والشرب.

وبعد أقل من 6 شهور.. أخذت خطة إصلاح الدمار المادي تأتي بثمارها.. عندما أنهيت سداد ديون صديقتين.. مما منحني حرية مالية أكثر قليلاً.. وأنا مستمرة بالعمل في 3 وظائف عازمة على التخلص من بقية ديوني خلال أقل من 5 سنوات.. محتملة تضحيات كثيرة.. أبسطها استمرار اعتمادي الكامل على المواصلات الحكومية بما في ذلك من جهد وإرهاق.. مع تناول أبسط أنواع الطعام وفق ميزانيتي المحدودة.. أما الخروج والاستمتاع بوقتي أو شراء الكماليات، فهي أمور من عالم الخيال لا أستطيع مجرد التفكير فيها.. إذ كان عليّ التعامل مع نفسي كآلة عاملة فقط.. إلى أن تستقيم حياتي وأصل إلى حياة مادية مستقرة بلا ديون.

ولكن.. بعد مرور أكثر من سنتين على تلك الأحداث، تحسّن خلالهما وضعي المادي وقمت بإنهاء تسديد العديد من الديون.. لاحظت خللاً شديدًا بدأ يضرب استقراري النفسي.. فقد بدأت الكوابيس تزورني بصورة شبه يومية.. وجميعها تقريبًا تحوي فكرة واحدة -وإن كانت تختلف في بعض التفاصيل- إذ أجد نفسي في غرفة مغلقة وهناك مجموعة من الموتى يقتربون مني ويمدون

أيديهم إليّ محاولين خنقي.. ولست بحاجة إلى ذكاء لمعرفة سبب هذه الكوابيس.. خاصة مع الظروف المالية الصعبة التي عشتها والتي جعلتني أبيت في الشارع فعليًا مما ترك في داخلي آثارًا نفسية كنت واثقة أنني سأدفع ثمنها لاحقًا.. ولا ننسى حياتي الحالية غير الصحية التي باتت عبارة عن ساعات عمل بلا راحة.

كل هذا جعل صحتي النفسية تتدهور باستمرار رغم أن حالتي المادية والاجتماعية تتحسن يومًا بعد يوم.. وهذه مصيبة الأمراض النفسية.. أن جروحها لا تظهر للعين.. رغم آثارها الهائلة على من يعانيها.. فشعرت مؤخرًا أن الوقت قد حان لتلقّي الرعاية والاهتمام.. مما دفعني لزيارة مستشفى الطب النفسي والتوسل إلى الطبيب المختص كي يقبل بوجودي كنزيلة لفترة لا تتجاوز الأسبوع حصلت خلالها على إجازة من كل أعمالي.

وقد اقترح عليّ الطبيب النفسي أن أكتب تجربتي بغَض النظر عن تصديقه لي من عدمه.. مؤكدًا أن هذا سيساهم بصورة إيجابية في رحلة العلاج.. ولا أظنه سيصدق حرفًا مما كتبته عندما يقرأ كلماتي.. لكني لا أملك سببًا للكذب.. فقد عشت هذه التجربة بالفعل.. وقابلت فيها عمّي.. ذلك العجوز المخيف الذي يسمع أسرار الموتى من على أفواههم بطريقة شيطانية يقشعر جسدي من مجرد التفكير فيها.. ذلك المختل الذي عشت عنده أسوأ أيام عمري.. وختامًا أقول.. صدقوني.. عام 2024 لم أتعلم فيه.. بل تربّيت فيه من جديد.. وؤلِدت فيه من جديد.

الخاتمة

بما أن القصة قد وردَت إليّ بقلم مريضتي (كادي).. فقد ارتأيت العودة للتعليق على بعض أحداثها كما أفعل دومًا وكما ذكرت في مقدّمتها.. إن قصتها -كما ترون- مُحكَمة من حيث التسلسل.. ومتماسكة بشكل يثير الانتباه.. لكن لا يمكنني أن أجزم بصحتها بالطبع.. وقد انتبهت إلى ثغرة واحدة ذكرَتْها (كادي) بنفسها في سياق قصتها ولم تجب عليها.. وهي كيفية خروج عمّها من غرفة كانت هي قد فتّشتها بنفسها ولم تجد فيها أثرًا له أثناء دخولها بيته أول مرّة.

وعندما تحدثت معها عن هذه النقطة.. أجابت بأن تلك الغرفة المشؤومة كانت تحوي مرآة كبيرة تغطّي أحد جدرانها.. وأن تصميم البيت يوحي بأن هناك غرفة ما خلف المرآة.. ربما تكون هي الثلاجة التي يحتفظ بها عمّها بالموتى.. وربما اختبأ فيها عندما كانت (كادي) تبحث عنه.. قبل أن يقرر الخروج ومواجهتها لسبب لا نعرفه.. إنه جواب منطقي.. بالنسبة لي على الأقل.

أما بالنسبة لي كطبيب نفسي.. فلَم يعد يخفى عليكم أنني سمعت تجارب كثيرة بمنتهى الغرابة وعشت بعضها بنفسي حيث سردتها في الأجزاء السابقة من هذه السلسلة.. ولم أعد أستبعد شيئًا.. لهذا استبدّ بي الفضول لمعرفة مدى واقعية القصة.. فطلبت من (كادي) أن ترويها لي مرة أخرى بلسانها.. ولم أجد في حديثها أي تناقض مع ما خَطّتهُ على الورق.

لألجأ إلى الخطوة التالية.. عندما أخذت منها عنوان بيت عمها

وذهبت لزيارته.. مؤكدًا لها أن لا علاقة لتصرفاتي هذه بمصداقية قصتها.. وإنما من باب الفضول الشخصي فحسب وشغفي الدائم بعالم الماورائيات.. رغم أنني لا أعرف ما سأجنيه لو قمت بزيارة البيت، فقط لكي أراه من الخارج.. ربما من أجل إثارة المزيد من الخيال في عقلي.

وقد كان البيت كما وصفَته (كادي) بالفعل.. قديمًا متهالكًا مظلمًا تكاد لا تصدّق أن أحدًا يعيش فيه.. فسألت أحد الجيران مدّعيًا أنني أرغب في شرائه.. ليخبرني أن البيت ملك لرجل كبير في السن غريب الأطوار يعيش فيه وحيدًا ولا يخرج منه تقريبًا.. وهذا كل ما يعرفه عنه.. لكني لم أطرق الباب.. ولم أحاول الإقدام على أي تصرف قد يدمر حياتي.. إننا نتحدث هنا عن رجل عجوز يعيش وحيدًا ولا يرغب بالتواصل مع أحد.. هكذا يراه القانون.. لكن.. هل هذا يعني أن قصة (كادي) صحيحة؟!.. لا أعلم.. ويستحيل أن أجزم بذلك.

لذا سأكتفي بتأدية واجبي وعملي وأتحدث عن الحالة النفسية لـ(كادي).. فهي تعاني (اضطراب القلق المعمّم)(30).. كيف اكتشفت ذلك؟!.. لأن (اضطراب القلق المعمّم) يكون فيه القلق شاملاً مستمرًا وغير مرتبط بموقف محدد.. وإنما يلازم المرء معظم الوقت ويغطي مختلف جوانب حياته.. بينما في الأنواع الأخرى من القلق يكون التركيز على مواقف أو مُحفزّات محددة يعيشها -أو يتوقع أن يعيشها- الإنسان.. ولهذا سأقوم بعلاج (كادي) على هذا الأساس.. لماذا تعاني من هذا الاضطراب؟!.. لا أعلم.. ربما بسبب الوضع المادي البائس الذي عانته لفترة ليست بالقصيرة.. أو ربما بسبب عامل وراثي.. أو حتى بسبب ما مرّت به من أحداث في بيت عمّها لو كانت

قصتها حقيقية.

المهم أنني أوصيتها بالاسترخاء في المستشفى والاستمرار بكتابة خواطرها وقراءة بعض الكتب الملهمة مع أخذ الأدوية التي كتبتها لها والمداومة عليها حتى بعد خروجها من المستشفى.. إنها تحتاج إلى مساعدة ودفعة معنوية.. وها قد قمت بمساعدتها فعليًا.. آملاً أن أراها بحالة نفسية أفضل وأن تلتزم بالبرنامج العلاجي الذي وضعته لها.. بعيدًا عما ذكّرتهُ عن تجربتها المرعبة.. وعمّها المختل.

الدكتور (.....)

الاقتراب من الموت

تحكيها (نور)

العمر 20 سنة

فترة النوبة الصباحية.. حيث ترى الزوار وتضطر إجباريًا أن تلاحظ ما يصدر عن بعضهم من سلوكيات أو تصرّفات مؤلمة تجعلك تستحضر في ذهنك الصورة النمطية الشائعة لمستشفى المجانين.. وبالطبع هذا التصور سطحي وساذج.. فالجنون كلمة لا وجود لها في لغة العلم ولا يتلفظ بها الطبيب النفسي مطلقًا.

وقد اعتدت الانغماس في العمل خلال النوبات الصباحية التي ألتقي خلالها بمختلف المرضى ممن يعانون كل ما قد يخطر في البال من اضطرابات نفسية.. إلّا أن أسلوب العلاج يختلف من شخص لآخر تبعًا لعوامل فردية وبيئية ووراثية -حتى لو تشابه المرض- فنحن نتعامل هنا مع خلل في إنتاج النواقل العصبية في الدماغ أو خلل في المسار (الكهربائي-الكيميائي) بين مناطق معينة من الدماغ.. مما يتسبب بمشاكل في المشاعر والسلوك.. أي أنّ الاضطرابات النفسية تنبع من الدماغ وآلياته الدقيقة.. ولا صلة لها بالقلب كما قد يظن البعض.. إنها حقيقة علمية راسخة يعرفها كل علماء النفس في العالم.. ومع ذلك ما يزال هناك من يصر على أن القلب هو مصدر المشاعر استنادًا إلى اعتبارات دينية تُفسّر بطريقة خاطئة.. أو مجازية اعتدنا استخدامها عند الحديث عن الحب أو الكراهية أو الحزن.

كنت في صباح ذلك اليوم جالسًا في مكتبي أقرأ تقارير المرضى وأسأل الممرضة عن بعض الحالات للاطمئنان على سير علاجها.. وفي نفس الوقت أستقبل الحالات المرضية التي تنتظر دورها في الخارج.. إلى أن انتهيت من أحد المرضى الذي وصفت له مهدئات مناسبة لحالة الاكتئاب التي يعانيها.. لأمسك بعدها بالفأرة وأنقر على زر رقم الانتظار التالي الذي ظهر في الشاشة على الخارج.. إنها فتاة تُدعى (نور) كما يظهر اسمها على شاشة الحاسوب بعد أن قدّمت إثباتها الشخصي في قسم الاستقبال قبل الدخول.. تمامًا كما يحدث في معظم المستشفيات.

كنت أسمع وقْع خطواتها المتسارعة تقترب من غرفتي.. وكأنها تخشى أن يطول انتظاري فأصاب بالملل وأضغط زر الاستدعاء التالي متجاوزًا دورها.. لكني لن أفعل ذلك بالطبع.. لا داعي لهذه العجلة.. إنهم مرضى وليسوا مجرد أرقام علي الانتهاء منها.. ويجب أن أتعامل معهم بضمير المهنة.

وصلَت الفتاة إلى غرفتي التي دخلَتها مباشرة وهي تطلب مني أن أسمح لها بإغلاق الباب بسبب بعض الضجيج في الخارج والذي يشتت انتباهها على حد قولها.. فأشرت لها بيدي أنْ لا بأس.. لتتجه نحو الكرسي المقابل لمكتبي وهي تطلق زفرة طويلة تحمل شيئًا من الضيق.. كما لو أن انتظارها في صالة الاستقبال قد أصابها بالملل.

سألتها عن سبب زيارتها لمستشفى الطب النفسي.. لترد بهدوء وكأنها ترغب بخوض حوار طويل معي:

- إنني أعاني مشكلة حقيقية يا دكتور.. ولا أعرف إذا كان مجيئي

إلى هنا هو الخطوة الصحيحة أصلاً رغم أنني طالبة علم نفس بالمناسبة.. ومع ذلك لا أستطيع تصنيف قصتي إن كان لها مكان في عالم الطب النفسي أو أي من فروع الطب الأخرى.. عمومًا.. أرجوك أن تنصت إليّ حتى النهاية قبل أن تدلي برأيك.. وتأكد أن ما سأخبرك به سر لا يعلم به أحد على الإطلاق.

أكذت لها أن ما ستقوله لن يخرج من مكتبي أبداً.. وهنا أكاد أسمع القارئ يضحك ساخرًا وهو يقول في قرارة نفسه: ((كيف تعدها بذلك وأنت تخبرنا بالقصة الآن؟!)).. ولهذا القارئ المتصيّد أقول أنكَ لن تعرف عن الفتاة سوى اسمها الأول.. وكأنني أخبرك أن أحد الأشخاص الذين أعرفهم يعاني خلافات زوجية كثيرة.. فهل ستعرف من هو هذا الشخص فقط لأنني أخبرتك باسمه الأول؟!.. لذا أرجو أن تظل الثقة بيننا وأن يدرك القارئ أنني لا أخون ثقة المريض أبداً.

أكمَلَت الفتاة قائلة بهدوء متوتر:

- لقد مررت بعدة حوادث غامضة.. بدأت جميعها بشكل مفاجئ منذ أكثر من شهرين.. أوّلها تلك الأحلام المتكررة التي أرى فيها نفسي أستيقظ من النوم وأمارس أنشطتي اليومية المعتادة.. قبل أن أكتشف أن هذا الاستيقاظ كان وهميًا وأنني ما زلت داخل الحلم.. وهي أحلام مزعجة جدًا بالمناسبة.. إلى درجة أنني أستيقظ كل مرة مصابة بالإرهاق.. وأنا أدرك جيدًا أن هذا يُسمّى بـ(الاستيقاظ الكاذب)(31) وأنه لا يتعلق بالطب النفسي.. وإنما بـ(طب النوم)(32).. لكن ليست هذه المشكلة.. وإنما ما يحدث حال استيقاظي الحقيقي وعودتي إلى الواقع.. ففي كل مرة يهبط السرير فجأة..

وكأن شخصًا ما تمدّد بجانبي.. مما يجعلني أنهض من السرير مذعورة وألتفت حولي لأجد المكان خاليًا.. وقد ظننت أن هذا يرتبط بشكل أو بآخر بتلك الأحلام المتكررة.. فبدأت بأخذ أدوية منومة ساعدتني كثيرًا على الغرق في النوم العميق والتخلص من أحلام (الاستيقاظ الكاذب) هذه.. لكن ظل استيقاظي مخيفًا كل مرة بسبب ذلك الشعور المريب بهبوط السرير.. وكأن من يفعل ذلك شبح أو جن يريد لفت انتباهي وتأكيد وجوده في عالمي.

قلت مستغربًا:

- ما علاقة هذا بأي أمراض أو اضطرابات نفسية؟!.. أنتِ هنا في مستشفى الطب النفسي.

احتدّت ملامحها وهي تقول غاضبة وكأنني طعنت في ذكائها:

- أعلم جيدًا أين أنا.. اسمعني وستفهم.

حسنًا.. لقد تسرعت في كلامي.. ولا أظن أنني ألام على ذلك.. فالكثيرون يأتون إلى مستشفى الطب النفسي للحديث عن مشاكلهم العاطفية أو حياتهم العائلية.. أو حتى لإثبات أن لهم بصيرة معينة تجعلهم على تواصل مع الجن أو الأشباح.. لذا تمالكت نفسي غير متأثر بعصبية (نور) بعد سنوات طويلة اكتسبت خلالها كل هذه الحكمة في التعامل مع الناس عمومًا والمرضى النفسيين خصوصًا.

وعندما لاحظت (نور) هدوئي الشديد.. غمغمَت قائلة:

- المعذرة على عصبيتي.. لكن دعني أشرح لك.. لأن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد.. بل ازدادت سوءًا منذ فترة قصيرة.. عندما

كنت أجلس في غرفتي أستذكر دروسي بصمت والأمور تسير في أفضل حال.. قبل أن تحدث الكارثة.. إذ شعرت فجأة أنني فقدت قدرتي على التحكم في تصرفاتي.. وكأن أحدهم يمتلك جهاز تحكّم عن بُعد يوجّهني من خلاله كما يشاء.. فوجدت نفسي أنهض متجهة إلى أدوات التجميل التي أحتفظ بها في غرفتي.. ومن هناك أمسكت بمقص صغير.. ثم غرسته بكل قوتي في فخذي وأنا أصرخ ألمًا بمنظر غريب مرعب.

أثار كلامها اهتمامي واستغرابي كثيرًا.. فقلت مستفهمًا:

- لا أحد يفعل شيئًا كهذا من دون سبب.. إلّا لو كان مصابًا باضطراب نفسي حاد مثل الـ(فِصام)(33).

قالت (نور) بصبر:

- لقد ذكرت لك في البداية أنني طالبة علم نفس.. وأؤكد لك أنني لا أعاني أعراض الـ(فِصام).. على الأقل لم يحدث لي شيء كهذا من قبل.

سألتها متجاوزًا الخلاف حول هذه النقطة:

- ماذا حدث بعد ذلك؟!.

أجابت بحسرة:

- لقد سيطر عليّ الذعر لحظتها أكثر من ألم الطعنة.. رغم أنّ فخذي كان ينزف بغزارة وقد تلطّخت البيجامة بلون أحمر قانٍ.. ولحسن الحظ كان البيت خاليًا وقتها.. بعد أن خرج الجميع في زيارة عائلية لبيت عمتي.. فتماسكت سريعًا ولففت فخذي بمنشفة، ثم خرجت

مترنحة وأنا أعرج من شدة الألم متجهة إلى المستشفى.. وطوال الطريق كنت أتحدث مع نفسي بصوت مرتفع متسائلة عمّا دهاني.. مصدومة من ذلك الشيء المجهول الذي سيطر على إرادتي وقادني لأقوم بهذا التصرف غير المفهوم.

سألتها مستوضحًا:

- عندما طعنتِ نفسك بالمقص.. هل كنت تملكين وعيك؟!.. أم كنت مستيقظة لكنك تتصرفين بلا إدراك مثل الآلة؟!.

أعجبها سؤالي كما يبدو.. فأجابت بحرارة:

- سؤالك شديد الأهمية.. الواقع أنني كنت أملك وعيي بالكامل، وأدرك كل خطوة أقوم بها تجاه نفسي.. لكن بدا وكأن إرادتي تحت سيطرة شخص آخر.. مما سبّب لي رعبًا هائلاً بالطبع.. فقمت بقراءة بعض الأدعية والآيات القرآنية ظنًا أنني متلبّسة بالجن.

ظللت مُنصِتًا بتركيز.. مانحًا حديثها كل اهتمامي.. وهي تستطرِد قائلة:

- بعد أن قاموا بعلاجي وضماد جرحي.. كان عليّ تفسير ما حدث لمحقق المستشفى.. فاختلقت له قصة بطلها ابن خالتي الصغير الذي قام بهذا التصرف على سبيل المزاح.. غير عالم بفداحة فِعلَته إلاّ بعد أن رأى المقص مغروسًا في فخذي والدماء تنزف بلا توقف.. ولحسن الحظ أن المحقق أخذ بكلامي.. لأعود إلى البيت وأنا في حالة سيئة جدًا.. وقد قررت إبقاء الأمر سرًا وألّا أخبر به أحدًا من أفراد عائلتي.. إلاّ أن هذه لم تكن سوى البداية.. إذ تعرضت بعدها بأيام قليلة إلى

مصيبة ثانية.. عندما كنت جالسة في غرفتي أسرّح شعري.. لأصاب بتلك الحالة نفسها من فقدان السيطرة على تصرّفاتي.. ورحت بأظافر يدي اليمنى أخدش ذراعي الأيسر بطريقة جنونية.

قالتها وكشفت لي عن ذراعها الأيسر لتثبت كلامها.. فرأيت بقايا آثار خدوش عميقة للغاية بالفعل.. كان واضحًا أن ما تفعله شكل من أشكال إيذاء النفس.. وهو اضطراب نفسي لا تخطئه العين(34).. لكنني لم أشأ التسرع في الحكم.. فآثرت أن أتركها تواصل حديثها أولاً.. ويبدو أنها انتبهت إلى ذلك.. فأكملت بارتياح لحسن استماعي:

- كنت أشعر بارتباك هائل يستحيل وصفه وأنا أبكي وأتألم بشدة.. وفي نفس الوقت أخدش نفسي وأبذل جهدًا خارقًا كي لا أصرخ، خوفًا من أن ألفت انتباه أفراد أسرتي.. وحالما عادت إليّ إرادتي وتمكّنت من التوقف عن هذا الفعل.. انهرت باكية على السرير وأنا أتساءل بذعر عما يجري لي مؤخرًا.

نزعت نظاراتي بحركة تمثيلية أحبها وتشعرني بالحكمة وعمق الشخصية.. وأنا ما زلت أنظر إلى (نور) باهتمام.. لتكمل قائلة:

- في نفس الليلة.. وبعد أن قمت بعلاج آثار الخدوش بنفسي بوضع بعض المطهرات والضمادات وإخفاء ذراعي عن والديّ وعن شقيقتي الكبرى والوحيدة.. ذهبت إلى الفراش.. إذ لا يوجد أفضل من هذا المكان للتفكير.. خاصة وأن أفراد أسرتي ليسوا من النوع الذي سيتركني في حالي لو جلست طويلاً لوحدي في غرفتي كوننا أسرة مترابطة جداً.. فكنت أفكر بالأحداث التي عشتها في الفترة الماضية وكيف تفاقمت فجأة وإن كان هناك ما يربط بين كل هذا..

لكني نمت من دون أن أعثر على إجابات عن تساؤلاتي.

سكتت للحظة وكأنها ستنتقل إلى موضوع آخر.. ثم قالت مرتعبة:

- لن تصدق لو أخبرتك ما حدث ليلتها أثناء نومي.. فقد حلمت بامرأة عجوز سوداء البشرة بيضاء الشعر.. طويلة القامة ترتدي فستانًا أسود وملامحها مرعبة جدًا والحق يقال.. خاصة مع ضحكتها الجامدة الثابتة التي تكشف عن فم بلا أسنان.. والتي لا تشبه ضحكات العجائز إطلاقًا.. لقد كان السواد يطل من كل شيء منها.. إلى درجة أنني أطلقت عليها اسم (سوداء) مجازًا.. المهم أنها أخبرتني في الحلم بأنها هي التي تقف خلف كل ما يحدث لي.. وأنها -بوسيلة ما- تمكنت من السيطرة على إرادتي في الحادثتين السابقتين.. بل هي أيضًا التي كانت تضع ثقلها على فراشي حال استيقاظي من النوم.. المشكلة في الأحلام أنها مشوشة للغاية -كما تعلم- ويستحيل أن تنتبه إلى كل كلمة تقال فيها.

قلت متنهدًا وأنا أعلم أن ما سأقوله مكررًا لي ولكم:

- الأحلام لا تؤكد أي شيء يا (نور).. إنها فقط نتاج خبراتنا وحياتنا وعُقدنا النفسية ومشاكلنا.. كلها توضع بما هو أشبه بالخلاّط وتأتينا على صورة أحلام.. من الواضح أن (سوداء) هذه -كما أطلقتِ عليها- ابتكرها عقلك الباطن للعثور على تفسير يقبله عقلك الواعي لتصرفاتك الغريبة.

ردت معترضة:

- غير صحيح يا دكتور.. لأن هذا لم يكن الحلم الوحيد.. فقد

ظلّت (سوداء) تظهر في أحلامي بصورة شبه يومية حتى حفظت شكلها.. كما أن تصرفاتي في فترات استيقاظي ظلت تسوء وتسوء.. فقد ارتكبت أفعالاً عديدة مروّعة في غرفتي التي بت أقضي فيها جُل وقتي، معللة لأفراد أسرتي أن الدراسة باتت تشغلني كثيرًا.. وأحيانًا كنت أخرج مدعية أنني سأقضي بعض الوقت مع صديقاتي ظنًا أن خروجي من البيت قد يبعد عني ما أتعرض له.. لكن هذا زاد من حجم المصيبة.

سكتت للحظة.. ثم أكملت بخجل:

- لقد تصرّفت ذات مرة باستهتار مع مجموعة من الشباب في أحد المجمعات التجارية عندما رحت أمازحهم بطريقة وقحة -رغم أنني لا أعرفهم أصلاً- وهو ما يخالف سلوكياتي تمامًا.. كما قذت سيارتي باستهتار أكثر من مرة معرضة نفسي وأرواح الناس للخطر من دون وجود أي دوريات للشرطة لحسن الحظ.. لأقرر في النهاية أن أظل في غرفتي وأقفل الباب على نفسي إلى أن أفهم ما يحدث لي.. فقد كنت أخشى أن تتطور الأمور وأقوم بإيذاء أفراد أسرتي الذين باتت الشكوك تراودهم نتاج تصرفاتي الغريبة.. لكني ظللت ثابتة أمامهم مؤكّدة أنها الدراسة فحسب.

سكتت بعض الوقت وأنا ما زلت أنظر إليها.. ثم أردَفَت بيأس وبكلمات مضطربة:

- لقد تراجع مستواي الدراسي كثيرًا في ظل عقلي المشتت الذي جعلني أعيش في حالة ترقّب طوال الوقت.. فلا أعرف متى ستصيبني نوبة (جهاز التحكم عن بعد) هذه -كما أطلق عليها-

لتجبرني على التصرف بطريقة معاكسة لطبيعتي.. هناك مليون مصيبة قد أقوم بها لو كان هناك شيء شرير لا أعرف ماهيته يتحكم في سلوكياتي ويوجهها كما يشاء.. ثم إنني لا أعرف شيئًا عن (سوداء) هذه.. هل هي فعلاً لها علاقة بما يحدث لي؟!.. أم أنها مجرد حلم متكرر يعكس الواقع المضطرب الذي أعيشه كما تقول؟!.. لا أعرف.

قلت متنهداً:

- كما ذكرت لك منذ قليل.. كل ما تمرّين به يا (نور) هو أعراض الـ(فِصام).. واضح أنكِ تعانين فِصامًا حادًا.. حتى لو كنتِ تعيشين قبلها حياة طبيعية بلا اضطرابات أو مشاكل.. فمن الممكن أن يكون الأمر وراثيًا.. أحيانًا العامل الوراثي يتخطى أجيالاً ثم نراه فجأة في أحد الأحفاد وفي وقت متأخر من حياته.

قالت والحيرة تغلبها:

- لكن ما أعيشه يبدو حقيقيًا للغاية.. إنني أرى أحيانًا أشياء مرعبة في منامي تجعلني أصحو مذعورة وقلبي ينبض بعنف شديد.. وأنا أدعو الله -سبحانه وتعالى- أن يرأف بحال الجميع كي لا يروا ما رأيته.. أتحدّث هنا عن أشكال بشرية مرعبة من الصعب وصفها.. مع (سوداء) التي تظهر في جميع كوابيسي بصورة يومية تقريبًا.. وليتها اكتفَت بذلك.. فقد خرَجت من كوابيسي.. وأصبحت أراها في عالم الواقع يا دكتور!!.

وضعت نظاراتي على المكتب وقد ابتسمت في أعماقي.. فما تقوله ليس مفاجأة.. إنها أعراض الـ(فِصام) بالفعل.. لكني تركتها تكمل

لتقول بحرارة:

- صدّقني.. لقد أصبحت أرى (سوداء) أثناء استيقاظي أيضًا.. وباتت تلازمني معظم الأوقات بمظهرها المرعب.. حيث تقف صامتة في غرفتي لا تفعل سوى التحديق بي.. وهذا ما يجعل نظرات الذعر تلازمني طوال الوقت.. إن ممارسة حياتي الطبيعية باتت ضربًا من الخيال.. هل شاهدت فيلم (العقل الجميل)(35)؟!.. أتمنى أن تكون قد فعلت.. فهذا يجعلك تفهم جيدًا ما أمر به.. الفارق أن (سوداء) لا تتحدث معي أبدًا كما يحدث في الفيلم.. وإنما تكتفي بنظرات الحقد التي تنذر بالويل.

أعرف الفيلم طبعًا.. لكن لا أحتاج إليه كمثال كوني تعاملت مع حالات (فِصام) عديدة في السابق.. إلاّ أنني لم أعلّق على كلامها.. وإنما ظللت أنظر إلى ملامحها التي ازدادت تجهّمًا وهي تكمل:

- لقد أخبرتك قبل قليل أنني كنت أستيقظ أحيانًا من نومي لشعوري بوجود أحدهم ممددًا بجانبي.. إذ لم يكن الأمر في السابق يتعدى إحساسي بثقل (سوداء) على الفراش.. لكن الآن تغيّر كل شيء.. فقد صرت أشعر بثقلها وأراها في الوقت نفسه مستلقية ملتصقة بي في الفراش.. وأحيانًا أجدها واقفة في زاوية الغرفة تحدّق بي بعينين جامدتين لا ترمشان أبدًا.. وسأترك لمخيلّتك حالة الرعب التي أعيشها كل مرة.

سكتت للحظة.. ثم أكملَت بسرعة وكأنها تريد إضافة نقطة مهمّة.. لتقول:

- تخيّل أن كل هذا يحدث بدون علم أفراد أسرتي.. مما زاد من

معاناتي كوني أحتاج مساندتهم.. وفي نفس الوقت أعجز عن إخبارهم بما يحدث لي كي لا أثير قلقهم.

صمتت قليلاً.. وأنا ما زلت أنتظر منها أن تنتهي محاولاً منحها مساحتها كاملة كي تخبرني بكل ما تود قوله.. ثم سألتني فجأة بقلق:

- دكتور.. هل تعتقد أنني أمتلك القدرة على التواصل مع الموتى؟!.

أجبتها بجدية كي لا تشعر أنني أسخر من كلامها:

- لقد رأيت في حياتي الكثير.. بل أنني عشت بعض التجارب التي تتحدى كل قوانين العلم.. ورغم ذلك.. لا ألجأ إلى أي تفسير يتعلق بالغيبيات لأنني -من خلال مهنتي كطبيب نفسي- أخضع للمنطق العلمي الصارم.. وأذكّر نفسي أنه من السهل جدًا أن يتم خداع العقل.. حتى من قبل صاحب العقل نفسه.

لم ترد على كلامي.. وإنما التزمَت الصمت وكأن ليس لديها ما تقوله.. فالتفتُّ بدوري إلى شاشة الحاسوب وأنا أقول:

- ما تمرّين به هو حالة (فِصام) واضحة المعالم يا (نور) -حتى لو لم يعجبك كلامي- لذا سأكتب لك بعض الأدوية التي من شأنها التخفيف من الأوهام والهلاوس التي تعيشينها.. فلا شك أنها كذلك.. إضافة إلى أقراص تساعدك على النوم العميق بعيدًا عن أي اضطرابات.. وسنرى كيف يكون تأثير العلاج بعد شهر من الآن.

وكما هو الحال مع عدد ليس بالقليل من المرضى النفسيين.. خرجت (نور) من مكتبي غاضبة غير مقتنعة.. هكذا هم معظم المصابين بمشاكل نفسية.. جميعهم يريدون حلولاً سحرية لحظية

وهذا مستحيل بالطبع.. لكنا لسنا في مطعم كي أحرص على خروج الزبون راضيًا.. فالمهم تشخيص الحالة ووصف الدواء المناسب.. والباقي على المريض في التزامه بالعلاج.

مرت الأيام التالية هادئة للغاية بلا أحداث تذكر.. حتى على الصعيد العائلي.. فبعد وفاة والدتي -رحمها الله- وبعد أن قام أشقائي ببيع بيت العائلة.. تناقصت الزيارات الاجتماعية كثيرًا.. وبات تواصلي مع أشقائي وشقيقاتي لا يتجاوز ذلك الـ(قروب) في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. حيث أضع فيه تعليقًا بين الحين والآخر لأؤكد لهم أنني موجود بينهم.

أما على الصعيد الشخصي.. فقد كانت نوبات الحزن تداهمني كلّما تذكّرت أنني تجاوزت الخمسين.. وأصبحت في نظر الكثيرين رجلاً كبيرًا في السن.. إنه شعور مؤلم بلا شك.. إذ لم تعد خيارات الحياة متاحة لي كما كانت من قبل.. وهو ما قادني إلى انتكاسة نفسية.. إنه التناقض الإنساني الأبَدي.. تختار الوحدة.. وفي نفس الوقت.. تتمنى ألاّ تكون وحيدًا.

بعد حوالي شهر.. زارتني (نور) في نوبتي المسائية هذه المرة.. وقد كانت برفقة شقيقتها التي تكبرها بسنتين كما علمت فيما بعد.. حيث بدا واضحًا أنهما جاءتا على عجالة.. إذ كانت كل منهما ترتدي العباءة الخليجية السوداء وتترك شعرها ينسدل بإهمال.

بالطبع لم أتذكرها في البداية.. لكنها أعادت شرح بعض تفاصيل اللقاء السابق مع كلامها المتعلّق عن قدرتها على الاتصال بالموتى.. فتذكّرت كل شيء.. لتقول بصوت مضطرب وبكلمات متوسّلة:

- دكتور ساعدني أرجوك.. لقد ازدادت حالتي سوءًا وانحدرَت حياتي إلى الأسوأ.. واضطررت -نتيجة ذلك- إلى إيقاف قيدي الدراسي بعد أن تراجع تحصيلي العلمي كثيرًا.. إنني لا أنام جيدًا.. فالكوابيس باتت تطاردني أكثر من السابق.. و(سوداء) اللعينة هذه لا تتوقف عن اقتحام حياتي وبسط سيطرتها علي.. سواء في أحلامي أو أثناء استيقاظي.. إنها تجبرني على ارتكاب أفعال سيئة جدًا.. لقد امتلأ جسدي بالخدوش.. ولو كنت تتذكرني عندما رأيتني في المرة الأولى.. ستلاحظ أنني فقدت الكثير من وزني بسبب حياتي المضطربة.. حتى والديّ انتبها للتغييرات التي أصابتني.. وراحا يسألاني باستمرار وقلق عما يجري لي.. غير مقتنعين أن السبب هو دراستي الجامعية فقط كما أردّد لهما.. فأخبرتهما أنني أمر بحالة نفسية سيئة لا أفهم سببها.. لكنني اضطررت أن أخبر شقيقتي بما يحدث لي بعدما أثقل كاهلي الاحتفاظ بهذا السر.

سألتها مستغربًا:

- ماذا عن الدواء؟!.. هل تأخذينه بانتظام؟!.

هزّت رأسها إيجابًا من دون إجابة.. لتقول شقيقتها متهكّمة:

- من الواضح أن الدواء الذي وصفتَه لها لم يترك أي تأثير إيجابي.. وإنما جعل حالتها أسوأ.

لم أهتم لكلامها.. وإنما قلت مخاطبًا (نور) بصوت العقل:

- قبل أن نتحدث عن علاجك.. يجب أن تتذكري أن (سوداء) هذه شخصية وهمية غير موجودة سوى في عقلك.. وأنّ....

قاطعتني بعصبية وهي تقول:

- إنها حقيقية يا دكتور.. حقيقية رغم أنفك.. فكل ما يحدث لي يعاكس كلامك.

قلت بهدوء:

- لأن عقلك يخبرك أنها حقيقية.. عقلك المصاب بالـ(فِصام) يخدعك.. ومهمتنا إرجاعه إلى الصواب.

سألتني وهي تكاد تنهض لتلطمني على وجهي:

- وكيف ستفعل ذلك؟!.. إنني أفقد حياتي تدريجيًا بهذا المعنى الحزفي.. بت عاجزة عن الدراسة والنوم والراحة والاطمئنان.. وفقدت حتى شهيتي للأكل.. فما الذي سيكون التالي؟!.

سكتّ طويلاً عاجزًا عن الرد.. ثم قلت بعد تفكير:

- سأقوم بتغيير الدواء يا (نور).. وسنرى مدى تأثيره عليك.

نظرت إليّ بضراعة وهي تقول متوسلة:

- لا تكتفي بذلك أرجوك.. لا أريد أن أعيش لحظات الرعب هذه مع (سوداء) التي سوّدت حياتي بأكملها.. أرجوك يا دكتور أن تعثر على حل أفضل من هذا.

قلت بأسف:

- الطب النفسي ليس سحرًا يا عزيزتي.

ظلت تنظر إليّ برجاء وشقيقتها تترقب ما سأقوله.. مما وضعني

تحت ضغط شديد والحق يقال.. فتنهّدت وقلت:

- حسنًا يا (نور).. ماذا لو طلبت منكِ المكوث في المستشفى بضعة أيام؟!.. سأتمكن بهذه الطريقة من متابعة حالتك بصورة مستمرة وعلى مدار الساعة.. خاصة وأن بإمكانك أن تتصرفي هنا على طبيعتك ولا تخفي شيئًا عن أحد كما هو الحال في البيت.. وستجدين الدعم النفسي كذلك.. ما رأيك؟!.

يبدو أن طلبي هذا كان مفاجئًا للشقيقتين.. إذ نظرتا إليّ.. ثم إلى بعضهما بتردد.. قبل أن تلتفت الشقيقة تجاه (نور) لتقول لها هامسة وبصوت مسموع رغم ذلك:

- أراها فكرة جيدة.. لكن لا يمكننا تنفيذها الآن.. فهذا سيثير شكوك والدينا.. أرى أن نعود إلى البيت ليومين سأقضيهما في غرفتك كي أخفف عنك عبء الوحدة ومواجهة ما ترينه وحدك.. ثم تستطيعين أن تبلغي والدينا أنك ستسافرين إلى إحدى الدول الخليجية برفقة صديقاتك.. لن يكون هذا غريبًا على مسمعهما كوننا نفعل ذلك بين الحين والآخر.. أي أنهما سيظنّان أنكِ خارج البلد.. بينما أنتِ في الواقع هنا.. في مستشفى الطب النفسي.. وبإمكانك التواصل معهما في أي وقت وطمأنتهما على حالك.. فلَن يرتابا بشيء ما دمتِ تحافظين على هذا التواصل.

قلت مصححاً:

- المعذرة.. لن يُسمح لها باستخدام هاتفها أثناء وجودها في المستشفى.. هذا ممنوع تمامًا.

نظرتا إليّ وكأنهما يريدان مني أن أعثر لهما على حل.. لكني تركت ذلك لهما.. فلا يمكن أن أقترح أي شيء قد يتسبب لي ولهما بمشكلة.. ويبدو أنهما فهمتا صمتي.. إذ قالت الشقيقة بحسم:

- حسنًا يا (نور).. سيكون هاتفك معي.. وسأرد على رسائل والدينا نصيًا على أنني أنتِ.. بإمكانك أيضًا تسجيل بعض الرسائل الصوتية المختلفة للسؤال عنهما كي أرسلها لهما بين وقت وآخر.. حتى يطمئنّا إلى أنكِ مسافرة بالفعل وأنكِ بخير.. لا تنسى أن خبرتهما في الهواتف الذكية بسيطة ولن يدركا أنّ الرسائل التي سيستقبلانها من هاتفك مسجّلة مُسبَقًا في واقع الأمر.

لم أمنع نفسي من الضحك أمام هذا الخبث اللطيف.. فابتسمَت الشقيقة بالمقابل.. لتسألني (نور) متشككة:

- كم من الوقت سأظل هنا؟!.

قلت مباشرة:

- لا أعلم.. قد يتطلب الأمر بضعة أيام إلى أن نفهم ما يحدث لك.

وضعت الشقيقة يدها على كتف (نور) وهي تطمئنها أن كل شيء سيكون بخير.. وأنه قد حان وقت ذهابهما على أن تعودا بعد يومين خلال ساعات عملي -والتي ستكون في الفترة الصباحية بعد أن تأكدت من جدول النوبات- فنهضتا من مكانهما وألقَت كل منهما كلمة وداع سريعة قبل خروجهما.

حضرت (نور) برفقة شقيقتها بعد يومين بالفعل في الفترة الصباحية وهي تجر حقيبتها خلفها استعدادًا لقضاء بضعة أيام في

المستشفى.. فكان المشهد يوحي وكأنني موظف جوازات في مطار مُطالَب بإنهاء إجراءات سفرها.. غير أنني اعتدت هذا المنظر.. وهكذا قمت بإجراءات دخولها كنزيلة في المستشفى.. على أن أتابع حالتها وأراقب حياتها اليومية علّني أفهم ما تعانيه وسبب عدم استجابتها للعلاج.. وقد أخذت منها كل ما جاءت به من أدوات قد تستخدمها لتجرح نفسها.. ووصفت لها أيضًا دواءً آخر يُستخدم لمعالجة الـ(فِصام) عله يجدي معها.. مؤكدًا للممرضات على ضرورة أن يتم منح (نور) الدواء في نفس الفترة من كل يوم.. كما رحت أتابع تصرفّاتها علّني أرى ردود أفعالها عندما تظن أنها ترى (سوداء) هذه أو أي أشياء أخرى خارجة عن عالم الواقع.

و.. لا أعرف إذا كان يتحتم عليّ أن أصف نفسي بالغباء.. أم أنّ هذا الوصف سيكون قاسيًا.. لأنني اكتشفت الخطأ الفادح الذي ارتكَبْته في حق (نور).. وأنه كان يتوجب عليّ الالتفات إلى عالم الـ(ميتافيزيقيا)(36) أو (الماورائيات)(37) اللذين أمنحهما اهتمامًا كبيرًا رغم الجدل الشديد الذي يحيط بهما.. فأنا على اقتناع أنهما يرتبطان بعلم النفس بشكل أو بآخر.. أقول هذا لأن ما حدث كان لا يُصدّق.. وكأنني لا أتعلّم أبدًا من الدروس الماضية والتجارب التي سردتها في قصص سابقة.

فبعد يومين.. ذهبت إلى غرفة (نور) كي أرى إن كانت هناك أي تطورات سلبية أو إيجابية على حالتها.. أتذكر أنني طرقت باب غرفتها ولم أسمع استجابة منها.. ففتحت الباب مباشرة لأراها تجلس على الأرض في زاوية الغرفة منكمشة على نفسها وجسدها يرتجف بطريقة ملحوظة.. وكوني أرى حالات كثيرة كهذه.. لم أفقد

أعصابي.. بل اقتربت منها بهدوء وأنا أسألها إن كانت بخير.. لكنها رفعت رأسها تجاهي وهي تشير خلفي بذعر.

التفتُّ إلى الخلف مبتسمًا مستعدًا لإخبارها أن لا أحد في الغرفة سوانا.. لكن ابتسامتي تلاشت سريعًا مع انقطاع التيار الكهربائي وهو ما لم يحدث أبدًا من قبل بالمناسبة.. إلاّ أن ذلك لم يستغرق أكثر من ثانية أو ثانيتين بالكثير.. ليعود التيار الكهربائي مرة أخرى وأنا ما زلت ملتفتًا حيث أشارت (نور).. عندها رأيت أحدهم يقف على بُعد خطوات قليلة مني.. فشعرت بقشعريرة فورية تجتاح جسدي.. وتصلّبت نظراتي تجاه امرأة عجوز طويلة القامة سوداء البشرة بيضاء الشعر.. ترتدي فستانًا أسود طويلاً وملامحها مرعبة جدًا.. ولولا وجود (نور) وشعوري بمسؤولية حمايتها لهربت فورًا والحق يقال.. فأي شخص مكاني كان سيفقد صوابه بكل تأكيد.

تمالكت نفسي وسألت العجوز بصوت متحشرج خرج من حنجرتي بصعوبة:

- من.. من أنتِ؟!.. لماذا أنتِ هنا؟!.

لم تجب.. وإنما اندفعت تجاهي بسرعة تعجز عنها العجائز.. وبطريقة جعلَتْني أقع على الأرض وأنا ألوح بذراعي وكأنني أضرب أعداء وهميين.. لكن العجوز اختفت فجأة ولم تصطدم بي.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن يكون ما رأيته وهمًا.. فالتفتُّ إلى (نور) التي قالت بانتصار وخوف مجتمعين:

- لقد رأيت (سوداء).. أليس كذلك؟!.. واضح أنك رأيتها.. هل أخافك المنظر؟!.. تخيل حالي وأنا أراها أكثر من مرّة وفي كل يوم

تقريبًا.. ولا يوجد من يصدقني أو يحميني من هذا الجحيم؟!.. هل ما زلت تصر على أنني مصابة بالـ(فِصام)؟!.

انفجرَت باكية بعد عبارتها الأخيرة.. لشعورها أنها مظلومة للغاية.. فأمسكْت بيدها كي أساعدها على النهوض وأنا أنظر حولي بذعر لم يتملّكني منذ مدة طويلة.. ثم أخرجت لها منديلاً لتمسح دموعها.. وجلسَت على مقعد في الغرفة في حين جلسَت هي على السرير.. والصمت والتوتر ما زالا يسيطران على الأجواء.. لقد كانت المسكينة صادقة طوال الوقت.. لكن ما تفسير ظهور تلك العجوز المخيفة؟!.. وما علاقة هذا بانقطاع التيار الكهربائي؟!.. هل (نور) متلبّسة بالجن؟!.. لا يمكن أن أشهد بشيء كهذا أمام المسؤولين وإلاّ لنسفْت مصداقيتي كطبيب.

سألت (نور) بأنفاس لاهثة عجزْت عن السيطرة عليها:

- هل هناك أحد غيرنا رأى (سوداء) هذه كما تطلقين عليها؟!.

هزّت رأسها نفيًا.. فسألْتها مرة أخرى:

- أخبريني.. هل ظهرَت لك خارج البيت غير هذه المرة؟!.

أجابت بالإيجاب مؤكدة أن (سوداء) ظهرت لها ذات مرة في دورة مياه أحد المطاعم.. وأثناء زيارة عائلية حيث كانت تقف في ركن غرفة المعيشة تحدق بها.. بل وظهرت لها إحدى المرات في السيارة جالسة على المقعد الخلفي.. حتى كادت (نور) أن تتعرض لحادث مروري من قوة المفاجأة.

قلت مستغربًا:

- ثمة أمـر يحيّرني.. لقـد كنـتِ وحـدك ترينهـا.. فمـا الـذي جعلني أراها أنا أيضًا للتو؟!.

لم تملك الإجابة عن سؤالي.. فسادَ الغرفة صمت طويل وأنا ما زلت أختلس النظر هنا وهناك كي أطمئن أن هذا الشيء لم يظهر مرة أخرى.. ثم سألت (نور) واضعًا يدي على رأسي بارتباك وأنظر إلى السقف محاولاً العودة إلى نقطة البداية.. علّني أعثر على تفسير منطقي لما يحدث:

- قد يبدو سؤالي غريبًا يـا (نـور).. لكني أريد أن تفكّري جيدًا.. لماذا يحدث لك كل هذا برأيك؟!.

قالت وهي تغمض عينيها محاولة العثور على إجابة:

- ربما تعرّضْت للحسد.. إنني متفوقة في دراستي.. كما أنّ الكثيرين يتحدثون عن جمالي.

ليس هذا وقت التباهي يا عزيزتي.. فقلت بجدية محاولاً تبيان موقفي تجاه مشكلتها كي تفكر بطريقة أفضل من هذه:

- أرجو أن تتذكري أن بإمكاني الإصرار على إصابتك بمرض الـ(فِصام) وأطلب منك العودة إلى بيتك والاكتفاء بأخذ الدواء.. فلا تظني أنني سأكتب عن إصابتك بالحسد في تقرير طبي.. لذا أريدك أن تفكري معي بجدية.. لا بد أن نعثر على الإجابة.. علينا فقط أن نفتح الأبواب أمام كل الاحتمالات.

لم تعرف كيف ترد على كلامي.. فقلت موضّحًا:

- حسنًا.. أخبريني.. هل مرّت حياتك بشيء يستحق الذكر ربما

يكون مرتبطًا -بشكل أو بآخر- بما يحدث لك حاليًا؟!.. أعرف أن السؤال معقّد وصعب الإجابة.. لكن حاولي.. هل مررت بشيء يجعلك مختلفة عن بقية الناس؟!.

سكتت وهي تفكر بسؤالي الذي لا أعلم إذا كنت قد صغته لها بطريقة سليمة.. ثم قالت بيأس:

- حياتي طبيعية جدًا يا دكتور.. قد تكون أبرز محطاتها إجرائي لعملية جراحية منذ أقل من سنة لإزالة ورم سرطاني.. وقد أخطأ الطبيب في البنج.. فكذت أفقد حياتي بسبب ذلك.

سألتها باهتمام شديد:

- ماذا حدث بالضبط؟!.. أخبريني.

أجابت وهي تحاول أن تتذكّر:

- أعتقد أنني اقتربت جدًا من الموت وقتها.. فرأيت نفقًا أبيض طويلاً.. وشعرت بسعادة عارمة وأنا أسير فيه.. خاصة عندما وصلت إلى نهايته ووجدت نفسي محاطة بمجموعة من أقاربي الموتى.. مع مجموعة أخرى من الأشخاص الذين لم أتمكن من تحديد هويتهم أو رؤية ملامحهم التي بدت ضبابية من دون أن أفهم السبب.

سكتَت وهي تحاول أن تتذكر المزيد.. لكني أشرت لها بيدي أن تتوقف لأقول وكأنني أمسكت بطرف الخيط:

- أنتِ تتحدثين عن (تجربة الاقتراب من الموت)(38).. إنها تجربة روحانية خارقة للطبيعة ولا أعلم في الواقع مدى مصداقيتها.

شهقَت وهي تقول بلهفة:

- نعم.. نعم.. هذا ما قالته إحدى صديقاتي عندما وصفت لها تجربتي.. فقد استخدمَت مصطلح (تجربة الاقتراب من الموت) أيضًا.

سكتُّ طويلاً وأنا أحدّق في الفراغ مفكّرًا محاولاً الخروج بنظرية مقبولة وفق المعطيات التي لدينا.. إلى درجة أن (نور) شعرت بالملل من صمتي.. فسألتني بحدة:

- لماذا أنت صامت هكذا؟!.. ما الذي يدور في رأسك؟!.

قلت وأنا أنظر إليها:

- ما سأقوله لك غير مؤكد ولا يخضع لأي منطق علمي.. لكن ما رأيناه معًا لا علاقة له بالعِلم أيضًا.. مما يتوجب علينا التفكير بطريقة مختلفة.. ما أريد قوله هو أنّ عندما انتهت (تجربة الاقتراب من الموت) التي مررتِ بها ونجوتِ منها.. ربما جلبتِ معكِ أحدًا بالخطأ من هناك.. من عالم الموتى.. أنا لا أرى أي تفسير آخر.. ولم أكن أجرؤ لأقول هذا الكلام لو لم أشهد بنفسي ما حدث قبل قليل.

قالت والشكوك تراودها:

- لكن (تجربة الاقتراب من الموت) هذه مررت بها منذ أكثر من سنة.. فلماذا انتظرَت (سوداء) طوال تلك المدة قبل أن تظهر في كوابيسي ثم تنتقل إلى عالم الواقع؟!.

مططت شفتي قائلاً:

- أستطيع أن أجد لذلك مبررات كثيرة يا (نور).. فربما يختلف الزمن في عالم الموتى عن زمننا نحن الأحياء.. وحتى تتضح لكِ الصورة.. يمكنكِ أن تقارني الأمر بالأحلام التي نعيشها أحيانًا فنظن أنها امتدت لأسابيع.. بينما هي في الواقع لا تتجاوز ثواني معدودة.

ظلت تنظر إليّ بلا فهم.. فقلت بمزيد من الشرح:

- لقد قلتِ أنّ (سوداء) ظهرَت في كوابيسك بعد حوالي سنة من مرورك بـ(تجربة الاقتراب من الموت).. أليس كذلك؟!.. لكن بالنسبة لعالم الموتى الذي تتواجد هي فيه.. قد تساوي تلك السنة ثوانٍ أو ساعات.

سألَتني برهبة:

- لكن هناك غيري ممّن مروا بالتجربة ذاتها.. فهل عادوا إلى الحياة ومعهم أحد من الموتى أيضًا؟!.

قلت صادقًا:

- بصراحة لا أظن.. فأنا لم أسمع بشيء مشابه من قبل.. لكن ربما فعلتِ شيئًا لا تذكرينه أثناء مرورك بتلك التجربة.. مما فتح لـ(سوداء) المجال كي تأتي معك إلى عالمنا.. لاحظي أنها تدرّجت في الظهور.. في البداية كانت في أحلامك.. ثم حاولت التجسد لكنك لم تشعري سوى بثقلها على فراشك.. ثم تلبّستكِ وجعلتكِ تؤذين نفسك.. وأخيرًا تجسّدت أمامك.. قبل أن تتجسد لي شخصيًا.. وأعتقد أن تجسّد الموتى لأكثر من شخص أمر بالغ الصعوبة.. وهذا جعل (سوداء) تستهلك طاقة نفسية معينة -ولا أعرف إن كان هناك

شيء كهذا أصلاً- مما تسبب بانقطاع التيار الكهربائي لثانية أو ثانيتين.. ربما لهذا السبب لا تظهر الأشباح أمام مجموعة من الناس.. لأن هذا يستهلك منها طاقة نفسية هائلة.. وتذكّري أرجوكِ أن ما أقوله لا يستند إلى العِلم.. وإنما هي مجرد محاولة للتفكير خارج الصندوق علّني أعثر على إجابات لما حدث.

سألتني وساقها اليمنى ترتجف بسبب توترها:

- ولماذا تلجأ (سوداء) إلى العنف؟!.. لماذا لجأت إلى إلحاق الضرر بي؟!.

ظللت صامتًا أفكر بعض الوقت.. ثم قلت:

- ربمّا لأن الموتى يروننا مخيفين أيضًا كما نراهم.. فلا أظن أن (سوداء) تبدو بهذه الملامح لو كانت على قيد الحياة.. ولا أتصور أن هناك ملامح بشرية في هذا العالم ممكن أن تكون مرعبة إلى هذا الحد.. أو ربمّا تكون هي من عالم الجن.. وتمارس أفعالها الشريرة عندما تتلبّس البشر كما نرى في بعض الأفلام.. الاحتمالات كثيرة كما ترَين.. لكن.. سواء كانت جنية أو شبح.. أظنها عادت معك من عالم الموتى -أو لنقُل العالم الآخر- أثناء مرورك بـ(تجربة الاقتراب من الموت) وعودتك منها على قيد الحياة.

نظرَت إليّ بإعجاب وكأن كلامي أقنعها.. لكن إعجابها تحوّل سريعًا إلى قلق وهي تسأل:

- لكن.. ألا يعني هذا أن علينا إعادة (سوداء) إلى عالم الموتى؟!.. كيف سنفعل ذلك؟!.. فلا أظن أن هذا ممكن إلاّ من خلال وسيط

روحي أو تحضير الأرواح.

أقلقني كثيرًا انغماسي معها في هذا الكلام الذي لو سمعه أحد أساتذتي.. لنادى بضرورة تجريدي من رخصة مزاولة مهنة الطب.. لكني أعرف ما رأيت.. وحاولت طمأنة نفسي أنّ كل ما أفعله الآن هو التفكير فقط.. حتى لو كان في أمور يرفضها العلم.

التقطتُ نفسًا عميقًا لأقول:

- أنا لا أعلم مدى مصداقية من يدّعون امتلاكهم لقدرات كهذه.. ولا أعرف كيف يمكننا العثور عليهم أصلاً.. ثم أننا لا نتحدث هنا عن تحضير روح أحد أصلاً.. لأن روح (سوداء) موجودة بيننا.. وإنما نريد إعادتها إلى عالمها.

أمسكَت بيدي بضراعة بعد أن شعرَت بصعوبة الموقف وأنني الوحيد الذي بإمكانه مساعدتها:

- أرجوكَ أن تعثر لي على حل يا دكتور.

قلت بلهجة غير واثقة:

- ربّما لو خضتِ (تجربة الاقتراب من الموت) مرة أخرى.. عندها ستتمكنين من إعادة (سوداء) إلى عالمها والتخلص منها إلى الأبد.

أجابت بحدة:

- هل جننت؟!.. وماذا لو فارقْت الحياة فعليًا هذه المرة؟!.

قلت بحزم:

- لا يوجد أحد في العالم سيملك حلاً مؤكدًا لمشكلتكِ يا (نور)..

ولو لم يعجبك كلامي.. فبإمكانك أن تخرجي من هنا الآن كي تبحثي عن حلول أخرى.. أو أن تكوني محظوظة وتقرر (سوداء) التوقف فجأة عن تدمير حياتك.

سكتت مترددة ولا ألومها على ذلك.. ولا ألوم نفسي على كلامي أيضًا.. فمن يستطيع أن يمنح حلاً جذريًا مؤكّدًا لمشكلة كهذه؟!.. ثم سألتني وقد استعادت هدوءها واختارت المضي معي إلى نهاية الطريق كما يبدو:

- حسنًا.. أخبرني على الأقل.. كيف يمكنني أن أخوض (تجربة الاقتراب من الموت) هذه؟!.. وهل هناك أي ضمان أنني لن أموت فعليًا؟!.. ثم ماذا لو نجوت وعدت إلى الحياة لكن برفقة أرواح لموتى آخرين.. ستتحول حياتي إلى جحيم أكثر مما أعيشه الآن.. ومن الممكن أيضًا أن تظل (سوداء) موجودة في عالمنا مهما فعلت.. ولا تعود إلى عالم الموتى أبدًا.. أي أنّ مخاطرتي بحياتي ستكون بلا فائدة.. هذا على اعتبار أن استنتاجاتك صحيحة فعلاً.

هززت كتفي وأنا أقول:

- لا أرى أي طريقة ممكنة سوى أن تقدمي على محاولة انتحار.. شرط أن يكون أحدهم بقربك لكي ينقذك أثناء لحظات احتضارك.. لكنها بصراحة عملية شديدة الخطورة وقد لا تتمكني من النجاة منها.. أما بالنسبة للشق الثاني من المشكلة.. فربما خوضك لـ(تجربة الاقتراب من الموت) هذه المرة بكامل إرادتك، سيجعلك مُدركة أن هناك مهمة مُعلّقة عليكِ إنجازها.. أن تعيدي (سوداء) إلى عالمها.

ردّت بحنق:

- كل ما تقوله عبارة عن احتمالات لا نعرف مدى صحتها.. كيف أخاطر بحياتي من أجل كلام غير موثوق؟!.

قلت مدافعًا عن نفسي:

- يا (نور).. أنتِ تعودين في كل مرة لتطلبي مني إجابات شافية.. رغم أنك تتحدثين عن أشياء محل جدل منذ القِدَم ولا تعترف بها الهيئات العلمية.. وأكرر لك أن بإمكاني تجاهل كل شيء وإنكار ما رأيتهُ بنفسي قبل قليل.. أو أعرضك على طبيب نفسي أكثر خبرة مني كي أبتعد عن المشاكل.. خلاصة الكلام.. لستِ مجبرة على الاستماع إلى كلامي أو تنفيذ ما أقوله.. تذكّري ذلك جيدًا.

قالت بعينين مغرورقتين بالدموع:

- إما أن أموت رعبًا.. أو أموت بسبب أفعال (سوداء) التي تتلبّسني وتجبرني على إلحاق الضرر بنفسي.. أو أموت أثناء ممارستي لـ(تجربة الاقتراب من الموت) والتي لن تحدث أصلاً إلاّ لو حاولت الانتحار.. وحتى لو نجوت من كل هذا بمعجزة ما.. لن تكون هناك أي ضمانات للتخلص مما أنا فيه.

غمغمتُ بكلمات آسفة أن هذا هو موقفها حاليًا.. ثم أخرجت محفظتي لأعطيها بطاقتي الشخصية التي تحوي رقم هاتفي وأهم معلوماتي.. وطلبت منها التواصل معي لو استجدّت أي أمور في حياتها ومن باب العلم بالشيء ليس إلاّ.. كوني لن أتسبب بأي ضرر للفتاة بسبب استنتاجات لا أعرف مدى صحتها أصلاً.

وأخيرًا.. قلت لها صادقًا قبل أن أخرج من الغرفة:

- بإمكانكِ الخروج من المستشفى في أي وقت تريدينه.. أو أستطيع أن أوصي ببقائك لفترة أطول إن كان هذا يشعرك بالأمان.. لكن لا تتوقعي أننا سنقوم بتقديم أي خدمات طبية لك بعد أن عرفنا حقيقة ما تمرّين به.. ولو قررتِ الخروج.. أتمنى أن نظل على تواصل.. لكي يعلم كل منّا بأحدث المستجدات التي يمر بها الطرف الآخر علّنا نصل إلى نتيجة.. فلا أعلم ما إذا كانت (سوداء) هذه ستظهر لي في غيابك.. آمل أن تنتهي كل هذه الأحداث على خير.

ظلّت ممسكة ببطاقتي الشخصية وهي تنظر إلى الأرض بملامح شاردة ورأس يمتلئ بالهموم.. أما أنا.. فلَم أملك ترف منح نفسي الوقت كي أستعيد رباطة جأشي.. لأن هناك أعمالاً كثيرة عليّ إنجازها.. ولديّ حالات في المستشفى أتابعها بصورة دورية.. لتنتهي النوبة أخيرًا وما زالت المخاوف تتملكني في أن تظهر لي (سوداء) في السيارة أو حتى في شقتي.. لكن شيئًا لم يحدث لحسن الحظ.

لقد عِلمت في اليوم التالي أن (نور) قد غادرت المستشفى برغبتها.. لتمر الأسابيع التالية بهدوء حيث بدأت مخاوفي بالتلاشي تدريجيًا مع مشاغل الحياة وانغماسي في عملي.. خاصة وأن (نور) لم تتواصل معي كما طلبت منها.. فركنت القصة في جوانب مظلمة من ذاكرتي مع بعض مشاعر الندم التي انتابتني لفترة.. لأنني أدخلت نفسي في مسألة بعيدة عن مجالي.. إذ كان من الممكن مثلاً إبلاغ (نور) أن عليها العثور على حل لمشكلتها في مكان آخر.. عند رجل دين ربما.. كما ندمت أيضًا على اقتراحي بمرورها بـ(تجربة الاقتراب من الموت).. آملاً ألاّ تكون قد حاوَلت الانتحار ثم توفيت فعليًا بعد أن فشلت بالعودة إلى عالمنا.. شاعرًا بأنني كنت أهرّف بما لا أعرف..

ومدركًا أنني ارتكبت خطأ من الأخطاء التي لن أكررها.

لكن بعد مرور عدة شهور.. وصلتني رسالة صوتية من (نور).. لم يكن من العسير أن أتذكرها هذه المرة وأتذكر الأحداث التي مررنا بها معًا.. فأنا لا أرى الأموات أو الجن كل يوم.. إنها حادثة واحدة فقط يستحيل أن أنساها.. وهذا ما جعلني أستمع إلى الرسالة باهتمام شديد.. وإلى دعوَتها للقائي للضرورة القصوى.. لأن هناك تطورات مثيرة في قصتها يهمني كثيرًا معرفتها كما تقول.. فطلبت منها -بعد رد التحية- أن تخبرني بما لديها هاتفيًا.. لكنها أصرت على أن ألتقي بها في مكان آخر بعيدًا عن أجواء المستشفى التي تذكّرها بأحداث تكرهها كثيرًا على حد وصفها.

قابلت (نور) في مساء اليوم التالي حسب الموعد في مقهى هادئ لا أذكر اسمه في منطقة (الشويخ).. فبدَت أفضل حالاً بكثير وقد استعادت بعضًا من وزنها.. وكانت ترتدي فستانًا طويلاً وحذاء رياضيًا وشعرها بدا مرتبًا للغاية.. كما بدت ثقتها بنفسها عالية ولم تعد ملامحها شاحبة مثلما رأيتها في السابق.

وكأي رجل.. لا بد أن أقول أنّ جمالها واهتمامها بنفسها أثارا إعجابي كثيرًا.. وشعرت بأنني محظوظ لأن أجلس أمامها وأنظر إليها كما يحلو لي.. مستذكرًا بألم تلك الرغبة المؤلمة بوجود أنثى في حياتي.. هذه حقيقة يجب الاعتراف بها مهما أحببت عزلتي.. إنها مشاعر حمقاء على كل حال وعليّ ألّا ألتفت لها.

بدأت (نور) حديثها بابتسامة عريضة وهي تقول:

- دكتور.. هل تذكر كلامك لي عن أنّ خوض (تجربة الاقتراب من

الموت) للمرة الثانية ربّما ينقذني ويمكّنني من التخلص من (سوداء) وإعادتها إلى عالم الموتى؟!.

قلت بحذر:

- وقلت لكِ أيضًا أنّ لا يمكن لأحد خوض (تجربة الاقتراب من الموت) إلاّ لو حاول الانتحار، وتم إنقاذه في لحظات أخيرة مدروسة جيدًا من قبل طبيب على درجة كبيرة من الخبرة.

ردت بثقة لم أجدها فيها في المرات السابقة:

- لقد قابلتك لكي أشكرك على إنقاذي.. فقد تخلّصت من (سوداء) وعادت حياتي إلى طبيعتها.

اتسعت عيناي دهشة وذعرًا وأنا أسألها:

- كيف؟!.. ومتى؟!.. وأين؟!.

ابتسمَت لدهشتي وقالت مستذكرة تلك الأيام القاسية:

- لقد ظلت الأمور كما هي بعد خروجي من المستشفى ولم يتغير شيء.. فتسببت لنفسي بأضرار كثيرة في الأيام التالية.. بل وكنت على وشك أن أقتل نفسي ذات مرة عندما ضربت رأسي بالحائط بقوة وكذت أهشّمه.. إلاّ أن شقيقتي تدخلّت بسرعة وأنقذتني.. وعمومًا فأنت رأيت عينة صغيرة للغاية من حياتي وتعرف كم كانت معاناتي.. مع العلم بأنني لجأت إلى رجل دين أيضًا لكنه لم يقدم لي أي حلول جذرية.

ظللت مُنصتًا باهتمام ولم ألمس كوب القهوة التي أصرّت هي على

شرائها لي.. لتكمل:

- كان من الواضح أن الأمر يرتبط بالفعل بعالم (الماورائيات) كما تقول.. وهذا ما جعلني أقتنع باللجوء إلى الحل الأخير المتاح رغم خطورته.. أن أخوض (تجربة الاقتراب من الموت) علّني أتمكن من إعادة (سوداء) إلى عالم الموتى.. ثم أعود أنا إلى الحياة.. لكن كيف سأفعل ذلك وحدي؟!.. فقد كنت واثقة أنك سترفض تمامًا مساعدتي في شيء كهذا.. لذا طلبت من شقيقتي أن تقف معي في أزمتي هذه.. مؤكدة لها أنني أفضّل أن تفشل التجربة وأن أموت فعليًا.. على أن تستمر حياتي بهذه الصورة.

سألتها وأنا أنظر إليها باهتمام:

- ماذا حدث بعد ذلك؟!.

ردت متنهدة:

- لم يكن من اليسير إقناع شقيقتي بالطبع.. لكنها وافقت في النهاية عندما وضعتها أمام الأمر الواقع.. وأخبرتها أنني سأخطو هذه الخطوة سواء بموافقتها أو لا.. مؤكدة لها أن فرصة نجاتي ستكون أفضل بمساعدتها.. وفي النهاية.. وافقت على مضض ومن دون اقتناع.

لا أعرف لماذا تذكرت قصة ذلك العالم الروماني الذي شنق نفسه أكثر من مرة على سبيل التجربة فقط(39).. لكني أزحتها جانبًا وسألت (نور) بفضول شديد:

- وكيف كانت طريقة الانتحار بالضبط؟!.. وماذا فعلت شقيقتك

لإنقاذك بعد مرورك بـ(تجربة الاقتراب من الموت)؟!.. وكيف عرفَت التوقيت المناسب لإنقاذك قبل أن تموتي فعليًا؟!

لوّحت بكفها مهدّئة مبتسمة كونها هي صاحبة الخبرة والعلم هذه المرة.. وليس أنا الذي بدوت كطالب يجلس أمام معلّمته ويستمع إليها في موقف من النادر جدًا أن أعيشه.. لتقول:

- في البداية.. وقبل موافقة شقيقتي على مساعدتي.. كنت أبحث عن وسيلة آمنة للانتحار.. وهي عبارة متناقضة ومضحكة بالمناسبة.. وقد كان هذا يعني أيضًا عدم استخدام وسائل الانتحار التقليدية من ابتلاع أدوية أو قطع شرياني مثلاً كما نشاهد في السينما.. فكان الحل الأنسب هو ما عثرت عليه أثناء بحثي في شبكة الـ(انترنت).. أن أقوم بممارسة ما يفعله المريض النفسي المصاب بـ(الولَع بالاختناق)(40).

غمغمت بخفوت:

- يا إلهي.. هذا لا يقل خطورة عن أي مقترح آخر.. الكثيرون قضوا نحبهم وهم يمارسون هذا الشذوذ السلوكي.

ردت بحزم:

- لم أجد أي وسيلة أخرى.. وهذا ما جعل شقيقتي تودّعني بحرارة وهي تبكي، خوفًا أن نفشل وأن أموت فعليًا.. إلاّ أن مجرد تنفيذ الفكرة -بغض النظر عن النتائج- شديد الصعوبة أصلاً.. فإرادة الحياة جعلتني أعجز عن الاستسلام لهذا الاختناق.. إذ كنت أقوم بنزع الكيس عن رأسي في كل مرة أكاد أختنق فيها.. إلى أن طلبت من

شقيقتي أن تقوم بتكبيلي.. وألّا تقوم بنزع الكيس مهما توسلت إليها.. وإنما سيكون عليها الانتظار إلى أن أفقد وعيي من شدة الاختناق وأكون على حافة الموت.. فتنتظر قليلاً ومن ثم تنقذني.

سكتت وهي تزفر بقوة.. ثم استطردت:

- إنها عملية صعبة جدًا لا توجد لها أي مقاييس علمية كما قلت بنفسك.. حيث سيتوجب على شقيقتي أن تنزع عني الكيس وتمارس التنفس الاصطناعي إلى أن أعود إلى الحياة.. ولو مت.. فلن يتهمها أحد بشيء.. وستدّعي أنها دخلت الغرفة ووجدتني ميتة منتحرة.. مع العلم أن شقيقتي شاهدَت العديد من إجراءات الإسعافات الأولية على (Youtube) وتدربّت عليها من أجل إنقاذي.. إلاّ أنّ الأمر ظل عسيرًا للغاية عليها بطبيعة الحال.

هذا لا يصدّق.. مؤكد أنها نجحت.. وإلاّ لن تأتي بي إلى هنا لتشكرني.. لكني تركتها تكمل قائلة وسط صمتي المطلق:

- كانت لحظات الاختناق مُرهِقة ذهنيًا ونفسيًا وجسديًا.. أن تختنق وأنت تدرك أنك تموت.. فتصاب بالهلع حتى لتنسى كل شيء آخر.. سوى رغبتك الطبيعية باستنشاق قطرة هواء -لو كانت كمية الهواء تقاس بالقطرات- لكني في النهاية فقدت وعيي يا دكتور وكنت على حافة الموت.. اللحظات التي كنت أنتظرها.

سألتها بفضولي العلمي:

- أستطيع أن أخمّن أنك خضت (تجربة الاقتراب من الموت) فعليًا.. أخبريني.. ماذا رأيتِ؟!.. ماذا حدث هناك بالضبط؟!.

أجابت مبتسمة:

- كانت التجربة هذه المرة أنقى وأجمل بكثير من المرة الأولى.. ربما لأنني خضتها برغبتي.. فكنت أسير في ذلك النفق الأبيض والابتسامة لا تفارقني.. إلى أن التقيت بعدد كبير من الموتى.. تمامًا كما حدث في المرة الأولى أيضًا.. بعضهم من أقاربي الذين رحلوا عن عالمنا.. وبعضهم بدوا لي ضبابيي المظهر يستحيل تمييز ملامحهم.. وأثناء ذلك.. شعرت وكأن أحدهم يقوم بوخزي بعدد هائل من الدبابيس في كل مكان من جسدي.. حيث استمرّت تلك المشاعر لحظات قليلة للغاية لو كنا نتحدث عن التوقيت الزمني الذي نعرفه.. لكن الألم كان لا يوصف.. ثم هدأ كل شيء فجأة.. لأرى أمامي (سوداء).. الفتاة التي كادت أن تدمر حياتي.. الغريب أنها لم تكن تبدو بالسوء الذي ظهرَت عليه في كوابيسي أو حين رأيناها في عالم الواقع.. نعم هي سوداء البشرة.. لكن ملامحها جميلة لا تختلف عن أي فتاة أخرى.. وكأن وجودها في عالمنا شوه مظهرها في أنظارنا لسبب لا أفهمه.

أغلقت عينيّ مفكرًا للحظة.. ثم قلت مستنتجًا:

- يا إلهي.. هل يُعقل ما طرأ في ذهني؟!.

أجابت بإعجاب:

- إن قلت ما أتوقّعه.. فأنت أذكى رجل عرفته في حياتي.

رددت معترضًا:

- لا علاقة لذلك بالذكاء يا (نور).. أنا فقط أربط الأحداث ببعضها

بناء على قراءاتي السابقة وبحثي المستمر في علم النفس وعالم (الماورائيات).. لقد قلتِ أنكِ التقيتِ ببعض أقاربك الموتى أثناء مرورك بـ(تجربة الاقتراب من الموت).. لكن هناك أيضًا من كانت ملامحهم ضبابية لم تتمكني من تمييزها.. أعتقد أن هؤلاء ليسوا موتى.. بل هم أشخاص من مختلف أنحاء العالم يمرّون بنفس التجربة لحظتها.. (تجربة الاقتراب من الموت).. ويبدو أنكِ عند نجاتك وعودتك إلى عالمنا في المرة الأولى.. أخذت معك (سوداء) -أو لنقل أخذت معك وعيها- ليبقى جسدها في حالة غيبوبة.

سكتُّ للحظة محاولاً ترتيب أفكاري.. ثم قلت:

- وهذا ما جعلها ترسل إليكِ إنذارًا تلو الآخر عندما ظهرَت في أحلامك أكثر من مرة لتدفعك إلى خوض (تجربة الاقتراب من الموت) للمرة الثانية.. على أمل أن تعيدي وعيها إلى العالم الآخر.. ومن ثم يعود إلى جسدها وتستيقظ من غيبوبتها.. لكن من الواضح أنّ التواصل بين عالَمينا شديد الصعوبة.. ولا يمكن أن يتم بالكلام أو التفاهم مثلاً.. لا شك أن هناك عوائق كثيرة نجهلها.. فبدأت (سوداء) تتجسد وتحاول بشتى الوسائل إيصال رسالتها إليكِ.. حتى وإن تخلل هذا أن تتحكم في وعيك أحيانًا وتجبرك على أن تلحقي الضرر بنفسك كي تنتبهي لوجودها، بعد أن شعرَت باليأس من عدم جدوى زيارتها لكِ في أحلامك.

كانت تنظر إليّ منبهرة بكلامي:

- إنك ذو عقلية نادرة يا دكتور.

صدقوني لا يفرحني هذا الكلام كثيرًا.. المدح الزائد يُعجزني عن

الرد.. لذا قلت مباشرة:

- شكرًا لك.. لكـن أخبريـني.. كيـف أعادتـك شقيقتـك إلى الحياة بعد مـرورك للمـرة الثانية بـ(تجربـة الاقتراب من الموت)؟!.

قالت وكأنها تستذكر لحظات لن تنساها أبدًا:

- لقد شعرت فجأة أنني أنسحب وأتلاشى من ذلك النفق الأبيض.. لأجد نفسي في غرفتي وفي عالم الواقع.. بعد أن نزعَت شقيقتي الكيس عن وجهي ومارسَت طريقة التنفس الاصطناعي كما اتفقنا.. وقد سيطر عليها الهلع حرفيًا وهي تفعل كل هذا.. إذ بدا ذلك واضحًا عندما استفقْت ووجدتها تنظر إليّ بارتياح ووجهها امتلأ بالعرَق رغم برودة أجواء غرفتي.. لكنها لم تسألني عمّا حدث.. لأنهـا رأت ابتسامتـي حال استفاقتـي.. فأدرَكـت أننـي سأكون بخير.. ومن يومها.. اختفت (سوداء) من حياتي ولم تعد تظهر لي في أحلامي أو يقظتي.. ربما عادت إلى جسدها واستعادت وعيها من الغيبوبة كما تقول.. أو ربما ماتت.. فأنا لا أعرف أي شيء عنها.

سكتّ متأملاً أحداث القصة.. لتقول (نور) مبتسمة:

- من المستحيـل أن أصـف لك مشاعـري في هذه التجربة الروحانية.. لقد صنعَت منـي إنسانة جديدة.. الطريف أنني قرأت منذ فترة بسيطـة عن ذلك السجين الذي طالب بالخـروج مـن السجـن لأنه مر بتجربة شبيهة(41).. وأنه يرغب بتصحيح الأمور في فرصته الثانية في الحياة.. أنا أفهم مشاعره جيدًا.. ولا ألومه على طلبه الغريب هذا.. فـ(تجربة الاقتراب من الموت) هي من أروع تجارب استكشاف الذات(42).

ابتسمت مُدركًا تلك الحادثة التي قرأت عنها بالفعل.. ولم أعلّق على كلامها.. لينتهي حديثنا عند هذا الحد.. حيث بدا كل منا راضيًا هادئًا مدركين أننا وصلنا إلى نهاية اللقاء.. وأنّ المشكلة قد حُلّت إلى الأبد.. وعندها فقط نهضت مستأذنًا.. مؤكدًا سعادتي لاستعادة (نور) حياتها الطبيعية.. لتنهض بدورها وهي تكرر كلمات الشكر والثناء عليّ وعلى اقتراحي العبقري الذي لم يكن ليخطر ببالها بحسب تعبيرها.

خرجنا من المقهى بعد هذا اللقاء الطويل.. وعدت إلى حياتي ظنًا أن (نور) لن تتواصل معي مرة أخرى.. لكن بعد بضعة أيام.. فوجئت بها تتصل لتدعوني إلى العشاء في أحد المطاعم الفاخرة حيث سنكون برفقة شقيقتها أيضًا.. لكني اعتذرت متعللاً بانشغالاتي الشديدة راجيًا أن تعفيني من أي دعوة.. على الأقل في الفترة الحالية.. لماذا؟!.. ربما لكرهي الشديد للالتزامات من أي نوع.. أو هو خوفي من أن يميل قلبي تجاهها أو تجاه شقيقتها.. حتى لو كانت دعوتهما بريئة بلا مقاصد سوى الشكر.. مؤكدًا في مكالمتي أن المهم هو انتهاء قصتها على خير.. وأنها تخلّصت أخيرًا من (سوداء) إلى الأبد.. وأننا قد نكون الوحيدَين -بالإضافة إلى شقيقتها- في هذا العالم الذين عرفنا أسرار جديدة متعلقة بهذه التجربة المروعة (تجربة الاقتراب من الموت).

خاتمة الكتاب

ما زلت هنا في شقتي.. أجلس في غرفة المكتب الصغيرة.. فلا شيء حولي سوى الملفّات والأوراق والقلم وكوب القهوة.. وصوت (عبدالحليم حافظ) الذي يسحبني معه إلى الماضي وحنينه الذي يقتلني قتلاً.

ألملم الأوراق الموجودة أمامي على طاولتي الخشبية التي ترافقني منذ سنوات حتى باتت تحمل عبَقًا غريبًا أعجز عن تفسيره.. إنها ليست مجرد قطعة أثاث.. وإنما ذاكرة ثقيلة كُتبتْ عليها أكثر بكثير مما تحدّثت.. فقد شهَدَت الكثير من الدموع المكتومة.. وجعلَتني أعيش آلاف المشاعر بين عشرات الأوراق التي وضعتها عليها.. كل هذا من دون أن أغادر مقعدي المريح.. خاصة وأنني أختبئ في شقتي دومًا لأن العالم الخارجي يتطلّب وجوهًا كثيرة.. وأنا لا أملك سوى وجهي الحقيقي.

أعلم أن بعض القصص كانت أقرب إلى الخيال وأبعد مما يحتمله العقل والمنطق.. لكنها محكَمة للغاية كما رأيتم بأنفسكم.. فالآلام التي قرأناها بدت حقيقية، كوني رأيت وجوه أصحابها وسمعت أصواتهم المضطربة.. ولمست ارتجاف أيديهم وهم يسردون تفاصيل لا يُفترض بإنسان أن يعيشها.. وأنا على ثقة أنّ من يقومون بتأليف هذه النوعية من القصص -لو كانت قصصهم غير حقيقية- فهم روائيون من طراز نادر.. روائيون يُخيفونك بخيالاتهم ويجعلونك تشك في الواقع.

وقد لفت انتباهي في السنوات الماضية كم المشاكل المعقّدة التي

يعيشها أبناء هذا الجيل.. والتي يصعب كثيرًا الإمساك بخيوطها أو محاولة حلّها.. فآلامهم ليست صاخبة.. لكنها عميقة ومتفرّعة يصعب الوصول إليها وفهمها.. وهُم لا يصرخون كما كان جيلي يفعل.. وإنما يختبئون داخل طبقات متداخلة من الصمت والتهكّم والانشغال الزائف.. إنهم يبحثون عن ذاتهم في كل شيء.. إلاّ في أنفسهم.. وأستشعر حاجتهم الشديدة إلى دفء إنساني حقيقي.. وإلى من يؤكد لهم تلك الحقيقة البسيطة.. أنّ مِن حق كل إنسان أن يتعب وينهار ويُحتضن من دون أن يُسأل عن الأسباب.

أما بالنسبة لي.. فقد كانت تلك القصص دومًا -ومنذ لحظة البدء بكتابة الجزء الأول- أشبه بتيار خفي جرَف حياتي إلى مسار آخر لم أكن أتخيله.. إذ شكّلتني قطعةً قطعة.. لأنها كانت تكسرني أحيانًا -لكن بطريقة ناعمة- ثم تعيد تجميعي بصمت.. حتى بت أشعر أن في داخلي خريطة لجروح لا تُرى.. لكنها تمنحني القدرة على فهم طبيعة النفس البشرية أكثر والكتابة عنها بصدق.

ولهذا سأبقى أكتب.. ما دمت أتنفس في هذا العالم الذي فرضه عليّ تخصصي كطبيب نفسي.. ومع بحثي المستمر في الأمراض والاضطرابات النفسية.. وما يصاحب ذلك من اكتشاف دهاليز معتمة وأسرار ثقيلة.. حيث يختلط العقل بالجنون.. والخيال بالحقيقة.. فلا تعرف في النهاية من يَحكي ومن يُحكى عنه.. وما هي حقيقة كل ما تسمع ويصل إليك من أحداث.. في رحلة طويلة تجاوزت عقدًا من الزمان.. نقلت إليكم خلالها الكثير من القصص المريبة والغامضة في 8 أجزاء كاملة.. وربما تمتد الرحلة إلى أجزاء ومحطات أخرى قادمة في المستقبل.. كلّما وجدت أن هناك ما يُستحق أن يُروى في هذه

السلسلة الخالدة.. سلسلة (حالات نادرة).

الدكتور (.....)

إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)

2) خلف أسوار العلم (2002)

3) الأبعاد المجهولة (2004)

4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)

5) في الجانب المظلم (2008)

6) حكايات من العالم الآخر (2008)

7) 17 (2008)

8) زيارات ليلية (2009)

9) رسائل الخوف (2010)

10) بعد منتصف الليل (2012)

11) منطقة الغموض (2012)

12) حالات نادرة (2012)

13) حالات نادرة 2 (2013)

14) حالات نادرة 3 (2014)

15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)

16) متحف الأرواح (2015)

17) حالات نادرة 4 (2016)

18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)

19) مخطوطات مدفونة (2018)

20) ملاذ (2018)

21) المُعقَّد (2019)

22) حالات نادرة 5 (2020)

23) جرعة زائدة (2020)

24) حالات نادرة 6 (2021)

25) نهايات غير متوقعة (2022)

26) حالات نادرة 7 (2023)

27) 18 (2024)

28) ملاذ 2 (2024)

29) كِتاب خالِد (2025)

30) حالات نادرة 8 (2026)

---

(1) للتذكير فإن (الحزن الوجودي) هو ترجمة للفظة الألمانية (Weltschmerz) وتعني حرفيا (ألم العالم) (World-Pain).. حيث صاغ هذا المصطلح الكاتب الألماني (جان بول) (Jean Paul) الذي اشتهر بكتاباته الرومانسية في القرن الـ 18 والـ 19.

(2) حقيقة

(3) للتوضيح فقط عن الفارق بين المصطلحات الثلاثة (الوعي) و(النضج) و(الحكمة).. فـ(الوعي) هو الإدراك واليقظة لما يحيط بنا من أفكار ومشاعر وأحداث.. وهو ما يمتلكه كل إنسان على وجه الأرض.. بينما (النضج) و(الحكمة) صفتان متصلتان، لكنهما ليستا متماثلتين.. فـ(النضج) هو التطور النفسي والاجتماعي الذي يحدث مع مرور الوقت واكتساب الخبرات في الحياة، مع تحمل مسؤولية القرارات التي يتخذها المرء وعدم الاكتفاء بإلقاء اللوم على الآخرين.. في حين أن (الحكمة) هي القدرة على اتخاذ قرارات سليمة تعود بالنفع على صاحبها.

(4) (بيئة العمل) (Ergonomics) هو علم يهدف إلى الاهتمام بكل ما يحيط بالإنسان من ظروف (كالأصوات والضوضاء والحرارة والضوء والتهوية.. إلخ).. مما يضمن راحته وسلامته وتحسين أدائه العام وتقليص مخاطر التعرض للإصابات البدنية أو النفسية.

(5) حقيقة

(6) (نظام بونزي) (Ponzi Scheme) هو عملية احتيال مالي يقوم خلالها المحتال بإيهام الناس بأنهم سيحصلون على أرباح كبيرة وسريعة مقابل استثمار أموالهم.. لكنه في الواقع لا يستثمر هذه الأموال بشكل حقيقي.. وإنما يستخدم أموال المستثمرين الجدد لدفع الأرباح للمستثمرين القدامى.. فيظن الجميع أن المشروع ناجح.. ويظل (نظام بونزي) قائمًا طالما يستمر الناس في ضخ أموال جديدة.. لكنه ينهار فور توقف تدفق الأموال.. أو عندما يطلب عدد كبير من المستثمرين استرجاع أموالهم.. مما يؤدي إلى خسارة معظمهم.. أو عندما يقرر المحتال أن يتوقف فجأة ويهرب من البلد مثلاً.. ومن العلامات الواضحة التي تدل على هذا النوع من الاحتيال.. الوعود بأرباح مرتفعة من دون مخاطرة.. وصعوبة سحب الأموال لاحقًا.. والغموض الشديد حول طبيعة الاستثمار.. وقد أُطلق اسم (نظام بونزي) على هذا النوع من الاحتيال نسبةً

إلى مُبتدعها في عشرينيات القرن الماضي.. وهو الإيطالي (تشارلز بونزي) (Charles Ponzi).

(7) حقيقة.. و(السمَك المنتفِخ) (Puffer Fish) يتميز بقدرته الفريدة -عند الشعور بالخطر- على نفخ جسمه بسرعة عن طريق ابتلاع الماء أو الهواء.. ليصبح كُرَوي الشكل ويصعب ابتلاعه.. وهو ما نشاهده في أفلام الكارتون.. ويحتوي (السمَك المنتفِخ) على سم بالغ الخطورة يُطلق عليه اسم (تيترودوتوكسن) (Tetrodotoxin).. وهو الذي يترك التأثير الذي تحدث عنه الطبيب في قصتنا.. علمًا بأن تأثير الشلل الناتج عن هذا السم يكون ما بين 24 إلى 72 ساعة حسب حجم الجرعة.. وتجري حاليًا أبحاث كثيرة لاختبار إمكانية استخدامه كمسكن قوي للألم أو كمخدر موضعي.. لكن هناك مخاوف من سوء تقدير الكمية التي يتطلب تناولها.. إذ يجب أن تكون محسوبة بدقة شديدة وإلاّ قد تتسبب بالوفاة كما قال الطبيب أيضًا.

(8) الوثائقيات (Documentaries) هي أفلام أو برامج مصوّرة هدفها التثقيف أو التوعية أو توثيق حدَث معين.. وتتميز بأنها تستخدم المقابلات، والصور، والمقاطع الأرشيفية، والتعليق الصوتي، والمشاهد الحية لتقديم محتواها.

(9) حقيقة بالطبع.

(10) تتحدث هنا عن (الشلل النصفي التشنّجي الوراثي) (Hereditary Spastic Paraplegia) -وتكتب اختصارا (HSP)- وهو عبارة عن مجموعة من الاضطرابات الوراثية النادرة التي قد تبدأ في أي عمر.. منذ الولادة إلى سن الـ 60 تقريبًا.. وتسبب ضعفًا وتيبسًا تدريجيًا في الساقين بسبب تلف في الألياف العصبية الممتدة من الدماغ إلى الحبل الشوكي.. ما يؤدي إلى صعوبة متزايدة في المشي.. وتختلف شدة الأعراض بين الأفراد.. حيث تتنوع بين الشكل المبدئي الذي يقتصر على التشنّج والضعف في الساقين.. والشكل المعقد الذي يتضمن أعراضًا إضافية مثل ضعف البصر والسمع ومشاكل في الإدراك.. ولا يوجد علاج لـ(HSP) حتى الآن.. لكن من الممكن تخفيف الأعراض من خلال

الأدوية والعلاج الفيزيائي الذي يحافظ على حركة العضلات ويقلل التشنّج.

(11) حقيقة.. فالـ(دوبامين) (Dopamine) هو ناقل عصبي كيميائي وهرمون يُفرز في الدماغ يساهم في تنظيم عدة وظائف حيوية.. ويُعرف بأنه (هرمون السعادة) لأنه يرتبط بمشاعر المكافأة والنشوة والتحفيز عندما نحقق هدفًا أو نخوض تجربة ممتعة.. وعندما يرتفع مستوى الـ(دوبامين) بشكل ملحوظ.. فإنه يساعد في تحسين المزاج وزيادة التركيز والانتباه وتحفيز السلوك الإيجابي.. كما يلعب دورًا كبيرًا في التحكم بالحركة.. ويُعد ضروريًا لوظائف العضلات.. في حين أن نقص إنتاجه -والذي يحدث لأسباب وراثية أو بسبب صدمات يتعرض لها الإنسان في حياته- يؤدي إلى مشاكل عديدة.. أبسطها الاكتئاب والخمول وضعف التركيز.. وغالبًا ما تساهم الأدوية النفسية في إنتاج الـ(دوبامين) في الدماغ بطريقة متوازنة تساعد الإنسان على مواجهة صعوبات الحياة بصلابة.

(12) (المحلول الملحي المُشبّع) ليس سوى ماء مذاب فيه (كلوريد الصوديوم) -ملح الطعام- إلى أقصى درجة ممكنة.. بحيث لا يمكن إذابة المزيد من الملح فيه.. فالفائض سوف يترسب في القاع.. مما يمنع نشاط البكتيريا والفطريات وبالتالي يمنع الجثة من التعفُّن.. وفي حال غُمرت جثة في محلول ملحي مُشبّع داخل وعاء محكم الإغلاق -كما هو الحال في قصتنا هذه- سيقوم حينها الملح بسحب الماء من أنسجة الجثة التي ستنكمش وتفقد الكثير من وزنها.. وتصبح تدريجيًا شبيهة بالمومياء.

(13) (هوَس التملّك الزائد) -أو ما يُعرف في علم النفس بـ(Pathological Possessiveness)- هو حالة عاطفية وسلوكية يتسم فيها الإنسان برغبة شديدة وغير منطقية في السيطرة على إنسان آخر.. بحيث يتعامل معه كما لو كان مُلكًا خاصًا له.. فلا يسمح له بأي استقلالية في اتخاذ القرارات التي تتعلق بحياته الخاصة.. وقد يصل الأمر إلى السلوك الإجرامي وارتكاب جريمة قتل كما هو الحال في قصتنا هذه.. وهذه الرغبة لا تنبع من حب صحي بالطبع.. وإنما من مشاعر داخلية عميقة هي خليط من انعدام الأمان والغيرة والخوف من الفقد أو الهجر.. علمًا بأن الذي يعاني هذا النوع من الـ(هوَس) عادة ما يُظهر سلوكيات

تدل على اضطرابه.. مثل التجسس والتحقق المستمر من مكان الإنسان الآخر.. ومحاولة عزله ومنعه من التواصل مع الآخرين.. كل هذا تحت غطاء الحب.. أما أسباب (هوَس التملّك الزائد) فكثيرة.. منها الطفولة التي تخللتها مشاعر فقدان.. أو التعرض للخيانة.. أو وجود اضطرابات نفسية أخرى أدّت إلى الإصابة بهذه الحالة العاطفية.. ومن المهم التمييز بين الغيرة العاطفية الطبيعية.. وهذا النوع من الهوَس الذي يتمثل في سلوكيات مؤذية تضعف -أو حتى تدمّر- العلاقات بكل أنواعها.. ما يستدعي علاجًا نفسيًا يساعد الإنسان على استعادة توازنه العاطفي وضبط سلوكياته.

(14) (اضطراب ما بعد الصدمة) Post-Traumatic Stress Disorder) -اختصارًا (PTSD)- هو حالة نفسية تصيب الإنسان نتيجة التعرض لحادثة -أو عدة حوادث- صادمة.. وتختلف شدة الأعراض من شخص لآخر.. أما أعراضه الشائعة فهي استرجاع الذكريات المؤلمة المتعلقة بالحادثة وبطريقة لا يمكن السيطرة عليها.. مع صعوبة شديدة في مواجهة الأشخاص المتسببين في ذلك.. والكوابيس المتكررة والقلق الشديد ومشاكل في التركيز واضطرابات في النوم.. وقد تظهر الأعراض مباشرة بعد الصدمة أو حتى بعدها بسنوات.. أما العلاج فغالبًا ما يشمل الأدوية وجلسات العلاج النفسي.. أو كليهما معًا بحسب سوء الحالة.. علمًا بأن التدخل المبكر يساهم بتسريع عملية الشفاء.

(15) يجب أن نوضح هنا الفارق بين (المرض) و(الاضطراب).. فـ(المرض) هو حالة جسدية أو نفسية يكون لها سبب محدد وواضح في الغالب.. مثل الفيروس.. أو البكتيريا.. أو العوامل الوراثية.. وله أعراض ومسار معروف نسبيًا يتمكن الأطباء من تشخيصه بوضوح ودقة.. مثل السكري.. أو الالتهاب الرئوي.. وحتى بعض الحالات النفسية كـ(الاكتئاب) أو الـ(فِصام) الذي سيتم التطرّق إليه في قصة قادمة.. أما (الاضطراب) فهو مصطلح يُستخدم غالبًا في علم النفس والطب النفسي.. ويشير إلى خلل في التفكير أو المشاعر أو السلوك.. ويعيق التوازن أو الأداء الطبيعي للإنسان.. مثل (الوسواس القهري).. أو (اضطراب ما بعد الصدمة).. وغالبًا يصعب على الأطباء تحديد مساره بدقة لأنه يقوم على نوبات متكررة أو متقلّبة في شدتها.. أي أن التقلّب هو جوهر الاضطراب.. بخلاف المرض الذي يكون مساره أوضح وأكثر ثباتًا.

(16) (الخرَف) (Dementia) هو مصطلح عام يصف مجموعة من الأعراض التي تؤثر على القدرات العقلية.. بما في ذلك الذاكرة والتفكير.. مما ينعكس سلبًا على حياة المريض اليومية.. ومن أكثر أنواع (الخرَف) شيوعًا مرض (آلزهايمر) (Alzheimer).. الذي يحدث نتيجة تراكم البروتينات في الدماغ.. مما يؤدي إلى تعطيل الاتصال بين الخلايا العصبية وموتها تدريجيًا.. كما توجد أنواع أخرى من (الخرَف) وهي أقل شهرة من (آلزهايمر).. مثل (مرض باركنسون) (Parkinson's Disease) الذي يحدث نتيجة موت -أو تلف- تدريجي مجهول السبب للخلايا العصبية في منطقة صغيرة جدًا من الدماغ تُسمى (المادة السوداء) (Substantia Nigra).. أو (الخرَف الوعائي) (Vascular Dementia) الذي يحدث نتيجة تلف الأوعية الدموية التي تغذي الدماغ.. وغالبًا ما يكون هذا التلف ناتجًا عن الجلطات الدماغية.. وتختلف الأعراض في حالات (الخرَف) بحسب الجزء المصاب من الدماغ.. لكنها عادةً تشمل بطء التفكير وصعوبة التركيز وضعف القدرة على تنظيم الأنشطة اليومية واتخاذ القرارات.

(17) (محاكمات السحر في سالم) (Salem Witch Trials) هي أحداث جرت في الفترة (1692-1693) ميلادية في قرية (سالم).. وهي قرية صغيرة في ولاية (ماساشوسيتس) (Massachusetts) الأمريكية والتي كانت وقتها مستوطنة بريطانية.. حيث كانت القرية تعيش أجواء مشحونة بسبب الصراع بين العائلات على امتلاك الأراضي وبسط السلطة.. إلى جانب التعصب الديني الشديد والخوف المستمر من الشيطان والسحر.. وقد بدأت الكارثة عندما ظهرت أعراض غريبة على بعض فتيات القرية.. مثل الصراخ الهستيري والتشنجات غير المفهومة.. مما أدى إلى تنامي موجة الخوف بين أهالي القرية.. ليتم اتهام ومحاكمة أكثر من 200 شخص من الأهالي بممارسة السحر.. فأسفرت المحاكمات عن إعدام حوالي 19 شخصًا.. وموت آخرين بسبب التعذيب أو لوجودهم في سجون قذرة امتلأت بالأمراض المعدية.. وقد كشفت هذه المحاكمات هشاشة العدالة حين يخضع الإنسان للخوف والخرافة.. مما أدى لاحقًا إلى تراجع نفوذ الكنيسة وإصلاح النظام القضائي لضمان المزيد من الإنصاف.. ويُنظر اليوم إلى (محاكمات السحر في سالم) على أنها فصل مظلم

من التاريخ الإنساني.. ودرس شديد الأهمية ضد التطرف الديني والاتهامات غير العادلة.. كما تم تخليد الضحايا في نصب تذكاري في القرية.. وقد خرجت عدة نظريات لتفسير الأعراض الغريبة التي ظهرت على فتيات القرية.. أهمها إصابتهن بحالة من (الهستيريا الجماعية) (Mass Psychogenic Illness).. وهي حالة نفسية حقيقية تحدث عندما يتأثر عدد كبير من الأفراد في مجتمع صغير منغلق بمجموعة من الأعراض الجسدية أو النفسية التي تبدأ عند شخص واحد.. فتنتقل إلى الآخرين، لأن الجو النفسي والاجتماعي المشحون بالخوف والقلق يجعل البقية يقومون بتقليد الأعراض بشكل لا إرادي ومن دون وعي منهم.. أي أن الأمر أشبه بالعدوى النفسية.. بينما خرجت نظرية أخرى تقول أنّ الفتيات تعرّضن في واقع الأمر إلى التسمم بـ(فطر الإرجوت) (Ergot Fungus).. و(فطر الإرجوت) هذا ينمو على نوع من الحبوب يشبه القمح كان يستخدمه أهالي القرية لصنع الخبز.. لكنها نظرية أقل قبولاً من الأولى.

(18) يجب أن نوضح هنا الفارق بين (الهلوسة) (Hallucination) و(الوهم) (Delusion).. فـ(الهلوسة) تعني سماع أو رؤية أشياء لا وجود لها في الواقع.. وتحدث أحيانًا نتيجة أسباب عضوية مثل (الصداع النصفي) أو لوجود أورام في الدماغ.. وأحيانًا أخرى نتيجة أمراض نفسية مثل (الفِصام) و(الاكتئاب الحاد) و(اضطراب ثنائي القطب).. أما (الوهم) فهو عبارة عن معتقدات خاطئة يتمسك بها الإنسان رغم تعارضها مع المنطق والواقع.. وقد يحتفظ بها أحيانًا من دون أن يعلن عنها أمام أحد.. ولتوضيح الفارق أكثر بين المصطلحين.. بإمكاننا القول أنّ (الهلوسة) تتعلق بالحواس.. بينما (الوهم) يتعلق بالأفكار والمعتقدات.

(19) كلمة (أيّان) تعني (متى).. أي تُستخدم للسؤال عن الزمن أو الموعد.. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في مواضع عدّة.. غير أنّ تحويل الكلمة إلى اسم لشخص يمنحها بُعدًا آخر يتجاوز معناها الاستفهامي.. ليصبح المعنى (اللحظة الفارقة) أو (الميعاد المحتوم).

(20) حقيقة بالطبع.. فـ(الذاكرة الإجرائية) (Procedural Memory) هي نوع من الذاكرة طويلة المدى.. تُخزّن المهارات والعادات التي نؤديها من

دون تفكير.. مثل القيادة أو العزف أو السباحة.. وتتكون هذه الذاكرة من خلال التكرار والممارسة.. حتى تصبح المهارة تلقائية ولا نحتاج لتذكّر خطواتها كل مرة.

(21) حقيقة.

(22) رغم أن المقالب تُعد سلوكًا فكاهيًا أو وسيلة للتسلية.. إلاّ أن بعض الأفراد يُظهرون هذا السلوك بشكل مفرط أو قهري كما هو الحال في قصتنا.. مما قد يشير إلى اضطراب نفسي بالفعل.. ففي هذه الحالات لا تكون المقالب مجرد دُعابة.. بل انعكاسًا لحاجة داخلية أو خلل في نمط الشخصية.. أو وسيلة للهرب من مشاعر مؤلمة.. أو حتى لإثبات الذات.. فلا يمكن الجزم بالدوافع والأسباب مباشرة.. لأن كل حالة تحتاج إلى متابعة ودراسة خاصة.. ومن ثم الخضوع للعلاج نفسي.

(23) (الحُصين) (Hippocampus) و(لوزة الدماغ) (Amygdala) هما جزءان حيَويّان من الدماغ يلعب كل منهما دورًا فريدًا ومهمًا في الوظائف العقلية والعاطفية.. إذ يُعد (الحُصين) مركزًا رئيسيًا لتكوين الذكريات والتعلّم، حيث يساعد على معالجة المعلومات الجديدة وربطها بالمعلومات السابقة، مما يتيح للإنسان تذكّر الأحداث والتجارب وتنمية قدراته المعرفية.. أما (لوزة الدماغ) فهي متخصصة في التعامل مع المشاعر والانفعالات الفورية.. خاصة تلك المرتبطة بالخوف والقلق والغضب.. وتلعب دورًا أساسيًا في تكوين الذكريات العاطفية التي ترتبط بتجارب الحياة.. ولو تعرّض (الحُصين) للتلف نتيجة نقص الأكسجين أو الاضطرابات النفسية أو الالتهابات العصبية.. فقد يؤدي ذلك إلى كثرة النسيان وصعوبة القدرة على تذكّر الأحداث، أو اكتساب معلومات جديدة كما في حالات (آلزهايمر).. في حين يحصل التلف في (لوزة الدماغ) نتيجة إصابات الرأس أو الاضطرابات النفسية أيضًا.. مما يتسبب باستجابات عاطفية غير طبيعية مثل فرط الخوف -أو حتى انعدامه- لذا فإن التوازن بين عمل (الحُصين) و(لوزة الدماغ) ضروري للصحة النفسية والعقلية.. والأضرار التي تلحق بأي منهما قد تؤثر على جودة الحياة بشكل واضح.

(24) (اضطـراب الشخصيــة النرجسيــة) Narcissistic Personality (Disorder) هو اضطراب نفسي يعاني خلاله المرء من شعور مبالغ فيه بأهمية ذاته.. ويسعى باستمرار للحصول على الإعجاب والتقدير من الآخرين وفرض هيبته عليهم من دون إنجازات حقيقية تدعم هذا الشعور.. ويُظهِر الشخص المصاب بهذا الاضطراب ثقة مفرطة بالنفس.. لكنه في الحقيقة يعاني من ضعف كبير في احترام الذات.. مما يجعله حساسًا جدًا لأي انتقاد أو ملاحظة سلبية.. فيرفض الاعتراف بأخطائه ويبرر أفعاله دائمًا ليظهر بصورة مثالية.. ومن أبرز سمات الشخص النرجسي قلة التعاطف مع الآخرين واستغلالهم لتحقيق أهدافه الخاصة.. كما يجد صعوبة في بناء علاقات صحية ومستقرة بسبب سلوكه الأناني واحتكاره للمحادثات وتجاهله لمشاعر مَن حوله.. وينبع هذا الاضطراب النفسي من عدة أسباب.. كالعوامل الوراثية.. والتربية التي تتسم إما بالدلال المفرط أو الإهمال والنقد القاسي.. إضافة إلى الصدمات النفسية في الطفولة.. وتوجد عدة أنواع من (النرجسية).. مثل (النرجسية السامة) التي تتسم بالسلوك الدرامي.. و(النرجسية السايكوباثية) التي تترافق مع العنف والعدوان.. أما العلاج فيتطلب غالبًا تدخلاً نفسيًا متخصصًا لمساعدة المريض على فهم ذاته بشكل أعمق وتعديل سلوكياته وتطوير مهارات التواصل.. والعمل على تغيير النظرة المبالغ بها عن الذات.. وقد يلجأ الطبيب النفسي إلى الدواء أيضًا اعتمادًا على الحالة.. ومن أبرز التحديات في (اضطراب الشخصية النرجسية) أنّ المريض غالبًا لا يعترف بوجود مشكلة.. ويرفض الاعتراف بحاجته إلى العلاج.

(25) (التقمص العاطفي) (Emotional Empathy) هو القدرة على فهم مشاعر الآخرين ومشاركتهم إحساسهم بأن تضع نفسك مكانهم.. أي أنه ليس مجرد تعاطف.. وإنما محاولة جادة للوصول إلى ما يشعر به الطرف الآخر.. وهذا السلوك يلعب دورًا كبيرًا ومهمًا في العلاقات الإنسانية.. لأنه يعزز التفاهم والرحمة.. وجميعنا نمارسه أحيانًا تجاه أحبائنا بقصد أو من دون قصد.. أي أن المعنى يختلف عن كلمة (Sympathy) التي تعني الشفقة أو التعاطف المعتاد الذي تبديه تجاه مشرّد أو مريض أو حيوان.. أو أثناء تقديم واجب العزاء.. إلخ.

(26) لم يعد يخفى على أحد أن (الزومبي) (Zombie) هم موتى يفترض أنهم أعيدوا إلى الحياة ليكونوا بلا مشاعر ويتحركون وفق غرائزهم فقط كما نشاهدهم في السينما.. وقد ظهرت أسطورة (الزومبي) في جزيرة (هاييتي) (Haiti) -إحدى جزر البحر الكاريبي- حيث شوهد فيها قديمًا أموات لم تبدأ جثثهم بالتحلل بعد، فكان الميت يمشي ويأكل ويشرب ويسمع ويتحدث.. لكنه مسلوب الإرادة تمامًا لا يحمل أي ذاكرة لحياته.. وقد كان الاعتقاد السائد بين الأهالي أن هذا من فعل السحر الأسود الذي يُمارَس على نطاق واسع في الجزيرة من قبل السحرة والمشعوذين.. إلاّ أن عالم (الأنثروبولجي) (ويـد دافيـــز) (Wade Davis) خرج بنظرية منطقية هي على الأرجح وراء ما يحدث.. إذ يقول أن الأشخاص الذين تقت إعادتهم إلى الحياة وتحولوا إلى (زومبي) كما يشاع، لم يكونوا موتى بالأصل، فهناك مادة يتم استخراجها من كائن حي برمائي شبيه بالضفدع يسمى (الغلجوم) (Toad)، وهذه المادة تجعل الإنسان في غيبوبة شبيهة جدًا بالموت، ثم يأتي بعدها المشعوذ ويعطي الضحية ترياق مضاد يجعلها تنهض وتعود إلى الحياة.. وكأعراض جانبية من تناول تلك المادة.. يفقد الإنسان جزءًا كبيرًا من ذاكرته.. ويبدأ بالتصرف وكأنه تحت تأثير مخدر قوي.. ليصبح مسلوب الإرادة مشوش الذهن من السهل إخضاعه للأوامر وإجباره على تنفيذها.. ليظنه الأهالي البسطاء ميتًا أعيدت إليه الحياة.. وما زال الإيمان بفكرة الزومبي موجودًا عند قِلة من أهالي الجزيرة إلى يومنا هذا.

(27) الطاحونة الضوئية (Crookes Radiometer) عبارة عن آلة فيزيائية تتكون من قارورة زجاجية محكمة الإغلاق مفرغة جزئيًا من الهواء.. وتوجد بداخلها 4 زعانف مثبتة على محور ثابت فيبدو شكلها كالمروحة.. ولكل زعنفة وجهان أبيض وأسود.. وعند سقوط ضوء على الطاحونة تبدأ بالدوران بسرعة تتناسب مع شدة الضوء الساقط عليها.. وهي تعد بذلك مقياسًا لشدة الضوء.. وقد اختُرعت الطاحونة الضوئية عام 1873 ميلادية على يد عالم الكيمياء والطبيب البريطاني (ويليام كروكس) (William Crookes).. وهي ما تزال تُصنع وتباع كجهاز ملفت للأنظار.

(28) كما نشاهد في السينما.. فإنّ قطع شريان الرسغ أمر في غاية الخطورة ومن الممكن أن يؤدي إلى الموت.. وذلك بسبب نزيف الدم الحاد والسريع.. فالشرايين هي التي تحمل الدم من القلب إلى الأطراف.. وعند قطعها.. يتدفق الدم منها بسرعة كبيرة في وقت قصير.. وهذا بدوره يؤثر على وظائف الأعضاء الحيوية مثل القلب والدماغ والكلى.. وبالتالي يتسبب بدخول الجسم في حالة من الصدمة تؤدي في النهاية إلى الموت.. ما لم يتم إسعاف المصاب بسرعة.

(29) على سبيل الفائدة.. يجب أن نوضح الفارق بين 4 مصطلحات.. وهي (الجريمة) و(الجنحة) و(الجناية) و(المخالفة).. فـ(الجريمة) هي لفظ عام تندرج تحته المسميات الأخرى.. أما (الجنحة) فهي الجريمة التي يعاقب عليها القانون بالحبس لمدة قصيرة لا تتجاوز عادة 3 سنوات.. وأحيانًا يُكتفى بالغرامة المالية.. مثل أفعال الشتم أو الإيذاء البسيط أو العبث بالقبور كما وَرَدَ في قصتنا.. في حين أن (الجناية) جريمة جسيمة يُعاقَب عليها بالسجن الطويل أو المؤبد أو حتى الإعدام.. مثل القتل والخطف والاتجار بالمخدرات.. وتُعتبر (المخالفة) أخف أنواع الجرائم في القانون.. وهي الفعل غير المشروع الذي لا يرقى إلى درجة الجنحة أو الجناية.. مثل مخالفات المرور البسيطة أو عدم الالتزام بالأنظمة البلدية.. وعقوبتها عادة لا تكون الحبس.. وإنما الغرامة البسيطة أو جزاءات أخرى محدودة.

(30) (اضطراب القلق المعمّم) (Generalized Anxiety Disorder)

-اختصارًا (GAD)- هو حالة يشعر فيها الشخص بقلق دائم يصعب عليه التحكم فيه.. حتى في المواقف العادية.. مما يؤثر على حياته اليومية.. ورغم أن أعراض هذا الاضطراب قد تشبه اضطرابات أخرى مثل (الوسواس القهري).. إلاّ أنه يعتبر حالة مستقلة.. ويشعر المصابون بـ(اضطراب القلق المعمّم) بأنهم في حالة تأهب دائم.. وكأن خطرًا ما يحدق بهم من دون سبب واضح.. مما يرهقهم نفسيًا وجسديًا أيضًا.. فغالبًا ما يصاحب هذا الاضطراب بعض الأعراض الجسدية مثل شد العضلات واضطرابات النوم أو حتى مشاكل في التركيز.. ويساهم التشخيص المبكر أو المتابعة العلاجية المنتظمة بتخفيف الأعراض

بشكل كبير ومنع تدهورها ومن ثم تحسين جودة حياة المريض.. ومن أجل الفائدة.. يجب الإشارة إلى أنّ اضطرابات القلق تتفرع إلى عدة أنواع -إلى جانب (اضطراب القلق المعمّم) موضوع قصتنا- منها:

1. اضطراب الهلع (Panic Disorder): نوبات مفاجئة ومتكررة من الخوف الشديد يصاحبها أعراض جسدية مثل خفقان القلب وضيق التنفس.

2. الرهاب أو الفوبيا (Phobia): خوف مفرط وغير منطقي من أشياء أو مواقف معينة (مثل الأماكن المرتفعة، الحشرات، الطيران.. إلخ).

3. اضطراب القلق الاجتماعي (Social Anxiety Disorder): خوف شديد من التقييم السلبي أو الإحراج في المواقف الاجتماعية، مما قد يؤدي إلى تجنبها.

4. اضطراب القلق الانفصالي (Separation Anxiety Disorder): يظهر غالبًا في الأطفال.. ويتعلق بالخوف من الانفصال عن الوالدين أو الأشخاص المقربين.. لكنه قد يصيب البالغين أيضًا.

5. اضطراب الوسواس القهري (Obsessive–Compulsive Disorder): ويسمى اختصارًا (OCD).. حيث يتمثل في أفكار متكررة غير مرغوب فيها وسلوكيات قهرية للتخفيف من القلق الناتج عنها.. ويُصنّف هذا الاضطراب أحيانًا على أنه مرض منفصل.. لكنه يرتبط بالقلق في واقع الأمر.

6. اضطراب ما بعد الصدمة (Post-Traumatic Stress Disorder): ويُعرف اختصارًا بـ(PTSD).. إذ ينشأ بعد التعرّض لحادثة -أو سلسلة من الحوادث- الصادمة.. ويتمثل في استرجاع متكرر للتجربة في أوقات اليقظة.. أو على شكل كوابيس تداهم المريض أثناء النوم.. وغالبًا ما يرافق (اضطراب ما بعد الصدمة) اضطرابات أخرى متفاوتة الحدة.. مثل نوبات الهلع والأرق والصداع المزمن.. ونوبات غضب مبالَغ بها والعزلة الاجتماعية والميول الانتحارية.. إلخ.

(31) (الاستيقاظ الكاذب) (False Awakening) هو نوع من الأحلام يظن خلاله الإنسان أنه استيقظ من النوم وبدأ روتين حياته اليومي.. مثل الذهاب إلى الحمام أو تناول الإفطار.. لكنه في الواقع ما يزال نائمًا ويحلم.. وأحيانًا يتكرر هذا الحلم عدة مرات في نفس الليلة.. و(الاستيقاظ الكاذب) عمومًا

حالة شائعة نسبيًا وغير خطيرة.. لكنها قد تكون مرهقة أو مزعجة إذا تكررت أو صاحبها شعور بالخوف أو التوتر.. مما يجعل من ساعات النوم مسرحًا للقلق والتوتر.. ويُفضل حينها استشارة أخصائي في اضطرابات النوم كما تقول بطلة القصة.

(32) (طب النوم) (Sleep Medicine) هو تخصص طبي حديث نسبيًا تأسس في أواخر سبعينات القرن الماضي.. ويركز على تشخيص وعلاج اضطرابات النوم مثل الأرق وانقطاع النفس أثناء النوم.. والمشي أو الكلام أثناء النوم.. واضطرابات الإيقاع الحيوي التي تجعل الإنسان ينام ويستيقظ في أوقات غير مناسبة.. أو يعجز عن الحفاظ على نمط نوم منتظم رغم أن مدة النوم الكلية قد تكون طبيعية.. كما يركز (طب النوم) على (الخُدار) (Narcolepsy) وهو اضطراب عصبي مزمن يسبب نُعاسًا نهاريًا شديدًا ونوبات نوم مفاجئة لا يمكن مقاومتها.. ويتنوع علاج اضطرابات النوم بين تعديل السلوكيات والأدوية والتدخلات الجراحية واستخدام جهاز (الضغط الهوائي المستمر) (CPAP – Continuous Positive Airways Pressure) الذي يعمل على دفع هواء مضغوط عبر قناع يوضع على الأنف أو الفم أثناء النوم.. وذلك بهدف إبقاء مجرى الهواء مفتوحًا ومنع توقُّف التنفس.. عِلمًا بأن إهمال هذه الاضطرابات يقود إلى سلسلة من الأمراض الجسدية مثل أمراض القلب، والسكري وارتفاع ضغط الدم وضعف جهاز المناعة.. والأمراض النفسية كالاكتئاب والقلق وضعف التركيز.

(33) الـ(فِصام) (Schizophrenia) هو اضطراب نفسي مُزمن ومعقّد يصيب التفكير والإدراك والسلوك.. ويُعد من أكثر الاضطرابات العقلية تأثيرًا على مجرى الحياة اليومية.. وتتجلى أعراضه في هلاوس وأوهام وأفكار غير واقعية.. بالإضافة إلى اضطراب في الكلام.. حيث يتحدث المريض أحيانًا بطريقة غير مترابطة أو مشوّشة تجعل من الصعب فهم ما يريد قوله أو متابعة أفكاره.. وقد يتصرف بشكل غريب أيضًا.. كالحركة بلا هدف.. أو الضحك والبكاء في مواقف غير مناسبة.. أو إهمال مظهره.. وهي سلوكيات تعكس اضطرابًا في تنظيم التفكير والمشاعر.. وتبدأ الأعراض عادة في أواخر المراهقة وحتى سن الثلاثين.. وتعود أسباب الـ(فِصام) إلى عوامل معقّدة متداخلة..

كالعوامل الوراثية.. أو البيئية مثل ضغوط الحياة الشديدة والصدمات النفسية والعزلة الاجتماعية.. أو أحداث قاسية في فترة الطفولة والمراهقة.. ورغم أنه لا يوجد علاج شافٍ للـ(فِصام).. إلّا أن الأدوية والجلسات النفسية والدعم الاجتماعي يساعدون على تقليل الأعراض وتحسين جودة الحياة بشكل ملحوظ.

(34) يتحدث الطبيب النفسي هنا عن (إيذاء النفس غير الانتحاري) (Non-suicidal Self-injury) وهو سلوك يبدأ عادة في سن المراهقة المبكرة.. وقد يتوقف لاحقًا.. لكنه من الممكن أن يصبح مزمنًا لدى البعض.. حيث يقوم المراهق بإلحاق الأذى بجسده عمدًا من دون نية الانتحار.. وإنما هي بمثابة صرخة احتجاج على ما يحدث في حياته وبهدف التخفيف من الألم العاطفي.. أو بسبب الشعور بالتوتر أو الحزن أو الغضب.. إلخ.. أما الأسباب فهي متعددة.. كالتعرض لاعتداء جسَدي أو جنسي أو إهمال في الطفولة.. أو الضغط الاجتماعي أو المدرسي أو العائلي في سن المراهقة.. وتشمَل طرق إيذاء النفس الشائعة خدش الجلد بأداة حادة أو نحت كلمات عليه.. أو الحرق أو ضرب النفس بقسوة.. أو حتى إدخال أشياء تحت الجلد.. وغالبًا ما يمارِس الإنسان هذا السلوك عندما يكون بمفرده.. ويقوم بتكراره بين وقت وآخر.. وغالبًا أيضًا ما يتبع هذه السلوكيات مشاعر الذنب والخجل.. مما يزيد من المعاناة النفسية.. علمًا بأنه يجب أخذ إيذاء النفس على محمل الجد.. فقد يتطور إلى محاولة انتحار حقيقية في بعض الحالات.. وينصح بضرورة زيارة طبيب نفسي لتقييم الحالة وتقديم العلاج المناسب.

(35) فيلم (العقل الجميل) (A Beautiful Mind) يتحدث عن قصة عالم الرياضيات الأمريكي العبقري (جون ناش) (John Nash) (1928 - 2015) الذي يحقق إنجازات رائدة في مجاله العلمي.. وفي نفس الوقت يصارع مرض الـ(فِصام) حيث تختلط عليه الهلاوس بالواقع فيعيش صراعًا داخليًا رهيبًا.. لكنه يتمكن من التعايش مع مرضه بمساعدة كبيرة من زوجته.. إلى أن ينال جائزة (نوبل) في النهاية.. الفيلم إنتاج عام 2001.

(36) الـ(ميتافيزيقيا) (Metaphysics) فرع من الفلسفة يهتم بدراسة

طبيعة الوجود والكينونة والواقع.. ويناقش أسئلة عميقة مثل: ما هو الوجود؟!.. ما طبيعة الزمن؟!.. ما العلاقة بين العقل والجسد؟!.. ما هي الهوية؟!.. إلخ.. وكلمة (ميتافيزيقيا) نفسها تعني (ما وراء الطبيعة).. ورغم أن (أرسطو) أول من كتب في هذا المجال عندما قام بتأليف كتاب يتحدث عن أسرار الكون أطلق عليه اسم (الفلسفة الأولى).. إلاّ أنه لم يستخدم مصطلح (ميتافيزيقا) في أي من محاضراته أو كتبه على الإطلاق.. وإنما جاء هذا المسمى بالصدفة.. فبينما كان تلامذته يقومون بتصنيف كُتبه في مكتبته الخاصة.. جاء كتاب (الفلسفة الأولى) مباشرة خلف كتاب (الطبيعة) الشهير -الذي قام بتأليفه (أرسطو) أيضا- فأطلق تلامذته على كتاب (الفلسفة الأولى) اسم (ميتافيزيقا) أي (الكتاب الذي جاء ترتيبه بعد كتاب الطبيعة).. ومن هنا جاءت التسمية.. علمًا بأن أصل الكلمة يوناني.. فكلمة (Meta) تعني (ما وراء) وكلمة (Physics) تعني (الطبيعة).. ويأتي المعنى كاملاً باللغة العربية (ما وراء الطبيعة).

(37) (الماورائيات) (Paranormal) مصطلح يشير إلى الظواهر الخارجة عن المألوف والتي تعجز العلوم الطبيعية عن تفسيرها حتى الآن.. وتشمل هذه الظواهر كل ما يتعلق بالأشباح والأرواح والتخاطر والقدرات الخارقة.. وترتبط (الماورائيات) غالبًا بالأفكار الشعبية عن العالم الآخر والغيبيات.. وهي ليست فرعًا من الفلسفة كما هو الحال مع الـ(ميتافيزيقيا).. لكنها أقرب إلى المعتقدات والتفسيرات غير المؤكدة علميًا.. ما يجعلها مثار جدل مستمر بين من يعتقد بها.. ومن يعتبرها أوهامًا أو تفسيرات خاطئة لحالات نفسية وظروف استثنائية.

(38) (تجربة الاقتراب من الموت) (Near Death Experience) هي حالة يمر بها بعض الأشخاص عندما يصبحون على حافة الموت.. كما في حالات العمليات الجراحية الخطرة.. أو السكتة القلبية.. أو الإصابات الشديدة جراء الحوادث المرورية.. وغالبًا ما يصف الناجون شعورًا بالخروج من الجسد والمرور في نفق أبيض طويل.. ومن ثم لقاء أقارب وأحبّاء متوفيين.. ويصاحب ذلك مرور شريط حياتهم أمام أعينهم في لحظات معدودة متسارعة لكن شديدة الوضوح في نفس الوقت.. ويصاحب هذا إحساس عميق بالسلام والطمأنينة.. ويرى بعض العلماء أن ما يحدث هو في الواقع نتيجة نشاط دماغي مضطرب.. بسبب نقص وصول الأكسجين إلى الدماغ في الحالات الطبية الحرجة.. بينما

يعتقد آخرون أن (تجربة الاقتراب من الموت) هي في الواقع لمحات حقيقية من عالم الموتى.. واللافت أن المكفوفين أيضًا أفادوا برؤى بصرية شبيهة جدًا بما رآه الآخرون خلال مرورهم بهذه التجربة.. مما يجعل الموضوع مَثار جدل كبير بين التفسيرات العلمية والتصورات الماورائية.

(39) يتحدث هنا عن (نيكولاي س. مينوفيتشي) (Nicolae S. Minovici) وهو طبيب روماني وعالم في الطب الشرعي ومؤسس جمعية الطب الشرعي في (رومانيا).. حيث اشتهر بأبحاثه الجريئة حول تأثير الشنق على الجسم البشري.. ففي عام 1905 ميلادية أجرى 12 تجربة شنق على نفسه استمرّت كل منها بضع ثوان.. لاحظ خلالها أعراضًا كثيرة مثل فقدان الرؤية وطنين الأذنين وتغير لون الجلد.. كما أجرى تجارب اختناق على متطوعين بالضغط على شرايينهم لفترات قصيرة لفهم ما يشعرون به خلالها.. ورغم الجدل الأخلاقي حول هذه التجارب.. إلاّ أنها ساهمَت في تطوير الفهم العلمي لكيفية عمل أعضاء وأجهزة الجسم.. مثل القلب والرئتين والدماغ والعضلات.. وكيف تتفاعل مع بعضها للحفاظ على حياة الإنسان.

(40) (الولَع بالاختناق) (Erotic Asphyxiation) عبارة عن إيقاف تزويد الدماغ بالأكسجين بصورة متعمّدة للحصول على مشاعر شبيهة باللذة الجنسية.. فالفقدان المفاجئ للأكسجين يعني -بالمقابل- تراكُم غاز (ثاني أكسيد الكربون) في الدماغ.. مما يتسبب بالهلوسة المختلطة بالنشوة.. وعادة يتم استخدام أساليب مختلفة لحدوث ذلك.. مثل الخنق بارتداء الرأس كيسًا من البلاستيك.. أو الضغط الشديد على الصدر.. أو أي أساليب أخرى تحقق الهدف.. مع العلم أن هذه الممارسات في غاية الخطورة، حتى لو تمت بحرص وعناية.. إذ تصعب كثيرًا السيطرة الكاملة على عملية الاختناق والوصول إلى اللذة الجنسية من دون أن يتعرض المُمارِس لخطر الوفاة.. ويعتبر (الولَع بالاختناق) نوعًا من أنواع الشذوذ الجنسي كما هو مذكور في (الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية) الصادر عن (الاتحاد الأمريكي للأطباء النفسيين).

(41) تتحدث عن السجين الأمريكي (بنيامين شرايبر) (Benjamin Schreiber) المحكوم عليه بالسجن مدى الحياة بسبب جريمة قتل ارتكبها

عام 1996 ميلادية.. عندما أثار جدلاً قانونيًا غير مسبوق بعد أن ادّعى أن حكمه بالسجن انتهى لأنه مات مؤقتًا في عام 2015 ميلادية نتيجة إصابته بتسمم دموي حاد أدى إلى توقف قلبه.. قبل أن يُعاد إنعاشه من قِبل الأطباء.. وقد استند (بنيامين شرايبر) في دعواه إلى أن موته -حتى لو كان لفترة قصيرة- يُعد قانونيًا تنفيذًا لحكم السجن مدى الحياة.. مما يعني أنه يتحتّم على السلطات إطلاق سراحه.. غير أن محكمة الاستئناف رفضت هذه الحجة واعتبرَت أن (مدى الحياة) تعني استمرار وجود الشخص على قيد الحياة بشكل فعلي.. وبالتالي فإن الحكم بالسجن ما زال ساريًا.. ورغم عدم حدوث أي تطورات في القضية.. إلاّ أن الحادثة أثارت اهتمامًا واسعًا.. ووُصفت بأنها من أغرب الحجج القانونية التي قدمها سجين للطعن في حُكم.

(42) (استكشاف الذات) أو (الاستكشاف النفسي) (Psychonautics) عبارة عن طريقة يستخدمها بعض الأشخاص لفهم العقل والنفس من الداخل.. فكما يذهب رائد الفضاء لاستكشاف الفضاء.. يغوص المستكشف النفسي في رحلة داخل عقله لاستكشاف نفسه.. مستخدمًا عدة وسائل لتحقيق ذلك.. مثل التأمل لمدة طويلة أو ممارسة اليوغا.. أو ممارسة طقوس روحانية بعمق شديد مثل الصلاة.. ومن فوائد الاستكشاف النفسي أنه يساعد على تخفيف التوتر والقلق، ويوسّع الإدراك والتفكير.. كما يسهم في دعم النمو الشخصي وتعزيز مَلَكة الإبداع عند الإنسان.